لغز باراديس

جوزيف سميث فليتشر

ترجمة محمد يحيى

لغز بارادايس

تأليف
جوزيف سميث فليتشر

ترجمة
محمد يحيى

مراجعة
مصطفى محمد فؤاد

هنـــداوي

لغز بارادايس

The Paradise Mystery

جوزيف سميث فليتشر

J. S. Fletcher

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: يوسف غازي

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٢٤٠٥ ٣

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٠.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢١.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب، وتصميم الغلاف، والترجمة العربية لنص هذا الكتاب مُرَخَّصة بموجب رخصة المشاع الإبداعي: نَسْبُ المُصنَّف، الإصدار ٤٫٠. جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي خاضعة للملكية العامة.

المحتويات

١- الوصي فقط ٧
٢- اكتساب عدو ١٥
٣- سُلم سانت رايثا ٢٣
٤- غرفة في فندق مايتر ٣١
٥- قصاصة الورق ٤١
٦- عن طريق الخطأ ٥١
٧- المسار المزدوج ٥٩
٨- الإشبين ٦٧
٩- منزل صديقه ٧٥
١٠- دبلوماسية ٨٣
١١- الحجرة الخلفية ٩١
١٢- مقتل عامل البناء المساعد ٩٩
١٣- برايس يُسأل سؤالًا ١٠٧
١٤- من الماضي ١١٥
١٥- العرض المزدوج ١٢٣
١٦- السبق ١٣٣
١٧- المراقبة ١٤١
١٨- مفاجأة ١٥١
١٩- دهاء الشيطان ١٥٩
٢٠- جيتيسون يتدخَّل ١٦٧

٢١- فندق ساكسونستيد ١٧٧

٢٢- آراء أناس آخرين ١٨٥

٢٣- أمرٌ غيرُ متوقَّع ١٩٣

٢٤- براعة ٢٠١

٢٥- بيت البئر العتيق ٢٠٩

٢٦- الرجل الآخر ٢١٧

٢٧- السرُّ المصون ٢٢٥

الفصل الأول

الوصي فقط

السيَّاح الأمريكيون معجَبون حقيقيون بكلِّ ما هو عريقٌ وجذَّاب في إنجلترا، ودائمًا ما يتوقفون، ويحبسون أنفاسهم في لحظةٍ مفاجئة من الدهشة، أثناء مرورهم عبر البوابة نصف المتهدِّمة التي تؤدي إلى رايتشستر كلوس. إذ لا يوجد مكانٌ آخر في إنجلترا يُمثِّل مشهدًا أكثرَ جمالًا لصفاء العالم القديم. إذ يرتفع هناك أمامَ أعينهم، في وسط مرجٍ أخضرَ كبير، مُحاطًا بأشجار الدردار الطويلةِ والزَّان العملاقة، المبنى الضخمُ للكاتدرائية التي تعود إلى القرن الثالثَ عشر، والتي تخترق القمَّة المستدقَّة لبُرجها العالي السماءَ وتحوم حولها الغربان باستمرارٍ وهي تنعِق. كما يتحوَّل الحجرُ البالي، الذي يبدو عن قربٍ رقيقًا مثل الدانتيل، في ساعاتٍ مختلفة من اليوم إلى درجاتٍ متغيرة من اللون، تتنوَّع من الرمادي إلى البنَفسجي، بينما تتباينُ ضخامة الصَّحن الكبير والجَناحَين بنحوٍ مثير للإعجاب، مع التناقص التدريجي لقمة البرج، التي ترتفع عاليًا فوق البرج ونوافذِ الإضاءة العلوية إلى أن تُصبح في النهاية مجردَ خطٍّ مقابل السماء. في الصباح، كما في وقتِ ما بعد الظهر، أو في المساء، يسود هنا جوٌّ دائم من السلام؛ ليس حول الكنيسة الكبيرة وحدها، ولكن في البيوت الجذابة والعريقة التي توجد في كلوس. إن هذه المنازل التي هي أقلُّ قِدَمًا بقليل من الكتلة الحجرية الضخمة للكاتدرائية التي تُطل عليها نوافذُها التي يُغطيها اللبلاب، تجعل المراقبَ العادي يشعر أن الحياة هنا، بخلاف أيِّ مكان في العالم، من المؤكد أنها تسير بسلاسةٍ وهدوء. تحت تلك الجملونات العالية، خلف تلك النوافذ ذاتِ الفواصل المزخرفة، في الحدائق العتيقة الجميلة الواقعة بين الأروقة الحجَرية والمرج المظلَّل بالدردار، لا يمكن أن يوجد، حسَبما يعتقد المرء، سوى الراحة والسرور؛ حتى الشوارع المزدحمة في المدينة القديمة، خارج البوابة المتداعية، تبدو، في الوقت الحاليِّ، بعيدةً.

في واحدٍ من أقدمِ هذه المنازل، شبهِ مختبئ خلف الأشجار والشجيرات في أحد أركان كلوس، كان يجلس ثلاثةُ أشخاص لتناول الإفطار في صباحِ يومٍ صحوٍ من أيام شهر مايو. كانت الغرفة التي يجلسون فيها متناغمةً مع المنزل القديم ومحيطه — فهي غرفةٌ طويلة منخفضةُ السقف، جدرانها مبطَّنة بألواحٍ من خشب البلوط، وسطحها مبطَّن بعوارضَ من نفس نوع الخشب — وتحتوي على أثاثٍ عتيق، ولوحات، وكتب قديمة، بينما تُخفِّف حدَّةَ جوها العتيق كمياتٌ كبيرة من الزهور، موضوعة هنا وهناك في أوعيةٍ خزَفية قديمة، وعبر نوافذها العريضة، التي فُتحت ستائرها على مِصراعَيها، كان هناك مشهدٌ جذَّاب لحديقةِ أزهارٍ عاليةِ الحواف، كما تُشاهَد عبر الآفاق من خلال الأشجار والشجيرات أجزاءٌ من الواجهة الغربية للكاتدرائية، وهي تبدو الآن قاتمةً ورمادية في الظل. لكن في الحديقة وفي هذه الغرفة المعطرة برائحة الزهور، كانت الشمس تسطع عبر الأشجار على نحوٍ يبعث على البهجة، وتُسلِّط وميضًا من الضوء على الأواني الفضية والخزفية الموضوعة فوق الطاولة وعلى وجوه الأشخاص الثلاثة الذين يجلسون حولها.

من بينِ هؤلاء الثلاثة، كان اثنان منهم في سنِّ الشباب، بينما الثالث يُعَد من هؤلاء الرجال الذين يصعب تمامًا تخمينُ أعمارهم؛ فهو رجلٌ طويل القامة، حليقُ الذقن، لامعُ العينين، نشط، حسَنُ المظهر بطريقةٍ تدل على البراعة والمِهنية، ويكاد مَن يراه يجزم بأنه يمتهنُ مهنةً تتطلب تعليمًا راقيًا. في ظل الضوء العادي، لم يكن يبدو أنه قد تجاوزَ الأربعين، لكن الضوء القوي يكشف حقيقةَ أن شعره الداكنَ به خطٌّ رمادي، وكان يُظهر ميلًا إلى الشيب عند الصُّدغَين. إن هذا الرجل القوي، والذكي، والمهندم والمتأنق بشدةٍ كان طبيبًا يتمتع بعلاقة ممتازة مع مجتمعِ مدينةِ الكاتدرائية ذي الخصوصية. وكانت تحيط به هالةٌ لا يمكن إنكارها من الرضا والرفاهية — بينما كان يُقلب كومةَ الرسائل الموضوعة بجانب طبقه، أو يُلقي نظرةً خاطفة على صحيفة الصباح الموجودة بجانب مرفقه، كان من السهل إدراكُ أنه ليس لديه أيُّ هموم تتعدَّى مشاغلَه اليومية، وأنها — على حدِّ علمه في ذلك الوقت — ليست من المحتمل أن تُؤثِّر عليه كثيرًا. وعند رؤيته في هذه الظروف المنزلية المبهجة، على رأس طاولته، مع الكثير من الأدلة على الراحة والرغد والرفاهية المتواضعة، كان أيُّ شخص سيقول، دون تردُّد، إن الدكتور مارك رانسفورد هو بلا شكٍّ أحد الأناس المحظوظين في هذا العالم.

كان الشخص الثاني من الثلاثة شابًّا في السابعة عشرة من عمره على ما يبدو؛ لقد كان فتًى قويَّ البِنية، ووسيمًا من نوعية طلبة المرحلة الثانوية، وكان منهمكًا بطريقة جدِّية في

أداء أمرَين مختلفين كلٌّ منهما عن الآخَر على نحوٍ كبير؛ الأول، تناوُل البيض واللحم المقدَّد والخبز المحمَّص الجاف، والثاني، دراسة كتاب مدرسي خاص باللغة اللاتينية، كان قد رفعه أمامه مُسنِدًا إياه على إناء التوابل الفِضِّي القديم. وهكذا راحت عيناه السريعتان تنتقلان بالتناوب بين كتابه وطبقِه، وبين الحين والآخر كان يُتمتم لنفسه بسطرٍ أو سطرين. لم يُعلِّق رفيقاه بأيِّ ملحوظة على جمعه بين الأكل والتعلُّم؛ فقد عرَفا من خبراتهما السابقة أن هذه هي طريقته خلال وقت الإفطار لتعويض اللحظات التي ضاعت من وقت دراسته في الليلة السابقة.

لم يكن من الصعب إدراكُ أن العضو الثالث في المجموعة، وهي فتاةٌ في التاسعة عشرة أو العشرين، كانت أختَ الفتى. كان لكلٍّ منهما شعرٌ بُني غزير، يميل في حالة الفتاة إلى درجة لونٍ تحتوي على مسحات من اللون الذهبي، وعينان رماديَّتا اللون فيهما مزيجٌ من اللون الأزرق، وكان لون بشَرتَيهما مشرقًا وزاهيًا، وكانا جميلَي المظهر وتبدو عليهما أماراتُ الصحة بوضوح. لم يكن أحد سيشكُّ في أن كِلَيهما قد عاش قدرًا كبيرًا من الوقت في الأماكن المفتوحة؛ كان للفتى بالفعل تكوينٌ عضلي وعصبي بارز، وبدت الفتاةُ كما لو كانت على دراية جيدة باللعب بمضرب التنس وعصا الجولف. ولن يُخطئ أحدٌ ويعتقدَ أن هذَين الأخَوَين هما من أقارب الرجل الجالس على رأس الطاولة؛ إذ لم يكن بينهما وبينه أدنى تشابهٍ في الملامح أو لون البشَرة أو الأسلوب.

وبينما كان يُطالع الفتى السطورَ الأخيرة من درس اللغة اللاتينية الخاص به، ويُقلِّب الطبيبُ الصحيفة، راحت الفتاة تقرأ رسالة؛ يبدو، من خطِّ اليد الكبير الممتد، أنها رسالةٌ من فتاة صديقة لها. وكانت مستغرِقة في قراءتها، عندما بدأ الجرسُ يدق، من أحد أبراج الكاتدرائية. حينئذٍ، نظرت إلى شقيقها.

وقالت: «إنه جرس مارتن، يا ديك!» ثم أضافت: «عليك أن تُسرع.»

قبل ذلك بأعوام طويلة، في أحد القرون الماضية، ترك مواطنٌ محترم من رايتشستر، يُدعى مارتن، مبلغًا من المال لعميد ومجلس الكاتدرائية بشرط أنه طالما ظلَّت الكاتدرائية قائمة، يجب أن يدق جرسٌ من برج الجرس الأصغر لمدة ثلاث دقائق قبل الساعة التاسعة كلَّ صباح، على مدار السنة. لا أحد يعرف الآن ماذا كان هدفُ مارتن آنذاك — لكن هذا الجرس كان يعمل على تذكير السادة الذين يذهبون إلى أعمالهم، والأولاد الذين يذهبون إلى مدارسهم، بأن موعد ذَهابهم قد اقترب. ومن ثَم تحرَّك ديك بيوري، دون أن ينبس ببنتِ شفَة، وشرب نصف قهوته، وانتزع كتابه، وأمسك بقبَّعةٍ موضوعة مع المزيد من الكتب على

كرسيٍّ قريبٍ منه، واختفى عبر النافذة المفتوحة. فضحك الطبيب، ووضع صحيفته جانبًا، ومد يده حاملًا كوبَه عبر الطاولة.

وقال: «لا أعتقد أنكِ بحاجةٍ إلى أن تقلقي بشأن تأخُّر ديك، يا ماري.» ثم أردف: «أنت لا تُدركين جيدًا قوة الأرجل التي لا يتجاوز عمرها سبعة عشرَ عامًا. يمكن أن يصل ديك إلى أي نقطة معينة في حوالي ربع الوقت الذي أحتاج إليه أنا، على سبيل المثال، لفعل ذلك — علاوةً على ذلك، فهو لديه معرفة جيدة بكل الطرق المختصرة في المدينة.»

أخذَت ماري بيوري الكوب الفارغ، وبدأَت في إعادة ملئه.

وقالت ملاحظةً: «لا أريده أن يتأخر.» ثم أضافت: «إنها بدايةُ العادات السيئة.»

قال رانسفورد بتساهل: «أوه، حسنًا!» ثم أردف: «إنه بعيدٌ تمامًا عن أيِّ شيء من هذا القبيل، كما تعلمين. أنا لم أشتبِه حتى في أنه يُدخن، حتى الآن.»

أجابت ماري: «هذا لأنه يعتقد أن التدخينَ سيُوقف نموَّه ويتعارضُ مع مُمارسته للعبة الكريكيت.» ثم أردفت: «كان سيُدخن لولا ذلك.»

قال رانسفورد: «إذن هذا يمنحه ثناءً عاليًا.» ثم أضاف: «بل أقصى ما يُمكن من الثناء! إذ قد تعلَّم كيفية السيطرة على رغباته. وهذا شيء ممتاز — وغير معتاد، حسبما أتخيَّل. معظم الناس غيرُ قادرين على فعل ذلك!»

أخذ كوبه المعادةَ تعبئتُه، ونهض عن الطاولة، وفتح علبة سجائر كانت موضوعةً على رف الموقد. وبدلًا من أن تلتقطَ الفتاةُ رسالتها مرةً أخرى، نظرت إليه مع قليل من الشك.

وقالت: «هذا يذكرني بـ... بشيء أردتُ أن أقوله لك.» ثم أردفَت: «أنت محقٌّ تمامًا في أن الناس غيرُ قادرين على قمع رغباتهم. أنا ... أنا أتمنى أن يَقدِر بعضُ الناس على ذلك!»

استدار رانسفورد بسرعة من جهة الموقد وصوَّب نحوها نظرةً حادة، فاحمرَّ وجهها. ونظرت بعيدًا نحو رسالتها، والتقطتها وبدأت في طيها بعصبية. وعند ذلك نطق رانسفورد اسمًا بصوتٍ عالٍ، واضعًا في صوته اقتراحًا سريعًا خاصًّا باستفسار عن المعنى.

سأل: «برايس؟»

أومأت الفتاة برأسها وأظهرت انزعاجًا وامتعاضًا واضحَين. وقبل أن يقول المزيد، أشعل رانسفورد سيجارة.

ثم قال في النهاية: «هل عاود فعل ذلك مجددًا؟» ثم أردف: «منذ آخر مرة؟»

أجابت: «مرتَين.» ثم أضافت: «لم أودَّ أن أُخبرك — خشيتُ أن أُزعجك بشأن ذلك. لكن ماذا عليَّ أن أفعل؟ أنا أكرهه بشدة — لا يُمكنني معرفةُ السبب، لكن هذا الشعورَ

موجود، ولا شيء يمكن أن يُغيِّره أبدًا. وعلى الرغم من أنني أخبرتُه — من قبل — أنه لا فائدة من الأمر، فقد ذكره مرةً أخرى — أمسِ — في الحفلة التي أُقيمت بحديقة السيدة فوليوت.»

قال رانسفورد وهو يُزمجر: «تبًّا لوقاحته!» ثم أضاف: «أوه، حسنًا! سأُضطرُّ إلى تسوية الأمر معه بنفسي. لا فائدةَ من الاستهانة بأمرٍ كهذا. لقد ألمحت له بلطفٍ من قبل بشأن هذا الأمر. وبما أنه لم يتقبَّله فلم يترك أمامي من سبيل!»

سألتْ بقلق: «لكن ماذا ستفعل؟» ثم أضافت: «أنت لن تطردَه، أليس كذلك؟»

أجاب رانسفورد: «إذا كان لديه أيُّ احترام لذاته، فسيبتعد بعدَ ما سأقوله له.» ثم أردف: «لا تزعجي نفسَكِ بشأن ذلك — أنا لست مهتمًّا بما سيحدُث له على الإطلاق. إنه طبيبٌ ماهر بما فيه الكفاية، ومساعد جيد، لكنه لا يُعجبني، على نحوٍ شخصي — لم يُعجبني قطُّ.»

قالت ببطء: «لا أريد أن أعتقد أن أيَّ شيء أقوله يمكن أن يُفقده مكانته — أو أيًّا ما كنت تسميها.» ثم أردفت: «سيبدو ذلك ...»

قاطعَها رانسفورد قائلًا: «لا تَشغَلي نفسك بذلك.» ثم أضاف: «إنه سيحصل على وظيفةٍ أخرى خلال دقيقتين — إذا جاز التعبير. وعلى أي حال، لا يُمكن أن نسمح لهذا بالاستمرار. من المؤكد أن هذا الرجل غبي! عندما كنتُ صغيرًا ...»

توقَّفَ قليلًا عند هذا، واستدار بعيدًا، ونظر عبر الحديقة كما لو أنَّ بعض الذكريات قد راودَته فجأة.

قالت الفتاة وهي تُمازحه قليلًا: «عندما كنتَ صغيرًا — أي، بالطبع، منذ وقتٍ طويل جدًّا!» ثم أضافت: «ماذا كان يَحدُث؟»

أجاب رانسفورد: «إذا قالت المرأة لا — بنحوٍ لا لَبْس فيه — لمرةٍ واحدة، فإن الرجل يعتبر هذا ردًّا نهائيًّا.» ثم أضاف: «على الأقل هذا ما كنت دائمًا أُومن به. أما في الوقت الحاضر ...»

قالت ماري: «أنت تنسى أن السيد بيمبرتون برايس من النوع الذي يُسميه معظم الناس شابًّا لَحوحًا جدًّا.» ثم أردفت: «إذا لم يحصل على ما يُريده في هذا العالم، فلن يكون ذلك بسبب أنه لم يطلبه. لكن إذا كان يجب عليك التحدُّثُ إليه — وأعتقد حقًّا أنه يجب! — فهل ستُخبره أنه لن يحصل ... عليَّ؟ ربما سيعتبر ذلك ردًّا نهائيًّا منك — بصفتك وصيًّا عليَّ.»

قال رانسفورد: «لا أعرف ما إذا كان الآباء والأوصياء يُعتدُّ بهم كثيرًا في هذه الأيام الغبراء.» ثم أردف: «لكني لن أجعلَه يُزعجك. وأفترض أن الأمر أصبح مزعجًا بالفعل، أليس كذلك؟»

أجابته: «إنه لأمرٌ مزعج للغاية أن أُطلَب للزواج ثلاثَ مرات من قِبَل رجل أخبرته بنحوٍ قاطع، وحاسم، أنني لا أريده على الإطلاق!» ثم أضافت: «إنه أمرٌ ... يُثير الحنق!»

قال رانسفورد بهدوء: «حسنًا.» ثم أردف: «سأتحدَّث معه. لن يُصبح هناك أيُّ إزعاج لك تحت هذا السقف.»

منحَته الفتاةُ نظرةً سريعة، والتفت رانسفورد بعيدًا عنها والتقط رسائله.

وقالت: «شكرًا لك.» ثم أردفَت: «لكن ... ليست هناك حاجةٌ إلى إخباري بذلك؛ لأنني أعرفه بالفعل. والآن أتساءل عما إذا كنت ستُخبرني بشيء آخر.»

التفت رانسفورد إليها بقلق مفاجئ.

وسألها بحدَّة: «حسنًا؟» ثم أضاف: «ماذا؟»

فسألته: «متى ستُخبرني بكل شيء عن ... عن ديك وعنِّي؟» ثم أردفت: «لقد وعدتَ أنك ستفعل في يومٍ من الأيام. وها قد مضى عام كامل منذ ذلك الحين. وقد أصبح عمرُ ديك سبعة عشر عامًا! وهو لن يظلَّ راضيًا دائمًا — مكتفيًا بمعرفة أن والدنا ووالدتنا قد تُوفِّيا عندما كنا صغارًا جدًّا، وأنك أصبحت وصيًّا علينا، ومدركًا كلَّ ما فعلتَه من أجلنا. هل سيظل كذلك؟»

وضع رانسفورد رسائله مرةً أخرى، ودفع يدَيه في جيوبه، وضم كتفَيه مقابل رفِّ المدفأة. ثم سألها: «ألا تعتقدين أنه من الأفضل أن تنتظري حتى تصلي إلى سنِّ الحادية والعشرين؟»

قالت وهي تضحك: «لماذا؟» ثم أردفَت: «أنا في العشرين من عمري، هل تعتقد حقًّا أنني سأصبح أكثرَ حكمةً خلال اثنَي عشر شهرًا؟ بالطبع لا!»

أجاب: «أنتِ لا تعرفين ذلك.» ثم أضاف: «ربما تُصبحين أكثرَ حكمةً بكثير.»

قالت في إصرار: «ولكن ما علاقة ذلك بالأمر؟» ثم تابعَت: «هل هناك أيُّ سبب يمنع إخباري — بكل شيء؟»

كانت تنظر إليه بقدْرٍ معيَّن من الإلحاح، وشعر رانسفورد، الذي كان يعلم دائمًا أن لحظةً من هذا النوع ستأتي حتمًا، وأنه لن يُمكنه مُماطلتُها بأعذارٍ عادية. ومن ثَم تردَّد بينما واصلت هي الكلام.

تابعت على نحوٍ أشبهَ بالتوسُّل: «أنت تعلم ...» ثم أضافت: «أننا لا نعرف أيَّ شيء — على الإطلاق. فأنا لم أعرف شيئًا من قبل، وحتى وقتٍ قريب كان ديك أصغرَ من أن يهتم ...»

سألها رانسفورد على عجل: «هل بدأ في طرح الأسئلة؟»

أجابت ماري: «مرةً أو مرتَين، مؤخرًا — أجل.» ثم أضافت: «إنه أمرٌ طبيعي.» ثم ضحكت قليلًا ضحكةً متكلَّفة. وتابعت: «إنهم يقولون إنه لا يُهم، في الوقت الحاضر، إذا كنت لا تستطيع معرفةَ مَن كان جدَّك — ولكن، فكِّر في الأمر، نحن لا نعرف مَن كان والدنا — باستثناء أن اسمه هو جون بيوري. هذا لا يوضح لنا الكثير.»

قال رانسفورد: «أنتِ تعرفين الكثير.» ثم أضاف: «لقد أخبرتكِ — وكنتُ دائمًا أخبركِ — أنه كان صديقًا لي منذ الصِّغر، يعمل بالتجارة، وقد تُوفي هو ووالدتك في عمر الشباب، وأنا، كصديق لهما، أصبحتُ وصيًّا عليكِ أنت وديك. هل ... هل هناك أيُّ شيء أكثر من ذلك يُمكنني قوله؟»

أجابت، بعد صمتٍ دام طويلًا لدرجة أن رانسفورد بدأ يشعر بعدم الارتياح، قائلةً: «هناك أمرٌ أرغب — شخصيًّا — كثيرًا في معرفته.» ثم تابعَت: «لا تغضب — أو تشعر بالاستياء — إذا قلتُ لك بوضوحٍ ما هو. وأنا متأكدة تمامًا من أنه لم يخطر قط على بال ديك، لكنني أكبُرُه بثلاث سنوات. والأمر هو: هل كنتَ تُنفق علينا من مالك الخاص؟»

احمرَّ وجه رانسفورد والتفتَ عمدًا نحو النافذة، وأخذ للحظةٍ يُحدق في حديقته وبعضٍ من أجزاء الكاتدرائية. ثم التفتَ نحو الغرفة مرة أخرى، متعمدًا مثلما ابتعدَ ببصره عنها.

وقال: «كلا!» ثم تابع: «وحيث إنكِ قد سألتِني، سأُخبركِ بالأمر. كِلاكما لديه أموالٌ ستحصلان عليها عندما تبلغان سنَّ الرشد. إنها ... إنها في عُهدتي. وهي ليست بالمبلغ الكبير ولكنه كافٍ لتغطية جميعِ نفقاتكما. التعليم — وكل شيء. وعندما تُصبحين في الحادية والعشرين من عمرك، سوف أُسلِّمك نصيبك — والأمر نفسُه بخصوصِ ديك. ربما كان عليَّ أن أُخبرك بكل ذلك من قبل، لكني لم أعتقد أنه أمرٌ ضروري. أنا ... أنا بالقطع أميلُ إلى تجاهل هذه الأمور.»

ردَّت بسرعة، مع نظرةٍ مفاجئة جعلَته يلتفتُ بعيدًا مرة أخرى: «أنت لم تتجاهل الأمورَ الخاصة بنا قط.» ثم أضافت: «وأنا أردت فقط أن أعرف؛ لأنه كان لديَّ تصوُّر أننا ... حسنًا، أننا نَدين لك بكل شيء.»

ردَّ متعجبًا: «ليس أنا مَن أوحى لك بذلك التصور!»

قالت: «كلا — لم يحدُث ذلك قط!» ثم تابعَت: «لكن ألا تفهم؟ لقد أردتُ أن أعرف شيئًا. شكرًا لك. لن أطرحَ المزيد من الأسئلة الآن.»

قال رانسفورد بعد فترةِ صمتٍ أخرى: «كنتُ دائمًا أنتوي — بشدة — إخبارَكِ.» ثم تابعَ بقلق: «ولكن كما تُلاحظين، أنا لا أستطيع — حتى الآن — أن أستوعبَ أن كِلَيكما يكبُر! لقد كنتِ في المدرسة قبل عام. وديك لا يزال صغيرًا جدًّا. هل ... هل أنتِ أكثرُ رضًا الآن؟» ثم أضاف: «لو لم تكوني كذلك ...»

أجابت: «أنا راضيةٌ تمامًا.» وتابعت: «ربما — في يومٍ من الأيام — ستُخبرني بالمزيد عن والدِنا ووالدتنا، أليس كذلك؟ — ولكن لا تَشغل بالك بهذا الأمر الآن. هل أنت متأكدٌ من أنك لم تكن تُمانع في أن أسأل ما قد سألتك عنه؟»

قال على عجَلٍ: «بالطبع لا ... بالطبع لا!» وأردف: «كان يجب أن أتذكر. لكننا سنتحدَّثُ مرة أخرى. يجب أن أدخل إلى العيادة الآن وأتحدَّثَ أيضًا مع برايس.»

قالت: «أتمنى لو أمكنَك فقط أن تجعله يتعقَّل ويَعِدُ بعدم التعرُّض لي مرة أخرى.» وتابعت: «ألن يحُلَّ ذلك المشكلة؟»

هز رانسفورد رأسه ولم يُجِب. ثم التقط رسائله مرةً أخرى وخرج إلى ممرٍّ طويل حجَريِّ الجدار، يؤدي إلى عيادته الواقعة بجانب المنزل. كان بمفرده هناك عندما أغلق البابَ وتنفَّس الصُّعداء بتأوهٍ عميق.

ثم غمغمَ قائلًا: «فلتُساعدني السماء إذا أصرَّ الفتى يومًا على معرفة الحقيقة الفعلية وعلى تقديم البراهين والحقائق له!» ثم تابع: «أنا لا أُمانع في إخبارها، عندما تكبَر قليلًا؛ لكنه لن يتفهَّم مثلما ستتفهَّم هي. على أي حال، بفضل الله أستطيعُ أن أُواصل القصة الخيالية الممتعة الخاصة بالمال دون أن تعرف أبدًا أنني كذبتُ عليها متعمدًا الآن. لكن ماذا عن المستقبل؟ ها هو رجل سيُطرَد بالفعل، وسيكون هناك آخرون، وسيكون أحدهم هو الرجلَ المفضَّل لها. وسيتوجب إخبارُ ذلك الرجل! وكذلك هي، عندئذٍ. يا إلهي! هي لا تُدرك، ولا يجب أن تدرك، أنني أعشقها بجنون! ليست لديها فكرةٌ عن ذلك — ولن يُصبح لديها؛ يجب ... يجب أن أظلَّ بالنسبة إليها — الوصيَّ فقط!»

ضحِك بسخريةٍ بعضَ الشيء بينما كان يُلقي رسائله على مكتبه ويشرَعُ في فتحها، لكن قاطع انشغالَه فتحُ الباب الجانبي ودخولُ السيد بيمبرتون برايس.

الفصل الثاني

اكتساب عدو

كان من عادة بيمبرتون برايس أنه حين كان يدخل إلى غرفةٍ كان يسير كما لو كان مَن بداخلها نائمًا ويخشى إيقاظَه. وكانت خطوته خفيفةً ورقيقة لكن ليست متخفِّية، وحركاته هادئة يمكن أن توصِلَه فجأةً إلى جانبِ أيِّ شخص قبل أن يلحظَ وجوده. ومن ثَم كان يقف بجانب مكتب رانسفورد قبل أن يُدرك رانسفورد أنه دخل إلى العيادة، وقد أثار إدراكُ رانسفورد المفاجئ لوجوده شعورًا معينًا من الانزعاج في ذهنه، لكنه سعى على الفور إلى كبحِه؛ فلم يكن من المفيد أن تتجادل مع رجلٍ أنت على وشك فصله من العمل، هكذا قال لنفسه. ولذا، بعد الردِّ على تحية مساعدِه — وهي تحيةٌ هادئة مثل دخوله — واصلَ قراءة رسائله، بينما اتجهَ برايس نحو ذلك الجزءِ من العيادة الذي يحتفظُ فيه بالعقاقير، وشغَل نفسه في تحضير بعض الوصفات الطبية. وهكذا مرَّت عشرُ دقائق في صمت، وبعدها دفع رانسفورد رسائله جانبًا، ووضع عليها ثُقلًا من الورق، وأدار كرسيَّه، ونظر إلى الرجل الذي كان سيقول له بعض الأشياء غيرِ السارة. في داخله كان يُفكر في سؤال؛ كيف سيتقبَّل برايس الأمر؟

لم يُحب رانسفورد قط مساعدَه هذا، على الرغم من أنه يعمل معه منذ عامين تقريبًا. كان هناك شيءٌ في شخصية بيمبرتون برايس لم يفهمه ولم يستطِع تفسيرَه. لقد جاء إليه بشهادات ممتازة وتوصياتٍ جيدة، وكان جيدًا في عمله، وناجحًا مع المرضى، ومتمكنًا للغاية كطبيبٍ ممارس عامٍّ — لم يكن هناك أيُّ خطأ يمكن العثور عليه في عمله لأي أسباب مهنية. لكن بالنسبة إلى رانسفورد كانت شخصيته هي محل الاعتراض؛ لماذا، هو لم يكن متأكدًا تمامًا. من حيث المظهرُ الخارجي، كان برايس أكثرَ من مقبول؛ فهو رجل طويل بهيُّ الطلَّة يبلغ من العمر ثمانيةً وعشرين أو ثلاثين عامًا، وبالقطع بعض الناس — وخاصة النساء — يعتبرونه وسيمًا؛ وكان من ذلك النوع من الشباب الذي يعرف قيمة

الملابس الجيدة والمظهر الأنيق، كما أن أسلوبه المهنيَّ هو كلُّ ما يمكن أن يتمنَّاه أيُّ أحد. لكن رانسفورد لم يستطِع أن يفصل بين برايس الطبيب وبرايس الإنسان — وبرايس الإنسان هو الذي لم يُعجبه. فبعيدًا عن الجانب المِهني منه، بدا له برايس غامضًا وخبيثًا وماكرًا بلا شك — وهو يُعطي انطباعًا بأنه أحدُ هؤلاء الرجال الذين تسترِقُ آذانُهم السمعَ دائمًا، والذين يأخذون كلَّ شيء ويُعطون القليل. كانت هناك هالةٌ غريبة من الحذر والسرِّية حوله في الأمور الخاصة، التي كانت منفِّرةً بالنسبة إلى رانسفورد كما يصعب تفسيرها. على أي حال، في الأمور الخاصة، لم يُعجبه مساعدُه، وهو لا يعجبه الآن أكثرَ من أي وقتٍ مضى، بينما ينظر إليه في هذه اللحظة بالذات.

قال له باقتضاب: «أريد التحدُّثَ معك في أمر.» وتابع: «ومن الأفضلِ أن نُنهيَه الآن.»

نظر إليه برايس، الذي كان يسكب ببطءٍ أحدَ السوائل من زجاجة إلى أخرى، بهدوءٍ عبر الغرفة ولم يُقاطع عملَه. عرَف رانسفورد أنه قد أدرك معنًى معينًا في الكلمات الموجَّهة إليه للتو — لكنه لم يُظهر أيَّ إشارة خارجيةٍ على ذلك، واستمر السائل في التدفُّق من الزجاجة إلى الزجاجة الأخرى بنفس الثبات.

قال برايس مستفسرًا: «ما الأمر؟» ثم أردف: «لحظةً واحدة.»

أنهى مهمته بهدوء، ووضع الغِطاء على الزجاجتَين، ووضع ملصقًا على إحداهما، وأعاد الأخرى إلى الرف، واستدار. إنه رجل ليس من السهل أن يُصاب بالفزع، كما أنه ليس من السهل أن يُحوِّل انتباهَه عن هدفه، هذا ما اعتقده رانسفورد وهو يُلقي نظرةً خاطفة على عينَي برايس، اللتَين كانت لهما عادةُ التركيز على الناس بإصرارٍ غريب ومربك.

بدأ رانسفورد حديثَه قائلًا: «يُؤسفني أن أقول ما يجب عليَّ أن أقولَه.» وتابع: «لكنك جلَبتَه على نفسك. لقد لمَّحتُ لك في وقتٍ سابق بأن اهتمامك بالآنسة بيوري غيرُ مرحَّب به.»

لم يَصدر عن برايس أيُّ ردٍّ فوري. وبدلًا من ذلك، كان يميل بلا مبالاةٍ ودون اهتمام على الطاولة التي كان يعمل عليها باستخدام العقاقير والزجاجات، ثم أخذ مِبردًا صغيرًا من جيب الصدرية الخاصة به، وبدأ في تشذيب أظفارِه المقصوصة بعناية.

وقال بعد فترة صمت: «ماذا؟» وتابع: «ماذا إذن؟»

تابع رانسفورد: «على الرغم من ذلك، فقد خاطبتَها مرةً أخرى في هذا الأمر — ليس مرةً واحدة فقط، بل مرتين.»

وضع برايس مِبْرَدَه بعيدًا، ودفع يدَيه في جيبَيه، وعقَد قدمَيه وهو يميل إلى الخلف على الطاولة، وكان تصرُّفه كلُّه يوحي، سواءٌ كان ذلك عن قصد أو لا، أنه مطمئنٌّ وواثق للغاية.

وقال: «هناك الكثير مما يُمكن قوله حول نقطةٍ مثل هذه.» ثم أردف: «إذا رغب رجلٌ في أن تُصبح فتاةٌ معينة زوجتَه، فهل من حق أيِّ رجل آخر — أو الفتاة نفسها — في هذا الصدد أن يقول إنه لا يجب أن يُعبِّر لها عن رغبته؟»

قال رانسفورد: «لا ليس من حقه، شريطةَ أن يفعل ذلك مرةً واحدة فقط — ويأخذ الرد الذي حصل عليه على أنه نهائي.»

رد برايس بحدَّة: «أنا أختلف معك تمامًا.» وتابع: «في الجزء الأخير، على أيِّ حال. فالرجل الذي يَعتبر أيَّ كلمة للمرأة نهائيةً أحمقُ. إن ما تعتقد امرأةٌ أنها متأكدة منه تمامًا في يوم الإثنين ستعتقد العكسَ في يوم الثلاثاء. إن التاريخ الكامل للعلاقات الإنسانية يدعمني في هذا الأمر. إنه ليس رأيًا — إنه حقيقة.»

حدَّق رانسفورد مشدوهًا عند ذِكر هذه الملاحظة الصريحة، بينما تابع برايس، بهدوءٍ وتروٍّ كما لو كان يُناقش مشكلةً طبية.

وقال: «الرجل الذي يأخذ ردَّ المرأة الأولَ على أنه نهائي، هو، أُكرِّر، أحمق. إذ إن هناك العديدَ من الأسباب التي تجعل المرأة لا تستطيع تحديد رأيها بدقَّة في أول مرة تسألها إن كانت تريد أن تتزوَّجك. قد تكون متفاجئةً للغاية. وقد تكون غيرَ مستقرة على رأيٍ بعد. وقد تقول شيئًا بينما هي تَعني بالفعل شيئًا آخر. إن هذا يحدُثُ في العديد من الحالات. وهي لن تُصبحَ مستعدَّة بنحوٍ أفضل عند سؤالها في المرةِ الثانية. وهناك نساء — شابَّات — غيرُ واثقات من رأيهن في المرة الثالثة. كل هذه من الأمور المعروفة.»

وفجأةً صاح رانسفورد، بعد أن ظلَّ صامتًا للحظة في ظل هذا التدفُّق الفلسفي: «سأخبرك أنا بالقول الفصل!» وتابع: «أنا لن أناقش النظرياتِ والأفكار. أنا أعرفُ امرأةً شابةً واثقة من قرارها، على أيِّ حال. فالآنسة بيوري لا تشعر بأيِّ ميل تجاهَك — الآن، ولن تفعل في المستقبل! لقد أخبرَتك بذلك ثلاثَ مرات. ويجب أن تتقبل ردَّها وتتصرفَ وَفقًا له!»

ألقى برايس على صاحب عمله نظرةً فاحصة.

ثم سأله: «كيف تعرف الآنسة بيوري أنها قد لا تميل إليَّ — في المستقبل؟» ثم أضاف: «فقد تُغيِّر رأيها وتستحسنُ الارتباط بي.»

قال رانسفورد بحسم: «كلا، هي لن تفعل!» وتابع: «مِن الأفضل أن تسمع الحقيقة، وتنتهيَ من هذا الأمر. إنها لا تُحبك — ولا تريد ذلك أيضًا. لماذا لا تتقبَّل رفضها لك كرجل؟»

سأله برايس: «ما مفهومك عن الرجل؟»

صاح رانسفورد متعجبًا: «هذا هو مفهومي! وهو مفهومٌ جيد.»

قال برايس: «قد يُرضيك هذا المفهوم، لكنه لا يُرضيني أنا.» ثم أردف: «إن المفهوم الخاصَّ بي مختلف. إن مفهومي عن الرجل أنه كائن لديه بعضُ المثابرة. إذ يُمكنك الحصولُ على أي شيءٍ في هذا العالم — أي شيء! — بمواصلة السعي نحوَه.»

قال رانسفورد فجأةً: «لن تحصلَ على ربيبتي.» وتابع: «إن الأمر واضح! إنها لا تُريدك، وقد قالت ذلك ثلاثَ مرات حتى الآن. وأنا أُؤيدها في ذلك.»

سأله برايس بهدوء: «ماذا لديك ضدِّي؟» ثم أضاف: «إذا كنت، كما تقول، تُؤيدها في قرارها بعدم الاستجابة لمحاولاتي الزواجَ منها، فيجب أن يكون لديك شيءٌ ضدي. إذن ما هو؟»

أجاب رانسفورد: «هذا سؤالٌ لا يحق لك طرحُه؛ لأنه غير ضروري على الإطلاق. لذلك لن أُجيب عنه. ليس لديَّ أيُّ شيء ضدك فيما له صلةٌ بعملك — لا شيء! أنا على استعداد أن أُقدِّم شهادةَ خبرة ممتازةً عن عملك.»

قال برايس بهدوء: «أوه!» ثم أردف: «هل هذا يعني أنك تُريدني أن أترك وظيفتي؟»

قال رانسفورد: «أعتقد بالتأكيد أن هذا سيكون أفضل.»

تابع برايس، ببرودٍ أكثر من أيِّ وقتٍ مضى: «في هذه الحالة، أريد بالتأكيد معرفةَ ما لديك ضدي — أو ما لدى الآنسة بيوري ضدي. لماذا رُفضتُ كخاطب؟ أنت، على أي حال، تعرف مَن أنا — أنت تعلم أن والدي يعمل بمهنتنا، وأنه رجل يتمتع بسمعة طيبة ومكانة عالية، وأنني عملت في عيادتك بناءً على تزكيةٍ عالية. من وجهة نظري، أنا شابٌّ مناسب تمامًا. وهناك نقطة أنت تنساها وهي أنه ليس هناك أيُّ غموض حولي.»

استدار رانسفورد بحدةٍ في كرسيِّه عندما لاحظَ التركيز الذي وضعه برايس على كلمته الأخيرة.

وسأله: «ماذا تقصدُ بذلك؟»

أجاب برايس: «ما قلته للتو.» ثم أضاف: «ليس هناك أيُّ غموضٍ حولي. يمكن الردُّ على أي سؤال عني. لكنك لا يمكنك قولُ ذلك بخصوص ربيبتك. هذه حقيقة، يا دكتور رانسفورد.»

كان رانسفورد، منذ سنواتٍ مضت، قد درَّب نفسه على فنِّ التحكم في انفعاله — الذي هو بطبيعة الحال سريعٌ نوعًا ما. وقد بذل جهدًا جهيدًا في هذا الاتجاه الآن، بعد أن أدركَ أن هناك شيئًا ما وراءَ ملاحظةِ مساعدِه الأخيرة، وأن برايس كان يَعنيه هو بكلامه.

ومِن ثم أجاب: «سأُكرر ما قلته للتو.» وتابع: «ماذا تقصد بذلك؟»

قال برايس: «أنا أسمع أشياءَ.» وأردف: «الناس يتحدَّثون — حتى الطبيب لا يُمكنه رفض سماع ما يقوله المرضى الثرثارون والنمَّامون. فمنذ أن أتت إليك من المدرسة، قبل عام، والناسُ في رايتشستر مهتمُّون جدًّا بالآنسة بيوري، وشقيقها أيضًا. وهناك العديد من سكان كلوس — وأنت تعرف طرُقَهم اللطيفة والفضولية! الذين يُريدون أن يعرفوا حقيقة هذين الأخَوَين وما علاقتك بهما!»

زمجر رانسفورد قائلًا: «تبًّا لوقاحتهم!»

رد برايس موافقًا: «بكل تأكيد.» وتابع: «وأنا لا يُهمني أمرهم؛ دعهم يُلعَنون. ولكنك إذا تخيَّلت أن صفوةَ مدينة الكاتدرائية، التي تتكوَّن أساسًا من أرامل العمداء والكهنة والقساوسة المتوفَّين، وما شابههم، ومن العمات العازبات، والعانسات العجائز، ومنسقات حفلات الشاي، لا يُمارسن النميمة، فبالقطع، أنت شخص ساذَجٌ على نحوٍ كبير!»

قال رانسفورد: «من الأفضل ألَّا يَشرَعن في النميمة حول شئوني الخاصة.» وتابع: «وإلا …»

قاطعه برايس مبتهجًا: «لا يُمكنك منعُهن من النميمة حول شئونك.» وأضاف: «بالطبع هن يَنْممنَ حول شئونك؛ وسبق أن نمَمْن حولها؛ وسوف يستمرِرْنَ في النميمة حولها. إنها طبيعةُ البشر!»

سأله رانسفورد، الذي كان منزعجًا للغاية لدرجةِ أنه لم يستطِع كبحَ فضوله: «هل سمعتَهن؟» وأردف: «أنت بنفسك؟»

أجاب برايس: «كما تعلم، كثيرًا ما أُدعى لتناول الشاي وإلى الحفلات التي تُقام في حدائق المنازل وحفلاتِ التنس والمناسبات المميَّزة والفاخرة التي يَرْعاها المنسِّقات، وتُقدَّم خلالها الفطائرُ الصغيرة. لقد سمعتهنَّ — بأذنَيَّ هاتين. ويُمكنني حتى أن أُكرِّر الكلام نفسَه الذي سمعتُه. «بخصوص الآنسة بيوري العزيزة الرقيقة — يا لها من فتاةٍ ساحرة! وهذا الفتى حسن المظهر؛ شقيقها — يا له من شخص رائع جدًّا! إني أتساءل مَن هما حقًّا؟ إنهما ربيبا الدكتور رانسفورد، بالطبع! حقًّا، يا له من أمرٍ لطيف للغاية! — وغير معتاد بعض الشيء! — أن يكون لدى مثلِ هذا الرجل، الذي ما زال شابًّا نسبيًّا، فتاةٌ

ساحرة حقًّا كربيبةٍ له! لا يمكن أن يكون هو نفسُه قد تعدَّى الخمسة والأربعين عامًا، وهي في العشرين — كم هو أمر لطيف جدًّا جدًّا! حقًّا، قد يظن المرءُ أنه يجب أن تكون هناك قيِّمةٌ عليها!»»

قال رانسفورد بصوتٍ خافت: «اللعنة!»

قال برايس موافقًا: «هكذا بالفعل.» وتابع: «لكن هذا هو نوعُ الكلام الذي يَنممنَ به. هل تريد المزيد؟ يُمكنني سردُ قدرٍ غير محدود منه إذا أردت. لكن كله من نفس العينة.»

قال رانسفورد ملاحظًا: «إذن — بالإضافة إلى صفاتِك الأخرى — هل أنت نمَّام؟»

ابتسم برايس ببطءٍ وهز رأسه.

ثم أجاب: «كلا.» وأردف: «أنا مستمع. ومستمعٌ جيد أيضًا. لكن هل أدركتَ وجهة نظري؟ أنا أقول إنه ليس هناك غموضٌ يُحيط بي. وإذا شرَّفَتني الآنسة بيوري بقَبول زواجي منها، فستحصل على رجلٍ لا تشوب سمعةَ أسلافه أيُّ شائبة.»

سأله رانسفورد بحدة: «هل تُلمِّح إلى أن أسلافها تشوبُ سمعتَهم شائبةٌ؟»

قال برايس: «أنا لا أُلمح إلى أي شيء.» وتابع: «أنا أتحدَّث من أجل نفسي، وعن نفسي. أو بالأحرى أُحاول إقناعك، بصفتك الوصيَّ. يجب أن تدعم أحقيَّتي في ذلك، يا دكتور رانسفورد.»

كرَّر رانسفورد كلامه: «أحقيتك، يا رجل!» وتابع: «ليس لديك أيُّ أحقية! ما الذي تتحدَّث عنه؟ أحقيتك!»

أجاب برايس: «مَسْعاي، إذن.» وأردف: «إذا كان هناك غموضٌ — مثلما يقول الناسُ في رايتشستر — حول الآنسة بيوري، فإن سرَّها سيُصبح آمنًا معي. وأيًّا كان ما تظنُّه عني، فأنا رجلٌ يمكن الاعتمادُ عليه تمامًا — عندما يكون ذلك في مصلحتي.»

سأله رانسفورد: «وعندما لا يكون كذلك؟» وأردف: «ماذا ستُصبح إذن؟ — بما أنك صريحٌ للغاية.»

أجاب برايس: «يمكن أن أصبح عدوًّا سيئًا للغاية.»

سادت لحظةُ صمت، نظر خلالها الرجلان باهتمامٍ كلٌّ منهما إلى الآخر.

قال رانسفورد في النهاية: «لقد أخبرتُك بالحقيقة.» وتابع: «إن الآنسة بيوري ترفض رفضًا قاطعًا تقبُّلَ أيِّ فكرة عن الزواج منك. إنها تأمُل بكل جديةٍ ألا تذكر هذه الإمكانية أمامها مرةً أخرى. فهلا تَعِدني باحترامِ رغبتها؟»

أجابه برايس: «كلا!» وأردف: «لن أفعل!»

سأله رانسفورد، مع إظهار بعضِ الغضب: «لِم لا؟» وأضاف: «إنها رغبتها!»

قال برايس: «لأنني أظنُّ أنها قد تُغير رأيها.» وأردف: «هذا هو السبب.»

قال رانسفورد: «لن ترى أبدًا أيَّ تغيير في رأيها.» وأضاف: «هذا مؤكد. هل هذا هو قرارُك النهائي؟»

أجاب برايس: «إنه كذلك.» وتابع: «أنا لستُ من نوع الرجال الذي يمكن رفضُه بسهولة.»

قال رانسفورد: «إذن، في هذه الحالة، يجب أن أُنهي توظيفَك عندي.» ومن ثَم نهض من على مكتبه، وتوجَّه إلى خزنةٍ موجودة في الزاوية، وفتَحها وأخذ بعض الأوراق من درجٍ داخلي بها. وفحص إحداها ثم التفتَ إلى برايس وتابع حديثه معه: «هل تتذكَّر اتفاقنا؟» وأضاف: «يحق لأيٍّ من طرَفَي العقد إنهاؤه بعد إخطار الطرفِ الآخر قبل الإنهاء بثلاثة أشهر، أو، في أي وقت، إذا أردتَ، بدفع راتبِ ثلاثة أشهر، أليس كذلك؟»

رد برايس موافقًا: «هذا صحيحٌ تمامًا.» وأضاف: «إني أذكر ذلك، بالطبع.»

قال رانسفورد، وهو يجلس مرةً أخرى على مكتبه: «إذن سأعطيك الآن شيكًا براتب ثلاثة أشهر.» وأضاف: «هذا من شأنه أن يحسم الأمورَ على نحوٍ واضح، وآمُل أن يكون على نحوٍ مقبول.»

لم يردَّ برايس. وظل متكئًا على الطاولة، يشاهد رانسفورد وهو يكتب الشيك. وعندما وضع رانسفورد الشيك على حافة المكتب، لم يتحرَّكْ تجاهه.

قال رانسفورد، بنحوٍ يحمل شِبهَ اعتذار: «يجب أن تعيَ أن هذا هو الشيءُ الوحيد الذي يمكنني فعلُه. لا يمكنني أن أوظِّف أيَّ رجل غير ... غير مرحَّب به لدى ربيبتي، دعني أقُلْها بوضوح، ويُسبب إزعاجًا لها. أُكرر، يا برايس، يجب أن تعيَ ذلك!»

أجاب برايس: «لا علاقةَ لي بما تعتقدُه.» وأردف: «إنَّ آراءك ليست آرائي، والعكس صحيح. أنت في واقع الأمر تفصلُني — كما لو كنت رئيسَ عمالٍ غيرَ أمين! — لأنه في رأيي سيُصبح أمرًا رائعًا للغاية بالنسبة إلى الآنسة بيوري ولي إذا وافقَت على الزواج مني. هذه هي الحقيقة الواضحة.»

نظر رانسفورد نظرةً طويلة وثابتة نحوَ برايس. لقد قُضي الأمر الآن، ويبدو أن مساعده المفصولَ بدأ يتقبَّل الأمر بهدوء مما أثار فضولَ رانسفورد.

فصاح متعجبًا: «أنا لا أستطيع سَبْرَ أغوارِك!» وتابع: «فلا أعرف ما إذا كنتَ أكثر شابٍّ أنانيٍّ قابلتُه، أو ما إذا كنتَ الأكثرَ غباءً ...»

قاطعه برايس قائلًا: «ليست الأخيرةَ، على أيِّ حال.» وأردف: «أؤكد لك ذلك!»

قال رانسفورد: «ألا يُمكنك، إذن، أن تُدرك بنفسك يا رجل، أنَّ الفتاة لا تُريدك؟!» وتابع: «اللعنة! — وعلى عكس ما تظنُّه أنت، ربما يكون — أو كان — لديها أفكار أخرى!»

ضحك برايس، الذي كان يُحدق من نافذةٍ جانبية خلال الدقيقة أو الدقيقتين الأخيرتَين، فجأةً، ورفع يده وأشار إلى الحديقة. فاستدار رانسفورد ورأى ماري بيوري تسير هناك مع فتًى طويل، ميَّز أنه ساكفيل بونهام، ابن زوجة السيد فوليوت، وهو أحد سكان كلوس الأثرياء. لقد كان الشابان يَضحكان ويتحدَّثان معًا بودٍّ كبير وواضح.

قال برايس بهدوءٍ: «ربما أفكارها تسير في هذا الاتجاه، أليس كذلك؟» وتابع: «وفي هذه الحالة، يا دكتور رانسفورد، ستُواجه أنت مشكلة. إذ إن السيدة فوليوت، والدة ذلك الشاب الغِرِّ الواقفِ هناك بعيدًا، الذي هو قُرة عينها، هي واحدةٌ من السيدات الفضوليات اللواتي أخبرتُك عنهن للتو، وإذا تقرَّب ابنُها من أيِّ شخص، فستريد أن تعرف بالضبط أصلَ ذلك الشخص. لذا كان من الأفضل أن تدعمني كخاطب! ومع ذلك أعتقد أنه ليس هناك المزيدُ مما يمكن قولُه.»

أجاب رانسفورد: «لا شيء!» وأضاف: «ما عدا أن أودِّعك — وداعًا. أنت لا تحتاج إلى البقاء؛ فسأعتني بكلِّ شيء. وأنا سأخرج الآن. أعتقد أنه من الأفضل لك عدمُ تبادل كلمات الوداع مع أي شخص.»

أومأ برايس برأسه بصمت، بينما التقط رانسفورد قبعته وقفازه، وغادر العيادةَ من الباب الجانبي. وبعد لحظة، رآه برايس يمر عبر كلوس.

الفصل الثالث

سُلم سانت رايثا

وقف الطبيب المساعد الذي فُصل بنحوٍ فوري، والذي تُرك بمفردِه، يفكِّر للحظةٍ بعمق واضح قبل أن يتحركَ نحو مكتب رانسفورد ويأخذ الشيك. ونظر فيه بتمعُّن، وطواه بدقة، ووضعه في محفظته، وبعد ذلك شرَع في جمع متعلقاته القليلة، وأدواته، وكُتبه من أدراجٍ ورفوفٍ مختلفة. وبينما كان يضع هذه الأشياءَ في حقيبة يدٍ صغيرة، سمع طرقًا خفيفًا على الباب الذي يدخل منه المرضى إلى العيادة.

صاح: «ادخل!»

لم يكن هناك رد، رغم أن الباب قد فُتح قليلًا؛ بدلًا من ذلك، تكرَّر الطرق، وعند ذلك سار برايس عبر الغرفة وفتح الباب.

وقف رجلٌ في الخارج — وهو رجل مسن، نحيفُ الجسم، هادئ المظهر، وكان ينظر إلى برايس بطريقةٍ تنمُّ عن بعض الانزعاج والعصبية، وهي طريقةٌ تشي بأنه رجلٌ خجول ومن الواضح أنه يخشى أن يبدوَ وكأنه يتطفَّل. عاينَته عينا برايس السريعةُ والملاحِظة في لمحة، ولاحظَت وجهًا مرهقًا ومتغضنًا، وشعرًا رماديًّا خفيفًا وعينَين متعبتين؛ فقال لنفسه: إن هذا رجل قد عانى الكثيرَ من المتاعب. ومع ذلك، فهو ليس رجلًا فقيرًا، إذا كان مظهره العامُّ هو ما يجب أن يُقرر من خلاله؛ فقد كان يرتدي ملابسَ جيدة، بل وحتى باهظة الثمن، بأسلوبٍ يتميز به عمومًا رجالُ المدينة والتجَّار الميسورو الحال؛ إذ كانت ملابسه عصرية، وقبعته الحريرية جديدةً، وملابسه وحذاؤه لا غبارَ عليهما، وكان يوجد دبوسٌ ماسي رائع يلمع في ربطة عنقه المربوطة بعناية. لماذا، إذن، هذه الطريقة المتخفِّية وشبه المرتعبة التي لا لبس فيها — والتي بدأت تخفُّ حدَّتها بعض الشيء عند رؤية برايس؟

سأل الرجل الغريب: «هل هذا … هل دكتور رانسفورد بالداخل؟» وتابع: «قيل لي إنَّ هذا منزله.»

أجاب برايس: «إن دكتور رانسفورد غيرُ موجود.» وأضاف: «لقد خرج للتوِّ — منذ أقلَّ من خمس دقائق. هذه هي عيادته. هل يُمكنني مساعدتك؟»

تردَّد الرجل، ونظر إلى ما وراءَ برايس داخل الغرفة.

ثم قال في النهاية: «كلا، شكرًا لك.» وتابع: «أنا، لا، أنا لا أريد خدماتٍ طبِّية؛ لقد حضرتُ فقط لمقابلة دكتور رانسفورد؛ أنا — في الحقيقة — أنا عرَفتُ يومًا رجلًا بهذا الاسم. لا يهمُّ هذا في الوقت الحاضر.»

خطا برايس إلى الخارج وأشار عبر كلوس.

وقال: «لقد ذهب دكتور رانسفورد إلى هناك — أظن أنه ذهب إلى مقرِّ عميد الكاتدرائية — فهو لديه حالةٌ هناك. إذا ذهبتَ عبر بارادايس، فمن المحتمل جدًّا أن تُقابله وهو عائد، إن مقر العميد هو المنزل الكبير الذي في الركنِ البعيد هناك.»

نظر الغريبُ في الاتجاه الممدود فيه إصبعُ برايس.

وقال متسائلًا: «بارادايس؟» وتابع: «ما هو بارادايس؟»

أشار برايس إلى امتدادٍ طويل من الجدار الرمادي، يمتدُّ من الجدار الجنوبي للكاتدرائية إلى كلوس.

وقال: «إنه فِناءٌ مسيَّج — بين الرِّواق الجنوبي والجَناح.» وأضاف: «إنه مليءٌ بالمقابر والأشجار العتيقة — وهو مكان مهجور — ولا أعرف لماذا سُمي بارادايس. هناك طريقٌ مختصر عبْرَه يؤدي إلى مقرِّ العميد وذلك الجزء من كلوس من خلال ذلك الممرِّ المقنطر الذي تراه هناك. إذا ذهبتَ عبره، فمن المؤكد أنك ستُقابل دكتور رانسفورد.»

قال الغريب: «أنا ممتنٌّ لك كثيرًا.» وأردف: «شكرا لك.»

ومن ثَم استدار مبتعدًا في الاتجاه الذي أشار إليه برايس، بينما عاد برايس للداخل فقط ليُعاود الخروجَ مرة أخرى ويُناديَ عليه.

سأله: «إذا لم تُقابله، فهل أخبره أنك ستعود لزيارته مرة أخرى؟»

وأردف: «ما اسمك؟»

هزَّ الغريب رأسه.

وأجاب: «لا يُهم.» وتابع: «سأراه — في مكانٍ ما — أو لاحقًا. شكرًا جزيلًا لك.»

ثم ذهب في طريقه نحو بارادايس، وعاد برايس إلى العيادة وأكمل استعداداتِه للمغادرة. وفي غضون ذلك، نظر أكثرَ من مرة عبر النافذة إلى الحديقة ورأى ماري بيوري وهي لا تزال تسير وتتحدَّثُ مع الشاب ساكفيل بونهام.

فتمتمَ محدِّثًا نفسَه: «كلا.» وتابع: «لن أذهب لتوديع أحدٍ — ليس بسبب تلميح رانسفورد، ولكن لأنه لا توجد ضرورةٌ لذلك. إذا اعتقد رانسفورد أنه سيجبرني على الخروج من رايتشستر قبل أن أختار أنا الذَّهاب، فهو مخطئٌ بشدة — سيكون هناك وقتٌ كافٍ لأقول وداعًا عندما أُغادر — لكنه لم يَحِن بعد. والآن تُرى مَن كان ذلك الرجل العجوز؟ لقد كان يعرف يومًا رجلًا باسم رانسفورد، أليس كذلك؟ من المحتمل أن يكون هو رانسفورد نفسه — وفي هذه الحالة فهو يعرف الكثيرَ عن رانسفورد أكثر ممَّا يعرفه أيُّ شخص في رايتشستر — لأنه لا أحد في رايتشستر يعرف أيَّ شيء عنه سوى منذ سنواتٍ قليلة مضَت. كلا يا دكتور رانسفورد! لا وداعَ لأيِّ شخص! مجرد رحيل إلى أن أعود مرة أخرى.»

لكن برايس لم يكن ليبتعدَ عن البيت القديم من دون شيء فيه ما يُشبه الوداع. فبينما هو يخرج من العيادة عبر المدخل الجانبي، ظهرت ماري بيوري، التي ودَّعَت لتوها الشابَّ بونهام في الحديقة وكانت على وشك زيارةِ كِلابها في ساحة الإسطبل: فالتقَت هي وبرايس وجهًا لوجه. ومن ثَم احمرَّ وجه الفتاة، ليس من الإحراج بقدرِ ما هو من الغضب، ولم يُظهر برايس، الباردُ كالعادة، أيَّ علامة على الإحراج. لكنه بدلًا من ذلك، ضحك، ونقر على حقيبة اليد التي كان يحملها تحت إحدى ذراعَيه.

ثم قال: «لقد طُردتُ دون إخطار — كما لو كنت أسرق الملاعق.» وأضاف: «وها أنا ذا أُغادر، أنا ومتعلَّقاتي الصغيرة. هذه هي جائزتي الأولى — على الإخلاص.»

ردَّت ماري، وهي تتحرك مبتعدةً عنه موجِّهةً إليه نظرةً غاضبة للغاية: «ليس لديَّ ما أقوله لك.» وأردفَت: «سوى أنك جلبتَه على نفسك.»

قال برايس ملاحظًا: «ردٌّ أنثوي للغاية!» وتابع: «لكن لا يوجد فيه أيُّ حقد، أليس كذلك؟ لن يستمر غضبُكِ أكثرَ من ... هل نقول يومًا؟»

أجابت: «يُمكنك أن تقول ما يُعجبك.» وتابعَت: «فكما قلتُ للتو، ليس لديَّ ما أقوله — الآن أو في أي وقتٍ آخر.»

قال برايس: «لا يزال يتعيَّن إثباتُ ذلك.» وأردف: «فالعبارة واحدةٌ من العبارات الفضفاضة للغاية. لكن في الوقت الحاضر عليَّ أن أذهب!»

ومِن ثَم خرج مبتعدًا نحو كلوس، ودون أن ينظر خلفه سار عبر المَرْج الأخضر في الاتجاه الذي أرسل إليه الرجلَ الغريب قبل عشرِ دقائق. لقد كانت لديه شقةٌ في حارة هادئة على الجانب الآخَر من نطاق الكاتدرائية، وكان ينتوي حاليًّا الذَّهابَ إليها لتركِ

حقيبته وإجراء بعضِ الترتيبات الإضافية. إذ لم يكن لديه أيُّ نيةٍ لمغادرة رايتشستر — فهو يعرف طبيبًا آخر في المدينة كان في حاجةٍ ماسة إلى مساعد؛ لذا كان سيذهب إليه وسيُخبره، إذا لزم الأمر، لماذا ترك رانسفورد. كان لديه العديدُ من المخطَّطات والأفكار في رأسه، وبدأ يُفكر في بعضها بينما كان يخرج من كلوس ويدخل الفِناء العتيق الذي يعرفه جميعُ أهل رايتشستر باسمه الموقَّر بارادايس. كان هذا بالفعل فِناءً خارجيًّا للأدْيرة العتيقة؛ جُدرانه العالية، شِبه المتهدِّمة، والمغطَّاة بالكامل تقريبًا باللبلاب، تُحيط بمساحة من العشب، المغطاة بكثافة بشجيرات الصنوبر والسرو، والممتلئة بالمقابر وشواهد القبور. في أحدِ أركانه، توجد شجرةُ دردار عملاقة، وفي ركنٍ آخر، سُلَّم حجري مكسور يؤدي إلى مدخل مرتفع في جدران الصحن، وعبر الفِناء نفسِه يوجد مسارٌ يؤدي إلى المنازل في الزاوية الجنوبية الشرقية من كلوس. إنه بقعة غريبة، وكئيبة، يتردَّد عليها القليلُ من الأشخاص الذين يمرُّون عبْرَها بدلًا من اتباع المسارات المفروشة بالحصى خارجَه، ولم يكن هناك أحدٌ من المارة عندما خَطا برايس إليها. ولكن بينما هو يسير عبر الممر المقنطر رأى رانسفورد. كان رانسفورد يخرج مسرعًا من بابٍ خلفي في الرِّواق الغربي — مسرعًا بشدة لدرجة أن برايس خفضَ من سرعة مِشيته كي ينظرَ إليه. وعلى الرغم من أن المسافة بينهما كانت عشرين ياردة، فقد رأى برايس أن وجه رانسفورد كان شاحبًا جدًّا، وأبيضَ للغاية كما لو قد فرَّت منه الدماءُ، وأنه كان مضطربًا بشكلٍ لا لبسَ فيه. وعلى الفور ربط هذا الاضطرابَ بالرجل الذي قد جاء لزيارته في العيادة.

قال برايس متأملًا، وقد توقَّف، وهو يُحدق في هيئة رانسفورد الذي كان يبتعدُ عن المكان: «لقد تقابَلا!» وتابع: «والآن ما الذي أزعج رانسفورد لمجرد رؤية ذلك الرجل؟ إنه يبدو وكأنه قد تعرَّض لصدمةٍ شديدة وغير متوقَّعة — صدمة صعبة!»

وهكذا ظل برايس واقفًا في الممر، يُحدق في هيئة رانسفورد وهو يبتعد، حتى اختفى داخلَ حديقته الخاصة، ثم وهو لا يزال يتساءل ويخمِّن، ليس حول شئونه الخاصة، سار في النهاية عبر بارادايس وشقَّ طريقه نحو شقتِه. كانت هناك بوابةٌ صغيرة مثبَّتة على الجدار الذي تسلَّقته شجيراتُ اللبلاب، وعندما فتحها برايس، خرج من بين الشجيرات رجلٌ يجري، وهو يرتدي ملابسَ عاملِ بناء بالحجر، ميَّزه على أنه أحد العمال التابعين لرئيس عمال البناء بالحجر. وكان وجهُه، هو أيضًا، شاحبًا للغاية، وعيناه جاحظتَين من الانفعال. وحينما تعرَّف على برايس، توقَّف، وهو يلهث.

سأله برايس بهدوء: «ما الأمر، يا فارنر؟» وتابع: «هل حدث شيء؟»

مرَّر الرجل يدَه على جبهته كما لو كان في حالةِ ذهول، ثم حرَّك إبهامه المرتعش فوق كتفه.

وقال وهو يلهث: «هناك رجل!» وتابع: «أسفل سُلم سانت رايثا هناك، يا دكتور. إنه ميت — أو إذا لم يكن ميتًا، فقد شارفَ على الموت. لقد رأيته!»

قبَض برايس على ذراع فارنر وهزها.

ثم قال بحدَّة: «ماذا رأيت؟»

قال فارنر وهو يلهث: «رأيتُه يسقط. أو على وجه الدقة، يُلقى من أعلى!» وأردف: «شخصٌ ما — لم أستطِع رؤيته، على الإطلاق — ألقاه من أعلى مباشرةً عبر ذلك المدخل، هناك. لقد سقطَ مباشرة على درجات السُّلم — واصطدم بعنف!» نظر برايس إلى قِمَم شجيرات الصنوبر والسرو من نوافذ الإضاءة العلوية عند المدخل الذي أشار إليه فارنر — وهو ممر مقنطر منخفض، مفتوح يُصعَد إليه عبر سُلَّم شبهِ متهدَّم. إنه يرتفع لمسافة أربعين قدمًا على الأقل عن الأرض.

ثم صاح متعجبًا: «هل رأيتَه وهو يُلقى؟!» وأردف: «وهو يُلقى من أعلى إلى الأسفل هناك؟ مستحيل، يا رجل!»

أكَّد فارنر بإصرار: «أؤكد لك أنني رأيتُ ذلك!» وتابع: «لقد كنتُ أتفحَّص واحدةً من تلك المقابر العتيقة هناك — حيث يريد شخصٌ ما إجراء بعض الإصلاحات — وأحدثت الغربان ضجةً بالقرب من السقف فنظرتُ نحوها لأعلى. فرأيت هذا الرجلَ يُلقى من خلال ذلك الباب — لقد أُلقي عبرَه من أعلى! يا إلهي! هل تظن أنني يُمكن أن أُكذِّب عينَيَّ؟»

سأله برايس: «هل رأيتَ مَن ألقاه؟»

أجاب فارنر: «كلا؛ لقد رأيتُ يدًا — لثانية واحدة فقط، على ما يبدو — على حافة المدخل.» وأردف: «لقد استرعى الرجلُ الآخَرُ انتباهي أكثر! إذ ترنَّح نوعًا ما لثانيةٍ على درجة السُّلم التي توجد خارج الباب، وانقلب وصرخ — يُمكنني سَماع صرخته الآن! — واصطدمَ بأحجار الرصف في الأسفل.»

قال برايس بحدة: «منذ متى؟»

قال فارنر: «خمس أو ستِّ دقائق.» وتابع: «لقد هُرعت إليه وحاولتُ أن أفعل ما بوسعي. لكنني أدركتُ أن ذلك لن يُفيد، لذلك كنت أركض لإحضار المساعدة ...»

دفعه برايس نحو الشجيرات التي كانا يقفان بجوارها.

وقال: «خذني إليه.» وأضاف: «هيا!»

استدار فارنر إلى الوراء، وشقَّ طريقه عبر أشجار السرو. وقاد برايس إلى أسفلِ السور الكبير للصحن. وهناك في الركن الذي تشكَّل بزاويةِ صَحن الكاتدرائية والجناح، على رصيفٍ عريض من أحجار الرصف، كان يرقد جسدُ رجل متكوِّم في وضعٍ ملتوٍ بنحوٍ غريب. وبنظرة واحدة، حتى قبل أن يصل إليه، عرَف برايس لمن كانت تلك الجثةُ — إنها جثة الرجل الذي جاء، بخجلٍ وتخفًّى، لزيارة رانسفورد.

صاح فارنر متعجبًا، وهو يُشير إلى الرجل على نحوٍ مفاجئ: «انظر!» وتابع: «إنه يتحرَّك!»

رأى برايس، الذي ثبتَ نظره على الجثة الملتوية، حركةً طفيفة وقد توقفَت فجأةً كما حدثَت فجأةً. ثم توقفَت الجثة عن الحركة تمامًا. فغمغمَ قائلًا: «إنها النهاية!» وتابع، بينما كان يصلُ إلى الجثة ويجلس على ركبةٍ واحدة بجوارها: «لقد مات الرجل! أنا واثقٌ من ذلك قبل أن أضعَ يدي عليه. إنه ميت بالفعل!» ثم أضاف: «إن رقبته مكسورة.»

فانحنى عامل البناء ونظَر، ببعضٍ من الفضول والخوف، إلى الرجل الميت. ثم نظر إلى الأعلى — إلى الباب المفتوح بالأعلى فوقهما في الجدران.

وقال: «إنها سقطةٌ مخيفة، يا سيدي.» وتابع: «وقد هبط بعنفٍ شديد. هل أنت متأكِّد من أنه لا جدوى من محاولة إسعافه؟»

أجاب برايس: «لقد مات بمجرد وصولنا.» وأضاف: «تلك الحركة التي رأيناها كانت المحاولةَ الأخيرة — وهي لا إرادية، بالطبع. انظر هنا يا فارنر! سيكون عليك إحضارُ مَن يُساعدنا. من الأفضل إحضارُ بعض أهل الكاتدرائية؛ بعض من خُدامها. لا!» كان هذا ما قاله قبل أن يتوقَّف فجأةً عن الكلام، عندما بدأَت النغمات المنخفضة لأرغن تأتي من داخل المبنى الكبير. ثم تابع: «لقد بدءوا القدَّاس الصباحي للتو — بالطبع، إنها الساعة العاشرة. لا عليك منهم؛ اذهب مباشرة إلى الشرطة. أحضِرهم معك، وأنا سأبقى هنا.»

انطلق عامل البناء باتجاهِ بوابة كلوس، وبينما كانت ترتفعُ نغمات الأرغن، انحنى برايس على جثة الرجلِ الميت، وأخذ يتساءل في نفسه عمَّا حدث بالفعل. هل أُلقي الرجلُ من بابٍ مفتوح في نوافذ الإضاءة العُلوية فوق سُلَّم سانت رايثا؟ ... إن هذا الأمر كان يبدو شبهَ مستحيل! لكن فجأةً طرأت على ذهنه فكرة: افترض أنَّ رجلَين، يرغبان في التحدُّث على انفرادٍ دون أن يُلاحظهما أحد، قد صعدا إلى داخل مقصورة الكاتدرائية — حيث يُمكنهما ذلك بسهولة، عبر أكثرَ من باب، وأكثر من سُلم — وافترض أنهما قد تشاجرا، فألقى أحدُهما بالآخر أو دفَعه عبر الباب بالأعلى — ماذا بعد ذلك؟ وفي أعقاب

هذا الفكرة، تواتَرَت أخرى — إن هذا الرجل، الذي يرقد ميتًا الآن، جاء إلى العيادة، باحثًا عن رانسفورد، وفي أعقاب ذلك ذهب، على الأرجح بحثًا عنه، وبرايس نفسُه قد رأى رانسفورد للتو، وكان من الواضح أنه منزعجٌ وشاحب الوجه، أثناء مغادرته للرواق الغربي؛ ماذا يعني كلُّ هذا؟ وما الاستنتاج الواضح على ما يبدو الذي يمكن استخلاصه؟ فهنا يرقد الغريب ميتًا — وفارنر مستعدٌّ للقسَم أنه رآه يُلقى، يُقذَف بعنف، من خلال الباب الذي على ارتفاع أربعين قَدمًا. إن هذه جريمةُ قتل! إذن، فمن هو القاتل؟

نظر برايس حوله بحذرٍ ودقة. فالآن بعد أن ذهب فارنر، لم يكن هناك أيُّ إنسان على مرمى البصر، ولا في أيِّ مكان قريب، على حد علمه. وعلى أحدِ جانبَيه هو والرجل الميت توجد الجدران الرمادية للصحن والجناح، وعلى الجانب الآخر، توجد أشجار السرو والصنوبر التي تقف بين القبور والآثار القديمة. وهكذا بعدما تأكَّد من عدم وجود أحدٍ بالقرب منه، أو عينٍ تُراقبه، وضع يده في الجيب الداخلي العلوي للمعطف الصباحي الأنيق الذي كان يرتديه الرجلُ الميت. مثلُ هذا الرجل يجب أن يحمل أوراقًا — والأوراق ستكشف شيئًا. وأراد برايس أن يعرف أيَّ شيء — أي شيء من شأنه أن يُطلِعَه على معلوماتٍ ويكشفَ له عن أيِّ سرٍّ قد يكون موجودًا بين هذا الغريب السيِّئ الحظ ورانسفورد.

لكن جيب المعطف العلوي كان فارغًا؛ لم تكن به محفظة، ولم تكن هناك أيُّ أوراق. ولم تكن هناك أيُّ أوراق في الجيوب الأخرى التي فتَّشَها على عجَل: لم تكن هناك حتى بطاقة عليها اسم. لكنه عثر على حقيبةٍ صغيرة ممتلئة بالنقود — الأوراق النقدية والعملات الذهبية والفضية — وفي أحد أجزائها قصاصة من الورق مطويةٌ على نحوٍ غريب، على غرار الرسائل المطوية على شكل القبعات المردودة التي تعود إلى عصرٍ سابق حيث لم تكن الأظرفُ قد اختُرِعت بعدُ. فتح برايس الورقةَ على عجَل، وبعد نظرة واحدة على محتواها، سارع إلى وضعها في جيبه. وما إن فعل هذا وأعاد الحقيبة إلى وضعها السابق حتى سمع صوتَ فارنر، وبعد ثانيةٍ صوتَ المفتش ميتشينجتون، وهو رجل شرطة معروف. عندئذٍ، نهض برايس ووقف على قدمَيه، وعندما خرج عامل البناء ورفاقه من بين الشجيرات، كان هو واقفًا ينظر بتمعُّن في الرجل الميت. ثم التفت إلى ميتشينجتون وهو يهز رأسه.

وقال بصوتٍ خافت: «إنه ميت!» وتابع: «مات بمجرد أن وصلنا إليه. لقد كُسِرت عظامه — في رأيي — وخاصة الرقبة والعمود الفِقري. أعتقد أن فارنر قد أخبرك بما رآه.»

أومأ ميتشينجتون برأسِه موافقًا، وهو رجل دقيق الملاحظة، داكن البشرة، سريعُ الحركة، وبعد نظرةٍ واحدة على الجثة، نظر إلى الباب المفتوح فوقهم بالأعلى.

وسأل، وهو يلتفتُ إلى فارنر: «هل هذا هو الباب؟» وتابع: «وهل كان مفتوحًا؟»

أجاب فارنر: «إنه مفتوحٌ دائمًا.» ثم أردف: «على الأقل، لقد كان مفتوحًا، هكذا، طوالَ هذا الربيع، على حد علمي.»

سأل ميتشينجتون: «ما الذي يوجد خلفه؟»

أجاب فارنر: «مقصورةٌ من نوعٍ ما، تُحيط بالصحن كلِّه.» وتابع: «إنها مقصورةُ نوافذِ الإضاءة العلوية. يمكن للناس الصعودُ إلى هناك والتجوُّلُ فيها — الكثير منهم يفعلون — وخاصة السيَّاح، كما تعلم. هناك طريقان أو ثلاثة للوصول إليها — عبر سلالمَ في الأبراج.»

التفتَ ميتشينجتون إلى أحد الشرطيَّين اللذَين تبعاه.

وقال: «دَعْ فارنر يُرِكَ الطريقَ إلى الأعلى.» وأضاف: «اذهب بهدوء — ولا تُثِر أيَّ ضجة — لقد بدأ القداس الصباحي للتو. لا تقُل شيئًا لأيِّ شخص — فقط ألقِ نظرةً هادئة حول المكان، عبر تلك المقصورة، وخاصة بالقرب من ذلك الباب هناك — وعُد إلى هنا.» ثم نظر إلى الرجل الميت مرةً أخرى عندما ذهب عامل البناء والشرطي. وقال: «إنه غريب، على ما أعتقد، يا دكتور — سائحٌ، على الأرجح. لكنه قد أُلقي من أعلى! إن هذا الرجل الذي يُدعى فارنر مُحق. إن الأمر يبدو وكأنه حادث مدبَّر.»

قال برايس مؤكدًا: «أوه، ليس هناك شكٌّ في ذلك!» وأردف: «سيتعيَّن عليك التحقيقُ في الأمر بعمق. لكن الكاتدرائية من الداخل متشعِّبة مثل جُحْر أرنب، وأيًّا كان مَن ألقى الرجل من هذا المدخل لا شك أنه يعرف كيف يهرب من دون أن يُلاحظه أحد. والآن، سيتعيَّن عليك نقلُ الجثة إلى المشرحة، بالطبع — لكن دعني أُحضر دكتور رانسفورد أولًا. أود أن يفحصَها طبيبٌ آخرُ غيري قبل نقلِها — سأحضره هنا في غضون خمس دقائق.»

ومِن ثَم استدار مبتعدًا عبر الشجيرات وعندما وصل إلى كلوس أخذ يركض عبر المروج في اتجاهِ المنزل الذي غادره قبل أقلَّ من عشرين دقيقة. وقد سيطرَت على ذهنه فكرةٌ واحدة أثناء الجري — أراد أن يرى رانسفورد وجهًا لوجه مع الرجل الميت — أراد أن يُراقبه، ويُلاحظه، ويرى كيف سيبدو، وكيف سيتصرف. وعندئذٍ سيعرف شيئًا.

لكن كان عليه أن يعرفَ شيئًا قبل ذلك. ففتح باب العيادة فجأةً ولكن بهدوئه المعتاد غيرِ المحسوس. وتوقَّف على العتبة. ووجد رانسفورد واقفًا بالداخل، تبدو على هيئته أماراتُ اليأس الشديد، ووجهُه متشنِّج، وقد أخذ يضرب بقبضةِ يده راحةَ اليد الأخرى.

الفصل الرابع

غرفة في فندق مايتر

في الثواني القليلة التي انقضَت قبل أن يعلم رانسفورد بوجود برايس، أخذ برايس يُلاحظ بعناية، وعلى نحوٍ سريع، ربَّ عمله السابق. كان من الواضح للغاية أن رانسفورد منزعجٌ من شيء ما؛ فوجهُه كان لا يزال شاحبًا، وكان يتحدَّث إلى نفسه بصوتٍ منخفض، ويضرب بقبضة يده المضمومة راحةَ اليد الأخرى — وبشكل عام، بدا وكأنه رجلٌ واجهَته فجأةً مشكلةٌ مخيفة. وبعد أنْ راقبه برايس طويلًا بما يكفي بحيث يتحقَّق له ما أراد، سعل برفق، فانتفض رانسفورد بطريقةٍ تُشير إلى أن أعصابه أصبحت متوترةً للغاية.

وحينها قال بحدَّة: «ما الأمر؟ ... ماذا تفعل هناك؟» ثم أردف: «ماذا تقصدُ بالمجيءِ على هذا النحو؟»

تظاهر برايس بأنه لم يرَ شيئًا.

وأجاب: «جئتُ لأخذِك معي.» وتابع: «لقد وقع حادثٌ في بارادايس — سقط رجلٌ من ذلك الباب الموجود أعلى سُلم سانت رايثا. وأرجو أن تأتيَ — لكن عليَّ أن أُخبرك أيضًا أنه قد فات أوانُ إسعافه؛ فهو ميت بالفعل!»

صاح رانسفورد متعجبًا: «ميت! رجل؟» وتابع: «أيُّ رجل؟ أهو عامل؟»

كان برايس قد اتخذَ قراره بالفعل فيما يتعلَّق بإخبار رانسفورد عن زيارةِ الشخصِ الغريبِ للعيادة. وقرَّر ألا يُخبره عنها — في ذلك الوقت على أيِّ حال. كان من غير المحتمل أن هناك مَن علم بأمر الزيارة غيرَه؛ حيث تَحْجب المدخلَ الجانبيَّ للعيادة عن كلوس إحدى الجَنْبات؛ لذا فإنه من غير المحتمل أن يكون أيٌّ من المارة قد رأى الرجلَ يأتي أو يُغادر. لا، كان سيتكتَّم على الأمر حتى يتمكنَ من الاستفادة منه بشكل أفضل.

أجاب: «إنه ليس عاملًا — ولا أحد سكانِ المدينة — إنه أحد الغرباء.» وتابع: «يبدو وكأنه سائحٌ غني. إنه رجل عجوز، نحيف البِنية، أشيبُ الشعر.»

نظر رانسفورد، الذي كان قد استدار نحوَ مكتبه ليتمالك نفسَه، إلى الخلفِ بنظرةٍ حادةٍ ومفاجئة — وفي تلك اللحظة تفاجأ برايس بشدَّة. والسبب وراء ذلك هو أنه كان قد أدان رانسفورد بالجريمة في قرارة نفسِه — ومع ذلك كانت تلك النظرة تُعبِّر عن تفاجؤٍ حقيقي على ما يبدو، نظرة كادت تُقنعه، رغمًا عنه، ورغم الحقائق الواضحة للغاية، أن رانسفورد كان يسمع عن جريمة بارادايس لأول مرة.

قال رانسفورد: «هل هو رجلٌ عجوز — أشيب الشعر — نحيف البنية؟» ثم أردف: «ذو ملابسَ داكنةٍ ... وقبعة من الحرير؟»

أجاب برايس، وقد اندهش الآن على نحوٍ كبير: «بالضبط.» ثم أضاف: «هل تعرفه؟»

أجاب رانسفورد: «لقد رأيتُ رجلًا بهذه الصفات يدخل الكاتدرائية منذ مدَّةٍ وجيزة.» وتابع: «وهو غريب، بالتأكيد. تعالَ معي، إذنْ.»

كان قد تمالكَ نفسه تمامًا بحلول ذلك الوقت، وقطعَ الطريق من العيادة وعبر كلوس كما لو كان متوجهًا إلى زيارةٍ مِهنية عادية. وظل صامتًا وهما يسيران بسرعةٍ نحو بارادايس، وكان برايس صامتًا، أيضًا. لقد درَس شخصية رانسفورد جيدًا خلال مدَّة معرفة بعضِهما ببعضٍ التي دامَت عامين، وكان يعرف قُدرة رانسفورد على كبحِ مشاعره والسيطرةِ عليها وإخفاء أفكاره. والآن قرَّر أن النظرة والانتفاضة اللذَين اعتبرهما في البداية علامتين على اندهاشٍ حقيقي قد اختلَقَهما بمهارة، ولم يتفاجأ — بعد وصولهما إلى مجموعةِ الرجال المجتمعين حول الجثة — عندما لم يُظهِر رانسفورد شيئًا سوى الاهتمامِ المهني.

سأل رانسفورد، بعد فحصٍ قصير، وبينما كان يلتفتُ إلى ميتشينجتون: «هل فعَلتم أيَّ شيء لمحاولةِ معرفة مَن هذا الرجل البائس؟» ثم أردف: «من الواضح أنه غريبٌ — لكن من المحتمل أنه يحملُ أوراقًا معه.»

أجاب ميتشينجتون: «لا يوجد شيءٌ معه — ما عدا حقيبة، بها الكثيرُ من المال.» وتابع: «لقد فتَّشت جيوبه بنفسي؛ ليس هناك قصاصةُ ورق — ولا حتى رسالة قديمة. لكن من الواضح أنه سائح، أو شيء من هذا القبيل، ولذا فمن المحتمل أنه أقام في المدينة طَوال الليل، وسأسألُ عنه في الفنادق.»

قال رانسفورد بطريقةٍ آلية: «ستكون هناك جلسةُ تحقيقٍ بالطبع لتحديد طريقةِ الوفاة.» ثم أردف: «حسنًا، لا يُمكننا فعلُ أيِّ شيء، يا ميتشينجتون. من الأفضل أن تُنقل الجثة إلى المشرحة.» ثم استدار ونظر إلى أعلى السُّلم المتهدم الذي كانوا يقفون أسفله. وسأل: «أنت تقول إنه وقَع من أعلى السُّلم؟» ثم أضاف: «ماذا كان يفعل هناك؟»

نظر ميتشينجتون إلى برايس.

وسأله: «ألم تُخبر دكتور رانسفورد كيف حدثَ الأمر؟»

أجابه برايس: «كلا.» ثم نظرَ إلى رانسفورد، وهو يُشير إلى فارنر، الذي عاد مع الشرطيِّ وكان يقف بجوارهم. وتابع حديثَه، بينما كان يُراقب رانسفورد بدقة: «إنه لم يسقط.» ثم أردف: «لقد أُلقِيَ بعنفٍ من هذا المدخل. وقد رأى فارنر الحادث.»

احمرَّ وجه رانسفورد، ولم يستطِع كبح تعرُّضه لانتفاضةٍ طفيفة. ونظر إلى عامل البناء.

وصاح متعجبًا: «لقد رأيتَه بالفعل!» وتابع: «عجبًا، ماذا رأيت؟»

أجاب فارنر، وهو يُشير برأسه نحو الرجل الميت: «رأيته!» ثم أردف: «وهو يُلقى به، بالكامل، من خلال ذلك المدخل هناك بالأعلى. ولم تكن لديه فرصةٌ لإنقاذ نفسه، على الإطلاق! ولم يستطِع التشبُّثَ بأي شيء وسقط لأسفل. أؤكد لك أنني رأيتُ ذلك — كما سمعت صرختَه — ومستعدٌّ أن يُخصم مني أجرُ عامٍ كامل إذا كنت كاذبًا.»

كان رانسفورد ينظر إلى فارنر بتركيزٍ شديد.

ثم سأله فجأة: «مَن الذي ألقاه؟» ثم أردف: «فأنت تقول إنك رأيتَ الحادث!»

أجابه عاملُ البناء: «أجل، يا سيدي، ولكني لم أرَ الجانيَ!» وأضاف، وهو يلتفتُ إلى رجال الشرطة بنظرةٍ تدل على علمِ صاحبها بشيءٍ مهم: «لقد رأيتُ يدًا فقط — ولم أرَ أكثر من ذلك. ولكن هناك شيء واحد يُمكنني أن أُقسِمَ عليه — لقد كانت يدَ رجلٍ نبيل! إذ رأيتُ سِوار القميص الأبيض وجزءًا من كُمٍّ أسود!»

التفتَ رانسفورد بعيدًا. لكنه عاود الالتفاتَ فجأةً نحو المفتش.

وقال: «عليك أن تُخبر القائمين على الكاتدرائية بالأمر، يا ميتشينجتون.» وأردف: «ولكن مِن الأفضل نقلُ الجثة، أولًا — افعل ذلك الآن قبلَ انتهاء القدَّاس الصباحي. وأطلِعْني على ما ستكتشفُه عن هُويته، إذا كان بإمكانك اكتشافُ أيِّ شيء في المدينة.»

ثم انصرف مبتعدًا، دون أن يقولَ المزيد أو يُلقيَ نظرةً أخرى على الرجل الميت. لكن برايس قد أكَّد لنفسه بالفعل أن ما هو متأكدٌ منه كان حقيقةً — إذ إن نظرةَ ارتياح لا لبسَ فيها قد اجتاحَت وجه رانسفورد لجزءٍ من الثانية عندما علم أنه لا توجد أوراقٌ توضح هُوية الرجل الميت. هو نفسُه انتظر بعد رحيل رانسفورد؛ انتظر حتى أحضر رجالُ الشرطة نقالة، ومن ثَم أشرف بنفسه على نقلِ الجثة إلى المشرحة خارج كلوس. وهناك قدَّم شرطيٌّ جاء من مركز الشرطة إفادةً بسيطة استدعَت المزيدَ من التحقيق.

لقد قال للمفتش: «لقد رأيتُ ذلك الرجل المسكين الليلةَ الماضية يا سيدي.» ثم أضاف: «كان يقف عند بوابة فندق مايتر، ويتحدَّث إلى رجلٍ آخر — رجل طويل القامة بعض الشيء.»

قال ميتشينجتون: «إذن سأذهب إلى هناك.» ثم أردف: «تعالَ معي، إذا أردت، يا دكتور برايس.»

كان هذا بالضبط ما أراده برايس — كان مهتمًّا بالفعل أن يحصلَ على كل المعلومات التي يُمكنه الحصولُ عليها. ومن ثم سار عبر الطريق مع المفتش، إلى الفندق ذي الطِّراز العتيق الذي شغَل تقريبًا جانبًا من الميدان الصغير المعروف باسم منداي ماركت، وبالداخل في بَهْو الفندق، وجَدا مالِكتَه، السيدة بارتينجلي، وهي تنظرُ من النافذة المُقوَّسة التي كانت تُستخدم كبارٍ خارجيٍّ في أيام استخدام عربات الخيول. وأدرك برايس على الفور أنها قد سمعت الخبر.

سألت عندما اقترَبا من الساحة المرصوفة بالحصى: «ما الأمر، يا سيد ميتشينجتون؟» ثم أضافت: «لقد جاء شخصٌ إلى هنا ليقولَ إن هناك حادثًا وقعَ لأحد الرجال، وهو شخصٌ غريب عن المدينة — آمُل ألا يكونَ أحدَ النزيلَين الموجودين لدينا في الفندق؟»

أجاب المفتش: «أظن أنه أحدُهما يا سيدتي.» وتابع: «لقد رآه أحد رجالنا أمامَ الفندق في الليلة الماضية، على أيِّ حال.»

غمغمت صاحبةُ الفندق بشيء ينمُّ عن الضيق، وفتحت بابًا جانبيًّا، ودَعَتهما إلى الدخول إلى غرفة الاستقبال.

وسألَت بقلق: «أيُّهما هو؟» وتابعت: «فهناك اثنان — جاءا معًا في الليلة الماضية — أحدهما طويلٌ والآخر قصير. يا إلهي! — هل هو حادثٌ سيئ، أيها المفتش؟»

أجاب ميتشينجتون بتجهُّم: «لقد مات الرجل، يا سيدتي.» وتابع: «ونريد أن نعرفَ مَن هو. هل حصَلتِ على اسمه — واسم الرجل الآخر؟»

أطلقَت السيدة بارتينجلي عبارةً أخرى تُعبِّر عن الضيق والدهشة، وهي ترفع يدَيها الممتلئتَين في رعب. لكنَّ قدرتها على إدارة عملها ظلَّت يَقِظة، وسارعت إلى إخراج سجلٍّ كبير للنزلاء وفتحَته أمام زائرَيها.

ثم قالت، وهي تُشير إلى الاسمَين الأخيرين: «ها هما هنا!» ثم أضافت: «هذا هو اسم الرجل القصير — السيد جون برادن، من لندن. وهذا هو اسمُ الرجل الطويل — السيد كريستوفر ديلينجهام — من لندن أيضًا. إنهما سائحان بالطبع — إذ لم نرَ أيًّا منهما من قبل.»

سألها ميتشينجتون: «لقد جاءا معًا، مثلَما قلتِ، يا سيدة بارتينجلي، أليس كذلك؟» وتابع: «متى كان ذلك، إذن؟»

أجابت صاحبةُ الفندق: «قبل العِشاء مباشرة، في الليلة الماضية.» وتابعت: «من الواضح أنهما جاءا مستقلَّين قطارَ لندن — الذي يصل في الساعة السادسة وأربعين دقيقةً، كما تعلم. وقد جاءا إلى هنا معًا، وتناوَلا العَشاء معًا، وأمضَيَا المساء معًا. بالطبع، اعتبرناهما صديقَين. لكنهما لم يخرجا معًا هذا الصباح، رغم أنهما قد تناولا الإفطار معًا. وبعد الإفطار، سألني السيد ديلينجهام عن الطريق إلى مانور ميل العتيقة، وتوجَّه إلى هناك، هكذا استنتجتُ. أما السيد برادن، فقد أمضى الوقت مسترخيًا قليلًا، يدرسُ دليلًا محليًّا أعَرْتُه إياه، وبعد مدةٍ سألني إذا كان بإمكانه استئجارُ عرَبة صغيرة تُقِله إلى ساكسونستيد بعد ظهر هذا اليوم. بالطبع، قلتُ إنه يستطيع ذلك، ورتَّب للأمر بحيث يصبح جاهزًا للانطلاق في الساعة الثانية والنصف. ثم خرج وعبَرَ السوق باتجاهِ الكاتدرائية. وهذا هو كل ما أعرفه، أيها السيدان.»

قال ميتشينجتون: «هل قلتِ ساكسونستيد؟» وأردف: «هل قال أيَّ شيء عن أسبابِ ذَهابه إلى هناك؟»

أجابت صاحبةُ الفندق: «حسنًا، أجل، لقد فعل.» وتابعت: «لأنه سألني إذا كنت أعتقدُ أنه من المحتمل أن يجد الدوق في المنزل في ذلك الوقت من اليوم. قلت إنني أعلم أنَّ سموَّه موجود في ساكسونستيد الآن، وأظن أن منتصفَ وقتٍ ما بعد الظهر سيكون وقتًا مناسبًا.»

سألها ميتشينجتون: «ألم يُخبرك عما يريده من الدوق؟»

قالت صاحبة الفندق: «مطلقًا!» وتابعَت: «أوه، كلا! — هذا فقط، وليس أكثر. لكن ها هو السيد ديلينجهام قد جاء.»

استدار برايس ليرى رجلًا طويلَ القامة، عريضَ الكتفَين، ذا لحية يمرُّ أمام النافذة — وفُتح الباب ودخل، وأخذ ينظرُ بفضولٍ إلى المفتش. ثم التفتَ على الفور إلى السيدة بارتينجلي.

وقال: «سمعتُ أن حادثًا قد وقع لذلك الرجل الذي أتيتَ معه الليلة الماضية؟» وأردف: «هل الأمر خطير؟ إذ يقول السائسُ الخاص بكِ ...»

أجابت صاحبة الفندق: «لقد جاء هذان السيدان من أجل هذا الأمرِ يا سيدي.» ثم نظرَت إلى ميتشينجتون. وأضافت: «ربما ستُخبره ...»

سأله ميتشينجتون: «هل كان صديقَك، يا سيدي؟» وأردف: «هل كان صديقًا شخصيًّا؟»

أجاب الرجل الطويل: «لم أرَه في حياتي قبل الليلة الماضية!» وأضاف: «لقد تصادف فقط أنِ التقَينا في القطارِ القادمِ من لندن، وتحدَّثنا، واكتشفنا أننا ذاهبان إلى المكان نفسِه — رايتشستر. ومن ثَم، أتينا إلى هذا الفندق معًا. كلا، هو ليس صديقي ولا حتى أحد معارفي — بالطبع قبل الليلةِ الماضية. هل … هل الأمرُ خطير؟»

أجاب ميتشينجتون: «لقد مات، يا سيدي.» وتابع: «ونحن الآن نريد أن نعرفَ مَن هو.»

صاح السيد ديلينجهام متعجبًا: «يا إلهي! هل مات؟ هل هذا صحيح؟!» وتابع: «يا إلهي! في الواقع، أنا لا يُمكنني مساعدتك — فأنا لا أعرفه معرفةً وطيدة. لكنه رجلٌ لطيف ومطَّلِع، كما يبدو أنه سافرَ كثيرًا إلى بلدانٍ أجنبية. أستطيع أن أؤكد لك ذلك، رغم معرفتي البسيطة به.» ثم تابعَ حديثه، كما لو أنَّ ذِكْرى مفاجئة قد طرأَت على ذهنه: «وفهمتُ أنه قد وصل لتوه إلى إنجلترا — في الواقع، الآن عندما أُفكر في الأمر، أرى أنه قد قال شيئًا في هذا الإطار. لقد أدلى بملاحظةٍ في القطار حول جمال المناظر الطبيعية الإنجليزية، أفهمتَ ما أقصد؟ — أتصور أنه جاء مؤخرًا من بلدٍ ما حيث الأشجارُ وأسيجةُ الشجيرات والحقول الخضراء غيرُ موجودة كثيرًا. لكن إذا كنتَ تريد أن تعرف مَن هو، أيها الضابط، فلماذا لا تفتش ملابسه؟ من المؤكد أنه يحمل أوراقًا وبطاقات وما إلى ذلك.»

أجاب ميتشينجتون: «لقد فتَّشناه.» ثم أردف: «لكن لا توجد معه ورقةٌ أو خطاب أو حتى بطاقة زيارة.»

نظر السيد ديلينجهام إلى صاحبة الفندق.

وقال: «يا إلهي!» وتابع: «إنه لَأمرٌ لافت! لكنه كانت لديه حقيبةُ سفر، أو شيءٌ من هذا القبيل — حقيبة خفيفة — حمَلها بنفسِه من محطة السكة الحديد. ربما في تلك …»

قال ميتشينجتون: «أودُّ أن أرى كلَّ متعلقاته.» ثم أردف: «من الأفضل أن نفحصَ غرفته، يا سيدة بارتينجلي.»

تبع برايس صاحبةَ الفندق والمفتشَ إلى الطابق العُلوي — وتبعه السيد ديلينجهام. ودخل الأربعةُ جميعُهم إلى غرفة نومٍ تُطلُّ على ميدان منداي ماركت. وهناك، على طاولةٍ

جانبية، كانت توجد حقيبةُ سفرٍ جلديةٌ صغيرة، يمكن حملُها بسهولة، وقد فُتح النصفُ العلويُّ منها، وأسند ظهرها على الحائط خلفها.

وقفَت صاحبة الفندق، والسيد ديلينجهام وبرايس في صمتٍ بينما كان المفتش يفحص محتوياتِ الحقيبة الوحيدة الموجودة في الغرفة. لم يكن هناك الكثيرُ مما يمكن رؤيته — كانت أدواتُ العناية الشخصية التي أحضرها الزائر منتشرةً على منضدة الزينة — الفُرُش، والأمشاط، وعلبة أمواس الحلاقة، وما شابهَ. وأومأ ميتشينجتون برأسه جانبًا نحوَها عندما بدأ في إخراج الأغراض من الحقيبة.

وقال: «هناك شيءٌ واحد يسترعي انتباهي في الحال.» وتابع: «بالقطع قد لاحظتموه أيها السادة. إن كلَّ هذه الأشياء جديدة! لم تُستخدم هذه الحقيبة مدةً طويلة؛ انظروا، الجلد لم يَبْلَ تقريبًا، وتلك الأشياء التي على منضدة الزينة جديدة. وما يوجد هنا يبدو جديدًا أيضًا. ليس هناك الكثير، كما ترون — ومن الواضح أنه لم يكن ينوي الإقامةَ هنا مدةً طويلة. هناك بنطالٌ إضافي، وبعض القمصان والجوارب والياقات وأربطة العنق والشباشب والمناديل — هذا كلُّ شيء. وأول شيء يجب فعلُه هو معرفةُ ما إذا كانت الملابس مطرَّزًا عليها اسمُ صانعها أو الأحرفُ الأولى منه.»

أخذ يفحص الأغراضَ المختلفة بمهارةٍ أثناء إخراجها، وفي النهاية هز رأسه.

وقال: «لا يوجد اسمٌ، ولا أحرفٌ أولى.» وأردف: «لكن انظروا هنا — هل ترَون، أيها السادة، مِن أين اشترى هذه الياقات؟ نصف دُزَينة منها، في صندوق. باريس! ها هو ذا — اسم البائع، داخل الياقة، تمامًا كما هو الحال في إنجلترا. أريستيد بيجول، ٨٢ شارع كابوسين. وبالحكم من خلال مظهرِها، أرى أن هذه القمصان مشتراةٌ من هناك أيضًا — والمناديل وأربطة العنق؛ جميعها تتمتَّع بمظهرٍ أجنبي. قد يكون هناك دليلٌ في ذلك — ربما نتتبَّعه في فرنسا إذا لم نتمكَّن من ذلك في إنجلترا. ربما يكون رجلًا فرنسيًّا.»

صاح السيد ديلينجهام متعجِّبًا: «أُقسم أنه ليس كذلك!» وأضاف: «مهما كانت المدةُ التي قضاها خارجَ إنجلترا، فهو لم يفقد لهجةَ شمال البلاد! لقد كان من سكان شمال البلاد — من يوركشاير أو لانكشاير، أستطيع أن أؤكِّد لك ذلك. إنه ليس فرَنسيًّا، أيها الضابط — كلا ليس هو!»

قال ميتشينجتون، الذي كان قد أفرغَ الآن كلَّ محتويات الحقيبة: «حسنًا، لا توجد أيُّ أوراق هنا، على أي حال.» وأضاف: «لا شيء لتحديد هُويته. لا شيء هنا، كما ترون، يحتوي على أوراقٍ سوى هذا الكتابِ القديم، الذي يحمل اسم «تاريخ بارثورب».»

قال السيد ديلينجهام ملاحظًا: «لقد أراني هذا الكتابَ في القطار.» وأردف: «فأنا مهتمٌّ بالآثار وعلمِ الآثار، وأي شخص يُمضي بعض الوقت في صحبتي يكتشفُ ذلك. تحدَّثنا عن تلك الأمور، فأخرج ذلك الكتاب، وأخبرني بفخرٍ كبير، أنه اشتراه من عرَبةٍ لبيع الكتب في الشارع، في مكانٍ ما بلندن، مقابل جنيه وستة شلنات.» وأضاف بتأمُّل: «أعتقد أن ما جذبه إليه هو التجليد الجِلدي العتيق والواجهة الفولاذية — فأنا متأكدٌ من أنه ليس لديه معرفةٌ كبيرة بالآثار.»

وضع ميتشينجتون الكتاب، فالتقطه برايس، وفحصَ صفحة العنوان، وقال في نفسه إن بارثورب كانت مدينة تُقام فيها سوقٌ مركزية في منطقة ميدلاندز. وكان على طرَف لسانه أن يقول إنه إذا لم يكن للرجل الميتِ اهتمامٌ خاصٌّ بالآثار وعلم الآثار، فمن الغريب نوعًا ما أن يشتريَ كتابًا متخصصًا في الآثار، وربما يكون قد اشتراه بسببِ صلةٍ ما بينه وبين بارثورب. لكنه تذكَّرَ أن سياسته الخاصةَ هي الاحتفاظ بالحقائق ذاتِ الصلة من أجل اعتباره الخاصِّ؛ لذلك لم يقل شيئًا. وبعد أن أشار ميتشينجتون إلى أنه ليس هناك المزيدُ للقيام به، وتأكد من السيد ديلينجهام أنه كان ينوي البقاءَ في رايتشستر على أيِّ حال بضعةَ أيام، نزلوا مرةً أخرى إلى الطابق السفلي، وذهب برايس والمفتش إلى مركز الشرطة.

انتشر الخبرُ عبر قلب المدينة، وتجمَّع حشدٌ من الناس عند أبوابِ مركزِ الشرطة. وبالداخل كان هناك فقط اثنان أو ثلاثةٌ من المواطنين البارزين الذين كانوا يتحدَّثون إلى رئيس الشرطة — من بينهم السيد ستيفن فوليوت، زوج أمِّ الشاب بونهام — وهو رجل ضخم، ممتلئُ الوجه يُقيم في كلوس منذ عدة سنوات، وكان من المعروف أنه صاحبُ ثروةٍ كبيرة، كما كان مشهورًا بزراعة الورود النادرة. وقد كان يُخبر رئيس الشرطة بشيءٍ ما، وأشار الأخير إلى ميتشينجتون بالاقتراب.

وقال: «إن السيد فوليوت يقول إنه قد رأى هذا الرجلَ النبيل في الكاتدرائية.» وأضاف: «لا يُمكن أن يكون ذلك قبل وقتٍ طويل جدًّا من وقوع الحادث، وَفقًا لروايتك، يا سيد فوليوت، أليس كذلك؟»

أجاب السيد فوليوت: «على ما أظن، قبله بخمسِ دقائق إلى عشر دقائق.» وتابع: «أتصوَّر أن الأمر كذلك لأنني ذهبتُ إلى القدَّاس الصباحي، الذي يُقام في الساعة العاشرة. وقد رأيته يصعد السُّلمَ الداخلي إلى مقصورةِ نوافذ الإضاءة العلوية — حيث كان يتفحَّص المكان. خمس إلى عشر دقائق — ولا بد أن الحادث قد وقَع بعد ذلك مباشرة.»

سمع برايس ذلك والتفتَ بعيدًا، ليُجرِيَ حساباته. لقد كانت الساعة تُقارب العاشرةَ عندما رأى رانسفورد يخرج مسرعًا من الرِّواق الغربي. وكان هناك سُلَّم من الشرفة نزولًا إلى ذلك الرواق الغربي. فما هو الاستنتاج، إذن؟ لكنه في الوقتِ الحاليِّ لم يصل إلى استنتاجٍ محدَّد؛ بدلًا من ذلك، عاد إلى شقته في فرايري لين، وأغلقَ بابها جيدًا، ثم أخرج من جيبه قصاصة الورق التي أخذها من جثة الرجل الميت.

الفصل الخامس

قصاصة الورق

عندما أخرج برايس، في غرفته المغلَقة، قطعةَ الورق تلك من جيبه، كانت لديه قَناعة أنها تحمل دليلًا سيكشف سرَّ مغامرة الصباح. لقد ألقى عليها مجردَ نظرةٍ خاطفة عندما التقطها من حقيبة الرجل الميت، لكنه رأى ما يكفي مما هو مكتوبٌ فيها ما يجعله متأكدًا من أنها وثيقة — إذا كان من الممكن أن يُطلق على قطعة الورق الصغيرة هذه وثيقةً — ذاتُ أهمية غير عادية. ومن ثَم بسَطها ووضعها بنحوٍ مسطَّح على طاولته، ونظر فيها بعناية، وهو يسأل نفسه ما هو المعنى الحقيقي لما كان يراه.

لم يكن هناك الكثيرُ لرؤيته. من الواضح أن قصاصة الورق نفسَها كانت رُبع ورقةٍ من ورق الملاحظات السَّميك، العتيقِ الطِّراز، المصفرِّ بعض الشيء بفعلِ مرور الزمن، وتحمِل ما يدلُّ على طيِّها وإبقائها مسطحةً في حقيبة الرجل الميت بعضَ الوقت — كانت التجاعيد محددةً بشكل واضح، والحواف باليةً وملطخة قليلًا نتيجة فركِها مدةً طويلة مع الجلد. وفي وسطها بضعُ كلمات، أو، على وجه الدقة اختصارات كلمات، باللاتينية، وبعض الأرقام:

In Para. Wrycestr. juxt. tumb.
Ric. Jenk. ex cap. xxiii. xv.

اعتبرها برايس للوهلة الأولى نسخةً من نقشٍ ما، ولكن معرفته باللاتينية دلَّته، بعد لحظة، أنه بدلًا من أن يكون نقشًا، كان تحديدًا لمكانٍ ما. لقد كان كذلك على نحوٍ واضح للغاية! — وقد فكَّ شفرتَه بسهولة. في بارادايس، في رايتشستر، بجانب، أو بالقرب من، مقبرة ريتشارد جينكينز، أو، ربما، جينكينسون، من الرأس، ثلاثٌ وعِشرون بوصة، أو تحت السطح بخمسَ عشرة بوصة، على الأرجح. لم يكن هناك شكٌّ في وجود معنًى

للكلمات. والآن، ما الذي يقع خلف قبر ريتشارد جينكينز، أو جينكينسون، في رايتشستر بارادايس — على الأرجح على بُعد ثلاثٍ وعشرين بوصةً من شاهدِ القبر، وخمسَ عشرةَ بوصة تحت السطح؟ كان هذا هو السؤالَ الذي قرَّر برايس على الفور إيجادَ إجابة مُرضيةٍ له، وفي الوقت نفسِه كانت هناك أسئلةٌ أخرى وضعَها بالترتيب في ذهنه. وهي كالتالي:

(١) مَن الرجل الذي أقام في فندق مايتر تحت اسم جون برادن؟

(٢) لماذا أراد مقابلةَ الدوق ساكسونستيد؟

(٣) هل هو رجلٌ كان يعرف رانسفورد في الماضي — ولم يكن رانسفورد يرغبُ في مقابلته مرةً أخرى؟

(٤) هل قابلَه رانسفورد — في الكاتدرائية؟

(٥) هل كان رانسفورد هو مَن ألقى به وكان السبب في أن يَلْقى حتْفَه أسفل سُلَّم سانت رايثا؟

(٦) هل هذا هو السببُ الحقيقيُّ للاضطراب الذي وُجد فيه دكتور رانسفورد بعد لحظاتٍ قليلة من اكتشاف الجثة؟

رأى برايس أنه كان أمامه متسَع من الوقت لإيجادِ الحلِّ المناسب لهذه الألغاز — ولحل مشكلةٍ أخرى قد يكون لها علاقةٌ بها — وهي تحديدُ الصلة الحقيقية بين رانسفورد وربيبيه. كان برايس، عند إخباره لرانسفورد في ذلك الصباح بما يقوله روَّاد حفلات الشاي في مدينة الكاتدرائية العتيقة، قد أخبرَه عن قصدٍ بنصف القصة فقط. إذ كان يعلم، وقد علم منذ شهور، أنَّ مجتمع كلوس كان يتساءل بقلقٍ كبير عما يحدُث في بيت رانسفورد. فرانسفورد رجلٌ عازب، ومحافظٌ على شبابه، ونشط، وقوي وهو بالتأكيد لم يتعدَّ منتصف العمر، لكن مظهره يبدو أصغرَ من عمره الفعلي، وقد جاء إلى رايتشستر قبل بضع سنوات فقط، ولم يُظهر قط أيَّ علامات على التخلي عن حالته كعازب. كما لم يسمعه أحدٌ من قبلُ يذكر عائلته أو أقاربَه؛ ثم فجأةً، ودون سابقِ إنذار، أحضر إلى منزله ماري بيوري، وهي فتاة جميلة في التاسعةَ عشْرة من عمرها، قيل إنها قد أنهَت دراستها لتوها، وشقيقها ريتشارد، الذي كان آنذاك فتًى في السادسة عشرة من عمره، والذي كان بالتأكيد في مدرسة ثانوية ذات سُمعة طيبة، وأُلحق بمدرسة رايتشستر الشهيرة التابعة لعميد الكاتدرائية بمجرد وصوله إلى منزله الجديد. وقد قال دكتور رانسفورد إنهما

رَبيباه، دون مزيدٍ من الإيضاح؛ بينما بدأ مجتمعُ كلوس يرغب في مزيدٍ من الإيضاح. مَن هما هذان الشابَّان؟ هل كان دكتور رانسفورد عمَّهما أو ابنَ عمهما — ما هي صلته بهما؟ على أي حال، في رأي السيدات المسنَّات اللواتي يُحدِّدن توجُّهاتِ المجتمع في رايتشستر، كانت الآنسة بيوري صغيرة جدًّا، وجميلةً جدًّا، بحيث لا يمكن تركُها دون قيِّمةٍ عليها. ولكن، حتى ذلك الحين، لم يجرؤ أحد على قول الكثير من ذلك لدكتور رانسفورد — بدلًا من ذلك، كان الجميع يتحدَّثُ عن ذلك بحُرية من وراء ظهره.

لقد راقب برايس كلَّ ما له صلةٌ بالشابَّين. كان برايس قد أمضى عامًا في العمل مع رانسفورد عندما وصلا، وقد سمح له بصُحبتهما دون قيود، ومن ثَم سرعان ما اكتشف أنه أيًّا كانت الصلةُ الموجودة بينهما وبين رانسفورد، فلم يكن لديهما أيُّ صلة أخرى بأي شخصٍ آخر كانا يعرفانه. إذ لم تَصِلهما رسائلُ من أعمامهما، أو عماتهما، أو أبناء عمومتهما، أو أجدادهما، أو جَدَّاتهما. بدا أنهما ليس لديهما ذكرياتٌ عن الأقارب، ولا عن الأب أو الأم؛ كان هناك جوٌّ غريب من العزلة حولهما. كان لديهما الكثيرُ من الكلام حول ما يمكن تسميتُه حاضِرَهما؛ أيام دراستهما الأخيرة، وتجارِبَهما، وألعابَهما، ومساعيَهما الحديثة — لكن لم يكن أيٌّ منها، تحت أي ظرف من الظروف، يتحدَّث عن الماضي البعيد جدًّا. وقد اكتشفت أذُنا برايس السريعتان واليقظتان بعضَ الأشياء — على سبيل المثال كان رانسفورد سنواتٍ عديدةً ماضيةً قد اعتاد على أن يقضيَ إجازته السنوية التي مدتها شهران مع هذَين الشخصين. وسنةً بعد أخرى — على أيِّ حال منذ أن كان الفتى في الصفِّ العاشر — كان يأخذهما ويُسافرون؛ حيث سمع برايس أجزاءَ من ذكريات الجولات في فرنسا، وسويسرا، وأيرلندا، واسكتلندا — حتى في مناطقَ بعيدةٍ مثل أقصى شمال النرويج. كان من السهل إدراكُ أن كلًّا من الفتى والفتاة يُكِنَّان تبجيلًا كبيرًا لرانسفورد؛ بنفس سهولة إدراك أن رانسفورد كان يبذل الكثيرَ من الجهد لجعل الحياةِ أكثرَ من سعيدة ومريحة لكلَيهما. ومن ثَم سأل برايس، الذي كان أحدَ هؤلاء الرجال الذين يؤمنون إيمانًا راسخًا بأنه لا يوجد أيُّ شخص يفعل أيَّ شيء من أجلِ لا شيء وأنَّ المصلحة الذاتية هي المحفِّز الرئيسي للحياة، نفسَه مرارًا وتَكرارًا السؤال الذي أثار حفيظةَ سيدات كلوس: مَن هذانِ، وما الرابطُ بينهما وبين هذا النوع من الأوصياء المُلهمين الذين لا وجود لهم إلا في القصص الخيالية؟

والآن، بعد أن وضعَ برايس قصاصةَ الورق في درْجِ مكتب محكم الإغلاق، سأل نفسه سؤالًا آخر: هل لأحداث هذا الصباح علاقةٌ بالغموض الذي يكتنفُ هُوية ربيبَي

دكتور رانسفورد؟ إذا كان الأمر كذلك، فإن عليه بالقطع كشْفَ الأمر. يرجع هذا إلى أن برايس كان قد عقَد العزم على أنه، سواءٌ بالرضا أو الإجبار، سوف يتزوج ماري بيوري، وهو حريصٌ جدًّا أن يضع يده على أيِّ شيء من شأنه أن يُساعده في تحقيق هذا الطموح. إذا كان فقط بإمكانه وضعُ رانسفورد تحت سيطرته — إذا كان بإمكانه وضع ماري بيوري نفسها تحت سيطرته — فستصبح الأمورُ على ما يُرام. وبمجرد أن يحصل عليها، فسيُصبح جيدًا بما يكفي معها — بطريقته الخاصة.

ولأن برايس لم يكن لديه ما يفعله، فقد خرج بعد مدة وتمشَّى على مهلٍ إلى نادي رايتشستر — وهو مؤسسة خاصة، اختِيرَ أعضاؤها من الدوائر الثريَّة والمهنية والكنسية والعسكرية في المدينة العتيقة. وهناك، كما توقَّع، وجد مجموعاتٍ صغيرةً تُناقش مأساة الصباح، فانضمَّ إلى إحداها، وكان واحدًا من أفرادها هو ساكفيل بونهام، منافسه المفترض، الذي كان منشغلًا بإخبارِ ثلاثة أو أربعة شُبان آخَرين بما قاله زوج والدته، السيد فوليوت، عن الحدث.

قال ساكفيل، الذي اشتهَر في دوائرِ رايتشستر بأنه شابٌّ ثَرثار ومتهوِّر: «زوج أمي يقول، وأنا أؤكِّد لكم أنه رأى الرجل، إنه يقول إن أيًّا كان ما حدث فمن المؤكَّد أنه قد حدث بمجرد أن صعد الرجلُ العجوز إلى مقصورةِ نوافذ الإضاءة العُلوية. ركِّزوا معي! — إن الأمر هكذا. كان زوج أمي قد ذهب إلى هناك من أجل القدَّاسِ الصباحيِّ — وهو متردِّدٌ منتظمٌ على الكاتدرائية، كما تعلمون — ورأى هذا الغريب يصعد السُّلم. إن السيد فوليوت متأكدٌ أن الحادث وقع بعد ذلك بخمس دقائق إلى عشر دقائق. ومن ثَم إذن، دعني أسألكم: أليس هو، زوجُ أمي، على حقٍّ عندما قال إنه من المؤكَّد قد حدث في الحال — على الفور؟»

ثم أردف: «لأن ذلك الرجل، فارنر، عاملَ البناء، يقول إنه رأى الرجل يسقطُ قبل الساعة العاشرة. فما رأيكم؟»

أشار واحد من المجموعة برأسه نحو برايس.

وقال: «أعتقد أن برايس يعرف وقتَ وقوع الحادث أكثرَ من أي شخصٍ آخر.» وأردف: «إذ كنتَ، يا برايس، أولَ مَن وصل إلى المكان، أليس كذلك؟»

أجاب برايس باقتضاب: «بعد فارنر.» وتابع: «وبخصوص الوقت — يُمكنني توضيحُ الأمر بهذه الطريقة — كان عازفُ الأرغن قد بدأ للتوِّ عزْفَ مقطوعةٍ خاصة بالقداس أو شيءٍ من هذا القبيل.»

صاح ساكفيل بلهجةِ انتصار: «هذا يعني الساعةَ العاشرة — تمامًا — عندما عثر عليه!» ثم أضاف: «بالطبع، لقد سقط قبل ذلك بدقيقةٍ أو دقيقتَين — مما يُثبت أن السيد فوليوت كان على حق. والآن ماذا يُثبت ذلك؟ بالقطع أن مهاجمَ الرجل العجوز، أيًّا كان، لاحَقَه عبر المقصورة بمجردِ دخوله إليها، وأمسك به عندما وصل إلى المدخل المفتوح، وألقاه من خلاله! إن الأمر واضحٌ — مثل نور الظهيرة!»

كان أحدُ أفرادِ المجموعة، وهو رجل أكبر سنًّا بعضَ الشيء من البقية، مسندًا ظهرَه على كرسيٍّ مائل، ويداه في جيبَيه، بينما يُراقب ساكفيل بونهام وهو يبتسم، ثم هزَّ رأسه وضحك قليلًا.

وقال: «أنت تأخذ أحد الأمور، يا ساكي، يا بُني، على أنه مسلَّمٌ به!» وتابع: «إنك تتبنَّى رواية عامل البناء على أنها حقيقية. لكنني لا أُصدِّق أن الرجل المسكين قد أُلقِي عبر ذلك المدخلِ على الإطلاق — لا يُمكنني تصديق ذلك!»

التفت برايس بحدَّةٍ إلى هذا المتحدِّثِ — الشابِّ أرتشديل، وهو موظف في شركة معمارية معروفة.

وصاح متعجبًا: «أنت لا تُصدِّق؟» وتابع: «لكن فارنر يقول إنه رآه وهو يُلقى!»

أجاب أرتشديل: «إنه أمر محتملٌ جدًّا.» وأردف: «لكن كل هذا كان يحدثُ بسرعة كبيرة لدرجة أن فارنر قد يُخطئ بسهولة. أنا أتحدَّث عن شيء أعرفه. أنا أعرف كلَّ شبر في الكاتدرائية — من المفترض أن أكون كذلك، حيث إننا نفحصُه دائمًا، بحكمِ عمَلِنا. وهناك عند ذلك المدخل تحديدًا، على قمة سُلَّم سانت رايثا، أصبحَت أرضيةُ المقصورة باليةً على نحوٍ ناعم للغاية لدرجةِ أنها تُشبه قطعةً من الزجاج — كما أنها منحدرة! إنها تنحدر بزاوية شديدة الانحدار، أيضًا، نحو المدخلِ نفسِه. ومن ثَم يمكن لشخصٍ غريب يمشي هناك أن ينزلقَ بسهولة، وإذا كان البابُ مفتوحًا، مثلما كان، فسيندفعُ عبره في الهواء قبل أن يدرك ما الذي يحدُث.»

تسببَت هذه النظريةُ في لحظةِ صمت — كسرها أخيرًا ساكفيل بونهام.

قال ساكفيل في إصرار: «لقد قال فارنر إنه رأى — رأى! — يدَ رجل، يد رجلٍ نبيل.» وأضاف: «لقد رأى سوار قميص أبيض، وجزءًا من كُمٍّ معطف. لن يُمكنك التغاضي عن ذلك، بالطبع. إنه متأكد من ذلك!»

أجاب أرتشديل بنحوٍ غيرِ مبالٍ: «يمكن لفارنر أن يكون على يقينٍ من ذلك كما يشاء، ومع ذلك ربما يكون مخطئًا. من المحتمل أن فارنر قد اختلطَ عليه الأمر بسببِ ما رآه.

ربما تصوَّر أن سِوارَ القميص الأبيض وكمَّ المعطف الأسود لشخصٍ آخر — وربما كانا خاصَّين بالرجل الذي قُتل. إذا كان الرجل قد انزلق، كما أقترح، واندفع عبر ذلك المدخل المفتوح، فسيقوم ببعضِ الحركات العنيفة والغريبة في محاولةٍ لإنقاذ نفسه حيث تلعب فيها ذراعاه دورًا مهمًّا. على سبيل المثال، إنه سيُلقي ذراعًا بالتأكيد — ليُمسك بأيِّ شيء. هذا ما رآه فارنر على الأرجح. لا يوجد دليلٌ أيًّا كان على أن الرجل قد أُلقي عَنوةً نحو الأسفل.»

التفت برايس بعيدًا عن مجموعة المتحدِّثين للتفكير في اقتراح أرتشديل. إذا كان لهذا الاقتراح أساسٌ من الحقيقة، فقد دمَّر نظريته الخاصة بأن رانسفورد هو المسئول عن وفاة الشخص الغريب. وفي هذه الحالة، ما سبَّب اضطرابَ رانسفورد الواضح أثناء مغادرته الرِّواقَ الغربي، وانفعاله الشديد — الذي لا لبس فيه أيضًا — في العيادة؟ لكن ما قاله أرتشديل جعل ذهنَه ينشغل، وبعد أن مَنَّى نفسه — احتفالًا بحريته — بتناولِ غَداءٍ جيدٍ بنحوٍ غيرِ معتاد في النادي، ذهب إلى الكاتدرائية لإجراء مُعايَنة شخصية لمقصورة نوافذ الإضاءة العلوية.

كان هناك سُلَّم يؤدي إلى تلك المقصورة في ركنِ الجناح الجنوبي، وقد توجَّه برايس مباشرةً إليه — لكنه وجدَ شرطيًّا هناك، وقد أشار إلى لافتة على باب البرج. وقال: «إنه مغلقٌ يا دكتور — بأمرٍ من العميد والمجلس.» ثم تابع بصوتٍ منخفض: «حتى صدورِ أوامرَ أخرى. إن الحقيقة، يا سيدي، بعد انتشار الخبر، أن الكثير من الناس تزاحَموا هنا وحتى هذه المقصورة بالأعلى ممَّا دفع العميدَ إلى أن يأمر بإغلاقِ جميعِ المداخل في الحال — ولم يُسمح لأيِّ شخص بالصعود منذ وقت الظهيرة.»

سأله برايس: «أفترض أنَّك لم تسمع أيَّ شيء عن أي شخص غريبٍ شُوهد يتسلل هناك بالأعلى هذا الصباح؟»

أجابه الشرطي: «كلا، يا سيدي، لكنني تحدَّثتُ قليلًا مع بعض خُدام الكاتدرائية، وقالوا إنه أمرٌ غريب للغاية أنه لم يرَ أحدٌ منهم هذا الرجل الغريب يصعد إلى هناك، ولا حتى سمع أيَّ شجار. إنهم يقولون — خُدام الكاتدرائية — إنهم كانوا جميعًا في ذلك الوقت، يستعدُّون للقداس الصباحي، ولم يرَوا أو يسمعوا أي شيء. إنه أمرٌ غريب، يا سيدي، أليس كذلك؟»

وافقه برايس الرأي قائلًا: «إن الأمر برُمَّته غريب»، ومن ثَم غادر الكاتدرائية. وسار نحوَ البوابة الصغيرة التي تؤدي إلى هذا الجانب من بارادايس ليجدَ شرطيًّا آخرَ متمركزًا هناك. فسأله: «ماذا! هل هذه مغلقة أيضًا؟»

قال الرجل: «لبعضَ الوقت، يا سيدي.» وتابع: «لقد كانوا سيُتلِفون جميعَ الشجيرات في المكان إذا لم تصدر الأوامرُ بالإغلاق! لقد كانوا شَغوفين لرؤية المكان الذي سقط فيه الرجل — لقد جاءوا في حشودٍ في وقت الغداء.»

أومأ برايس برأسه، وكان يستدير مبتعدًا، عندما جاء ديك بيوري ملتفًّا حولَ ركنٍ يؤدي إلى مَمْشى دينري ووك، ومن الواضح أنه متحمسٌ بشدة. وكانت معه فتاةٌ في نفس عمره تقريبًا — وهي فتاة مميزة يعرفها برايس واسمها بيتي كامباني، وهي ابنة أمين مكتبة العميد والمجلس، ومن ثَم فهو القيِّم على واحدة من أشهر مكتبات الكاتدرائيات في البلاد. هي، أيضًا، كانت على ما يبدو متحمسةً للغاية، وقد عبَس وجهُها الجميل والحيوي عندما ابتسم الشرطي وهزَّ رأسه.

صاح ديك بيوري متعجبًا: «أوه، عجبًا، ما سبب هذا؟» وتابع: «ما سبب هذا الإغلاق؟ — يا للحماقة! — هل يمكنك أن تسمح لنا بالدخول — دقيقةً واحدة فقط؟»

أجاب الشرطي بلطف: «ستتسبَّب في طردي من الخدمة، يا سيدي!» وأضاف وهو ينظر إلى الشابَّين: «ألا ترى اللافتة؟ سيطردني العميد من العمل غدًا إذا لم أُنفِّذ الأوامر. غير مسموح بالدخول، إلى أيِّ مكان، بأيِّ حال من الأحوال! فلتصحبكما السلامة.» وأردف: «لا يوجد شيء يمكن رؤيته — لا شيء! — مثلما يمكن للدكتور برايس الواقفِ هناك أن يُخبرك.»

نظر ديك، الذي لم يكن يعرف شيئًا عن المحادثة الأخيرة بين الوصيِّ عليه والمساعد المفصول، نحو برايس باهتمام.

وسأله: «لقد كنتَ أولَ مَن حضر إلى الموقع، أليس كذلك؟ هل تعتقد أنها جريمةُ قتل بالفعل؟»

أجاب برايس: «لا أعرف ما هي بالفعل.» وأضاف: «ولم أكن أولَ من حضر إلى الموقع. كان أول مَن حضر هو فارنر، عامل البناء — وهو مَن استدعاني.» والتفت لإلقاء نظرةٍ على الفتاة، التي كانت تختلسُ النظرَ بفضولٍ عبر البوابة إلى أشجار الصنوبر والسرو. وسألها: «هل تعتقدين أنَّ والدك في المكتبة الآن؟» ثم أردف: «هل سأجده هناك؟»

أجابت بيتي كامباني: «أعتقد أنه هناك.» وتابع: «فهو عادةً ما يذهب في نحوِ هذا الوقت.» ثم استدارت وسحبَت كمَّ ديك بيوري. وقالت: «هيا نذهب إلى نوافذِ الإضاءة العلوية.» وأردفت: «يُمكننا أن نرى ذلك من هناك، على أي حال.»

قال الشرطي وهو يهزُّ رأسه: «إن المكان هناك مغلَقٌ أيضًا، يا آنسة.» وأردف: «ممنوعٌ الدخول إلى هناك، أيضًا. ممنوع منعًا باتًّا دخول الجمهور — إذا جاز التعبير. «لن أسمح بتحوُّل الكاتدرائية إلى ما يُشبه صندوقَ الدنيا!» هذا بالضبط ما سمعت العميد وهو يقوله بأذنيَّ. إذن، المكان مغلق!»

استدار الفتى والفتاة بعيدًا وذهبا إلى كلوس، ونظر إليهما الشرطيُّ بينما يبتعدان وضحك.

ثم قال: «إنهما رفيقان مفعَمان بالحيوية، يا سيدي!» وتابع: «هذا ما يسمُّونه الفضول الصحِّي، أليس كذلك؟ إن الكثيرَ منه يجتاح المدينةَ اليوم.»

استدار برايس مرةً أخرى، بعد أن كان قد استدار في اتجاه المكتبة، على الجانب الآخر من كلوس.

وقال: «هل تعلم ما إذا كان زملاؤك من رجالِ الشرطة يفعلون أيَّ شيء لتحديد هُوية القتيل؟» وأردف: «هل سمعتَ أيَّ شيء عند الظهيرة؟»

أجاب الشرطي: «لا شيءَ سِوى أنه ستُنشَر تنويهاتٌ في الصحف، يا سيدي.» وتابع: «هذه هي أضمنُ طريقة لاكتشافِ شيءٍ ما. وقد سمعتُ المفتشَ ميتشينجتون يقول إنه سيتعيَّن عليهم سؤالُ الدوق ما إذا كان يعرف أيَّ شيء عن الرجل المسكين — أفترض أنه قد قال شيئًا ما عن رغبته في الذَّهاب إلى ساكسونستيد.»

ذهب برايس في اتجاه المكتبة وهو يُفكر. الصحف؟ — أجل، لا توجد وسيلةٌ أفضل لنشر الأخبار. إذا كان للسيد جون برادن أقاربُ وأصدقاء، فسوف يعلمون بموته المؤسفِ من خلال الصحف، وسيأتون. وفي هذه الحالة، ...

قال برايس وهو يتأمَّل: «ولكن لن يُفاجئني إذا كان الاسمُ المعطَى في فندق مايتر اسمًا مستعارًا. كما أتساءل عمَّا إذا كانت نظرية أرتشديل صحيحةً — ومع ذلك، سيكون هناك المزيدُ من ذلك في جلسة التحقيق التي ستُقام غدًا للبحث في أسباب الوفاة. وفي غضون ذلك — سأحاول أن أكتشفَ شيئًا عن مقبرة ريتشارد جينكينز، أو جينكينسون — أيًّا كان.»

كانت مكتبة العميد والمجلس الشهيرةُ في رايتشستر موجودةً في مبنًى جميلٍ عتيقِ الطِّراز في أحد أركان كلوس، حيث، يومًا بعد يوم، وسط مجلدات ومخطوطات لا تُقدَّر بثمن، ومطويات ضخمة وكتب ثقيلة من قطْع الربع، ومطبوعات عتيقة، وآثار مخطوطةٍ من العصور الوسطى، كان أمبروز كامباني، أمين المكتبة، دائمًا ما يكون موجودًا تقريبًا،

وعلى استعداد لإظهار كنوزه للزوَّار والسياح الذين كانوا يأتون من جميع أنحاء العالم لمشاهدةِ مجموعةٍ معروفة جيدًا لعشاق الكتب. وأمبروز كامباني هو رجل ذو وجهٍ مبتهج، في منتصف العمر، محبٌّ للكتب والآثار المخطوطة، ذو شعرٍ أشعث، ونظارة زرقاء، وكان موجودًا الآن في المكتبة، يتحدَّث إلى رجل عجوز هو جار برايس في فرايري لين — واسمه سيمبسون هاركر، وهو رجل عجوز هادئ ومتأمِّل، يُعتقد أنه تاجرٌ متقاعد، وكان يُمضي وقته في التجوُّل البطيء حول المدينة. وبينما كان برايس يدخل، التقطت أذناه ما كان يقوله كامباني في ذلك الوقت.

كان كامباني يقول: «أهم شيء سمعته عن الأمر، هو ذلك الكتاب الذي وجَدوه في حقيبة سفر الرجل في فندق مايتر. وأنا لست محققًا — لكنَّ هناك دليلًا!»

الفصل السادس

عن طريق الخطأ

نظر العجوز سيمبسون هاركر، الذي كان جالسًا بالقربِ من مكتب أمين المكتبة، ويداه مطويَّتان على مقبضِ عصا المشي القويةِ الخاصة به، عبر زوجَين من العيون الذكية واللامعة بنحوٍ غير عادي إلى برايس وهو يَعبُر الغرفةَ ويقترب من هذَين النمَّامَين.

وقال: «أعتقد أن الدكتور كان موجودًا هناك عندما عُثر على الكتاب الذي تتحدَّث عنه.» وتابع: «هكذا فهمتُ من ميتشينجتون.»

قال برايس، الذي لم يكن لديه ما يمنع المشاركةَ في الحديث: «أجل، كنتُ هناك.» ثم التفتَ إلى كامباني. وسأله: «ما الذي يجعلك تعتقدُ أن هناك دليلًا في ذلك؟»

أجاب أمينُ المكتبة: «عجبًا لك!» وتابع: «إنه رجلٌ يحمل معه كتابًا عن التاريخ القديم لبارثورب. وهي مدينة صغيرة ذاتُ سوقٍ مركزية في منطقة ميدلاندز، بليسترشير، على ما أعتقد، ليست ذاتَ أهميةٍ خاصةٍ أعرفُها، ولكنها بلا شك لها قصةٌ خاصة بها. لماذا قد يهتمُّ أيُّ شخص عدا رجلٍ عاش في بارثورب، في الماضي أو الحاضر، بهذه القصةِ لدرجةٍ تجعله يحمل معه كتابًا عن تاريخها القديم؟ لذلك، أستنتج أن هذا الغريبَ كان رجلًا من سكان بارثورب. وينبغي أن أستعلمَ عنه في بارثورب.»

لم يُبدِ سيمبسون هاركر أيَّ ملاحظة، وتذكَّر برايس ما قاله السيد ديلينجهام عندما عُثر على الكتاب.

وأجاب بلا مبالاةٍ: «أوه، لا أعرف!» وأردف: «أنا لا أتفقُ معك في الرأي. فقد رأيتُ الكتاب — فهو ذو تجليدٍ عتيق غريب وألواح نُحاسية قديمة غريبة. ربما يكون الرجلُ قد اشتراه لهذا السبب — لقد اشتريت كتبًا عتيقةً لأسبابٍ أقلَّ من هذه.»

أجاب كامباني بحدَّة: «مع ذلك، ينبغي أن أستعلمَ عنه في بارثورب. على المرء أن يُفكر في كل الاحتمالات. والاحتمالات في هذه الحالة تُشير إلى أن الرجل كان مهتمًّا بالكتاب؛ لأن له صلةً بتاريخ بلدته.»

استدار برايس بعيدًا نحوَ حائطٍ عُلِّق عليه عددٌ من الخرائط والمخطَّطات الخاصة بكاتدرائية رايتشستر ومحيطها — التي جاء إلى المكتبة ليطَّلع على إحداها. ولكن عندما تذكَّر فجأةً أن هناك سؤالًا يمكنه طرحُه دون إثارةِ أي شك أو تخمين، استدار مرةً أخرى نحو أمين المكتبة.

وسأله: «ألا يوجد سجلٌّ للمدفونين داخل الكاتدرائية؟» وتابع: «أو دفتر مكتوبٌ فيه أسماؤهم؟ إذ كنتُ ألقي نظرةً على النُّصب التذكاري لرايتشستر منذ عدة أيام، ورأيتُ بعض الأسماء التي أريد تتبُّعَها.»

رفع كامباني ريشةَ الكتابة الخاصةَ به وأشار إلى صوانٍ به مجلداتٌ كبيرة ذاتُ تجليد جلدي، موجودٍ في ركنٍ بعيد من الغرفة.

وأجاب: «الرفُّ الثالث من الأسفل يا دكتور.» وأضاف: «ستجد دفترَين هناك — أحدهما سجلٌّ بجميع المدفونين داخل الكاتدرائية نفسِها حتى اليوم، والآخر سجلٌّ بالمدفونين في بارادايس والأديرة القديمة. ما الأسماء التي تريد تتبُّعها؟»

لكن برايس تصنَّع عدمَ سماع السؤال الأخير، ومشى إلى المكان الذي أشار إليه كامباني، وحمل الدفتر الثانيَ إلى طاولةٍ مجاورة. فنادى عليه كامباني عبر الغرفة.

وقال: «ستجد فهارسَ مفيدةً في النهاية.» وأضاف: «لقد سُجِّل جميعُ المتوفَّيْن حتى الوقت الحاضر — منذ أربعمائة عام، تقريبًا.»

قلَّب برايس الصفحاتِ حتى الفِهْرِس في نهاية دفتره — وهو فهرِس مكتوبٌ بأنماط مختلفةٍ من الكتابة. وخلال دقيقةٍ واحدة، وجد الاسمَ الذي يبحث عنه — هناك كان واضحًا أمامه — ريتشارد جينكينز: تُوفِّي في ٨ مارس ١٧١٥، ودُفن في بارادايس، في ١٠ مارس. كاد يضحكُ بصوتٍ عالٍ من السهولة التي تتبَّع بها ما بدا في البداية أمرًا يصعب معرفته. ولكن لئلا تبدوَ مهمتُه سهلةً للغاية، استمر في قلب أوراق الدفتر الكبير، ومن أجل الحصول على عذرٍ إذا سأله أمين المكتبة أيَّ أسئلة أخرى، فقد حفظ بعضَ الأسماء التي رآها. وبعد مدَّة، أعاد الدفتر إلى رفِّه، ثم التفتَ إلى الحائط الذي عُلِّقَت عليه المخططاتُ والخرائط. ووجد هناك مخططًا لبارادايس، موضَّحًا عليه موقعُ وأسماءُ جميع القبور الموجودة في ذلك الفِناء العتيق، الذي كان يأمُل من خلاله معرفةَ الموقع الدقيق لقبر ريتشارد جينكينز.

لكنْ هنا واجهَ برايس مشكلتَه الأولى. كانت توجد أسفلَ كل جانبٍ من المخطط القديم — الذي يعود لعام ١٨٥٠ — قائمةٌ مجدوَلة بمقابر بارادايس. وقد كُتبت أسماء

العائلات والأشخاص في هذه القائمة — ومقابل كلِّ اسمٍ وُضع رقم يُطابق الرقم المكتوب نفسَه على الأقسام المختلفة للمخطَّط. ولم يكن اسم ريتشارد جينكينز في تلك القائمة — لقد راجعها بعنايةٍ مرتين، أو ثلاثَ مرات. لم يكن هناك. من الواضح، أنه إذا كان قبرُ ريتشارد جينكينز، الذي دُفن في بارادايس عام ١٧١٥، لا يزال موجودًا، بين أشجار السرو والصنوبر، فإن الاسم والنقشَ كانا قد تلاشَيا من عليه، وبَلِيا بفعل الزمن والطقس، عندما وُضع هذا المخطط، بعد مائةٍ وخمسة وثلاثين عامًا. وفي هذه الحالة، ماذا كانت تَعني الملاحظةُ التي وجَدها برايس في حقيبة الرجل الميت؟

ومن ثَم ابتعد في النهاية عن المخطَّط، وقد تملَّكته الحيرة، فنظر إليه كامباني.

وسأله: «هل وجدتَ ما تُريد؟»

أجاب برايس، الذي كان مستعدًّا بإجابةٍ: «أوه، أجل!» وأردف: «أردتُ فقط أن أرى مكانَ دفنِ عائلة سبلبانك — هناك الكثير منهم، كما أرى.»

قال كامباني: «في الركن الجنوبيِّ الشرقي من بارادايس.» وتابع: «لديهم عدةُ مقابر. كان بإمكاني أن أُوفِّر عليك عناءَ البحث.»

ضحك برايس قائلًا: «أنت موسوعةٌ منظَّمة عن المكان.» وأضاف: «أفترضُ أنك تعرف كلَّ شاردة وواردة عنه!»

أجاب أمينُ المكتبة: «من المفترض أن أكون كذلك.» وأردف: «لقد كنتُ أتدرَّب على ذلك، منذ أن كنتُ صبيًّا، على مدى خمسةٍ وأربعين عامًا.»

علَّق برايس بملاحظةٍ مناسبة، ثم غادر المكتبةَ وعاد إلى شقَّتِه — ليقضيَ هناك معظمَ الأمسيةِ التاليةِ في محاولةِ حلِّ الألغازِ المتنوِّعة التي صادفَته في هذا اليوم. لكنه لم يستطِع التوصلَ إلى شيءٍ في تلك الليلة، وكان لا يزال يُفكر في حلٍّ لألغاز الحادث عندما ذهب إلى جلسة التحقيق في أسباب الوفاة في صباح اليوم التالي — ليجدَ قاعة المحكمة ممتلئةً حتى الأبواب بمجموعة من سكان المدينة الفُضوليِّين مثله. وبينما كان جالسًا هناك، يستمع إلى المقدمات، وإلى أدلةِ الشهود الأوائل، صوَّر عقلُه النشطُ والماكر لنفسِه، مع الكثير من التسلية الساخرة، كيف يمكن لكلمةٍ أو كلمتين من شفتَيه أن تحلَّ الأمور إلى حدٍّ بعيد. وأخذ يُفكر فيما قد يقوله — إذا قال كل الحقيقة. لقد فكَّر فيما يمكن أن ينتزعَه من رانسفورد إذا كان هو قاضيَ التحقيق في هذه الجلسة، أو المحامي، وكان رانسفورد في منصَّة الشهود تلك. إذ كان سيسأله وهو تحت القسَم عما إذا كان يعرف ذلك الرجل الميتَ — وإذا كان قد تعامل معه في أوقاتٍ سابقة، وإذا كان قد التقى به وتحدَّث معه

في ذلك الصباح الحافل بالأحداث — كان سيسألُه، بشكلٍ مباشر، إذا كانت يده هي التي ألقَت الرجلَ ليَلْقى حتفَه. لكن لم يكن لدى برايس أيُّ نيةٍ لكشفِ أي معلومات لديه في هذا الوقت — فقد كان سيقول فقط ما يريد أن يُفصح عنه وليس أكثر. وهكذا جلس وسمع — وعرَف ممَّا سمعه أن الجميعَ هنا غارقون في غموضٍ لا فكاكَ منه، وأنه في وسط ذلك الحشد هناك رجلٌ واحد فقط لديه بعض الشكوك فيما يتعلق بحقيقة الأمر، وأن هذا الرجل هو برايس نفسُه.

كانت الأدلة المقدَّمة في المراحل الأولى من جلسة التحقيق معروفةً جميعُها لبرايس، ولأغلبِ الأشخاص في القاعة بالفعل. لقد حكى السيد ديلينجهام كيف التقى بالرجلِ الميتِ في القطار، وهو يُسافر من لندن إلى رايتشستر. وحكت السيدة بارتينجلي كيف وصل إلى فندق مايتر، وسُجِّل في دفتر النزلاء باسم السيد جون برادن، وأنه سأل في صباح اليوم التالي عما إذا كان بإمكانه الحصولُ على عرَبةٍ تُقله إلى ساكسونستيد في وقتٍ ما بعد الظهر، حيث كان يرغب في مقابلة الدوق. وشهد السيدُ فوليوت أنه قد رآه في الكاتدرائية متجهًا نحوَ أحد السلالم المؤدِّية إلى المقصورة. كما شهد فارنر — الشاهدُ الأكثرُ أهميةً حتى تلك اللحظة — بما رآه. كما قدَّم برايس نفسُه، وتلاه رانسفورد، شهادتَهما الطبية، ثم تحدَّث ميتشينجتون عن تفتيشه لملابس وأغراض القتيل الموجودة في غرفته بفندقِ مايتر. وأضاف ميتشينجتون أُولى المعلومات التي تُعَد جديدةً بالنسبة إلى برايس.

قال ميتشينجتون: «نتيجةً للعثور على الكتابِ الخاصِّ ببارثورب في حقيبة السفر الخاصة بالمجني عليه، أرسلنا برقيةً طويلة أمسِ إلى الشرطة هناك، لإخبارِهم بما حدث، وطلبنا منهم على وجه السرعة إجراءَ عمليةِ بحثٍ دقيقةٍ عن أيِّ مُواطن في المدينة يحمل اسمَ جون برادن، وإبلاغنا هذا الصباحَ عبر برقية بالنتيجة. وجاء ردُّهم، الذي استقبَلْناه قبل ساعة كالتالي. لا يوجد في بارثورب — وهي مدينةٌ صغيرة جدًّا — أيُّ شخص بهذا الاسم.»

لقد كان برايس يتوقَّع ذلك بالفعل. ومن ثَم التفتَ باهتمامٍ أكبر إلى الشاهد التالي — الدوق ساكسونستيد، القُطب المحليِّ الكبير، وهو رجلٌ ضخم وصريح للغاية، كان حاضرًا في القاعة منذ بدايةِ الإجراءات، التي كان من الواضح أنه مهتمٌّ بها كثيرًا. فمن الممكن أنه قد يكون قادرًا على قولِ شيء هام — فقد يعرف، في النهاية، شيئًا عن هذا الغريب الغامض على ما يبدو، الذي، رغم أي شيء يمكن للسيدة بارتينجلي أو أي شخص آخر أن يقوله عكس ذلك، ربما كان لديه موعدٌ وعمل معه.

لكنَّ سُموَّه لم يكن يعرف شيئًا. إذ لم يسمع قط اسمَ جون برادن في حياته — بقدرِ ما كان يتذكر. وقد عاينَ للتو جثةَ الرجل البائس ونظرَ بعناية في ملامحه. وأكَّد أنه لا يعرف عنه أيَّ شيء — ولم يستطِع أن يتذكر أنه قد رآه في أي مكان وفي أيِّ وقت. لم يكن يعرف شيئًا عنه حرفيًّا — ولم يستطِع التفكيرَ على الإطلاق في أي سببٍ لرغبة السيد جون برادن في رؤيته.

فقال قاضي التحقيق: «إن لدى سموِّك، بلا شك، تعاملاتٍ تِجاريةً مع عددٍ كبير من الناس في كل الأوقات.» وتابع: «ربما يكون بعضُها مع رجالٍ لم تُقابلهم إلا مدةً وجيزة من الوقت — ربما، بِضْع دقائق. ألا تتذكَّر قطُّ أنك قد قابلتَ هذا الرجل بهذه الطريقة؟»

أجاب الدوق: «أنا أتميزُ بامتلاك قدرةٍ غير عادية على تذكُّر الوجوه.» وأضاف: «وبدقة كبيرة — إذا جاز لي القول. لكنني لا أتذكر هذا الرجلَ على الإطلاق — في الواقع، دعني أقُل إنني متأكدٌ من أن عينَيَّ لم تقَعا عليه في حياتي قط.»

سأله القاضي: «هل يُمكن لسموك أن تقترح أيَّ سبب قد يجعله يرغبُ في مقابلتك؟»

أجاب الدوق: «ليس لديَّ أيُّ سبب! لكن رغم ذلك، قد يكون هناك العديدُ من الأسباب — غيرِ المعروفة بالنسبة إليَّ، ولكن يُمكنني التخمين. إذا كان هذا الشخصُ أحدَ المهتمين بالآثار، فهناك الكثيرُ من الأشياء العتيقة في ساكسونستيد التي قد يرغب في رؤيتها. أو قد يكون من مُحبي اللوحات — ومجموعتنا مشهورةٌ بعضَ الشيء، كما تعلم. وربما كان من هُواة الكتب — ولدينا بعضُ الإصدارات النادرة. يمكنني الاستمرارُ في تخمين الأسباب — ولكن ما الفائدة؟»

قال القاضي: «الخلاصة هي أن سموَّك لا تعرفه ولا تعرف شيئًا عنه.»

قال الدوق موافقًا وهو ينزل من منصة الشهود: «هكذا بالفعل — أنا لا أعرف شيئًا عنه!»

عند هذه المرحلة، أرسل قاضي التحقيق أعضاءَ هيئة المحلَّفين بصحبة ضابطٍ تابع له؛ لإجراء فحصٍ شخصي دقيق لمقصورة نوافذ الإضاءة العُلوية. وأثناء ذَهابهم، حدثَت بعض الضجة في القاعة بسبب دخول ضابط شرطة قدَّم للقاضي رجلًا في منتصف العمر، حسَن المظهر، اعتبره برايس على الفور قطبًا تجاريًّا من لندن يتمتع بقدرٍ من المكانة. وقد جرى تبادلٌ للملاحظات على الفور بين الوافد الجديد والقاضي، شارك فيه حاليًّا بعضُ المسئولين الجالسين على الطاولة. وعندما عادت هيئة المحلَّفين، دخل الشخص الغريب مباشرةً إلى منصة الشهود، والتفت القاضي إلى هيئة المحلَّفين والقاعة.

ثم قال: «لقد تمَكَّنا بنحوٍ غير متوقَّع من الحصول على بعض الأدلة عن هُوية الرجل الميت، أيها السادة.» وتابع: «إن الرجل النبيلَ الذي صعد لتوِّه إلى منصة الشهود هو السيد ألكسندر تشيلستون، مديرُ بنك لندن آند كولونيز، الكائن في شارع ثريدنيدل ستريت. وقد رأى السيد تشيلستون تفاصيلَ هذا الحادثِ في الصحفِ هذا الصباح، فانطلق على الفور إلى رايتشستر ليُخبرنا بما يعرفه عن الرجل الميت. ونحن ممتنُّون جدًّا للسيد تشيلستون — وعندما يؤدي القسَم، ربما يتفضل بإخبارنا بما يعرفه.»

في خِضمِّ هَمْهمة الإثارة التي سرَت في القاعة، انغمس برايس في النظر خُفْيةً نحو رانسفورد الذي كان جالسًا في الجهة المقابلة، خلف الطاولة الموجودة في وسط القاعة. لقد أدركَ على الفور أن رانسفورد، على الرغم من أنه ربما يُجاهد بشدة لإبقاء تعبيراتِ وجهه تحت السيطرة، كان بالتأكيد مرتبكًا من إعلان القاضي. إذ شحبَت وجنتاه، واتسعَت عيناه قليلًا، وانفرجت شَفتاه بينما كان يُحدق في مدير البنك — بوجه عام، كان الأمر أكثرَ من مجرد فضول كسا ملامحَه. ثم التفتَ برايس، وهو راضٍ ومبتهجٌ على نحوٍ خفي، لسماع ما سيقوله ألكسندر تشيلستون.

إنه لم يَقُل الكثير — لكن ما قاله كان ذا أهمية كبيرة. قال السيد تشيلستون، قبل يومَين فقط — كان ذلك في اليوم السابق لوفاته — جاء السيد جون برادن إلى بنك لندن آند كولونيز، الذي يعمل السيد تشيلستون مديرًا له، وقدَّم نفسه على أنه قد وصل لتوه إلى إنجلترا قادمًا من أستراليا؛ حيث قال إنه كان يعيش هناك منذ عدة سنوات، وطلب السماحَ له بفتح حساب. ثم قدَّم بعض خطابات التوصية من وكلاء بنك لندن آند كولونيز، في ملبورن، التي كانت مُرضيةً للغاية؛ ومن ثَم جرى فتح الحساب، ووضع هو فيه مبلغَ عشرة آلاف جنيه على هيئة كمبيالة تُحصَّل عند الطلب لصالح أحد هؤلاء الوكلاء. ولم يسحب شيئًا مقابلها، حيث قال بلا مبالاةٍ إن معه الكثيرَ من المال في جيبه في الوقت الحالي، كما لم يأخذ حتى دفتر الشيكات الذي قُدِّم له، قائلًا إنه سيطلبه لاحقًا.

وتابع الشاهدُ قائلًا: «لم يُعطِنا أيَّ عنوان في لندن ولا في إنجلترا.» وأردف: «لقد أخبرني أنه قد وصل لتوه إلى تشارينج كروس في ذلك الصباح، بعد أن سافر من باريس أثناء الليل. وقال إنه ينبغي أن يُقيم بعضَ الوقت في فندقٍ سكَني في لندن، وفي هذه الأثناء كان لديه مقابلة، أو زيارة، واحدةٌ أو اثنتان ليقوم بهما في الريف، وقال إنه سيُقابلني مرةً أخرى عندما يعود منهما. لقد أعطاني القليل جدًّا من المعلومات عن نفسِه، لم يكن ذلك ضروريًّا؛ لأن خطاباتِ التوصية من وكلائنا في أستراليا كانت مُرضيةً تمامًا. لكنه

ذكَر أنه سافر إلى هناك منذ عدة سنوات، واستثمر في شراء الأراضي — وقال أيضًا إنه سيستقرُّ الآن في إنجلترا إلى الأبد. هذا ...» — هكذا اختتم السيد شيلستون حديثه — «هو كلُّ ما يُمكنني قوله من خلال معرفتي الخاصة. لكن ...» — وأضاف، وهو يسحب صحيفة من جيبه — «هذا إعلانٌ لاحظتُه في صحيفة «ذا تايمز» هذا الصباحَ عندما جئتُ للإدلاء بشهادتي. ستُلاحظ ...» — وتابع وهو يناولها للقاضي — «أنه قد نُشر بالتأكيد من قِبَل عميلِنا المسكين.»

ألقى القاضي نظرةً سريعة على فِقرة مميزة في عمود الإعلانات والرسائل الشخصية لصحيفة «ذا تايمز»، وقرأها بصوتٍ عالٍ:

قال: «إن الإعلان على النحو التالي.» وتابع: «إذا اطَّلع صديقي القديمُ ماركو على هذا الإعلان، يجب أن يعلم أن ستيكر يرغب في رؤيته مرةً أخرى. جيه برادن، عناية بنك لندن آند كولونيز، شارع ثريدنيدل ستريت، لندن.»

كان برايس يُراقب رانسفورد بهدوء. هل أخطأ في اعتقاده أنه رآه يجفل؛ أنه رآه وقد تورَّد وجهه عندما سمع الإعلان يقرأ؟ لقد كان يعتقد أنه ليس مخطئًا — ولكن إذا كان على حق، فقد استعاد رانسفورد في اللحظة التالية السيطرةَ الكاملة على نفسه ولم يُبدِ أيَّ انفعال. والتفت برايس مرةً أخرى إلى القاضي والشاهد.

لكن الشاهد لم يكن لديه المزيدُ ليقولَه — باستثناء الإشارة إلى أنه يجب إرسالُ برقية إلى وكلاء البنك في ملبورن للحصول على معلومات؛ لأنه من غير المرجَّح أن يحصلوا على المزيد في إنجلترا. وبهذا انتهت المرحلةُ الوُسطى من الإجراءات — وجاءت المرحلة الأخيرة، التي تابعَها برايس باهتمامٍ متزايد. إذ سرعان ما ثبت، من خلال بعضِ الملاحظات التي أدلى بها القاضي، أن النظرية التي طرحها أرتشديل في النادي أثناء وجود برايس في اليوم السابق قد حَظِيَت بتأييد السلطات، وأن زيارة المحلَّفين إلى مسرح الحادث كانت مقصودةً من قِبَل القاضي من أجل تهيئتهم لِقَبول تلك النظرية. والآن استُدعي أرتشديل نفسُه، بصفته ممثلًا للمهندسين المعماريين المسئولين عن ترميم الكاتدرائية؛ لإبداءِ رأيه — وقد عرَضه بالكلمات نفسِها تقريبًا التي سمعه برايس يستخدمها قبل أربعٍ وعشرين ساعة. وبعده جاء رئيس عمال البناء، وأعرب عن القناعة الراسخة نفسِها التي ترى أن الحقيقةَ الفِعلية هي أن رصيف المقصورة في ذلك المكان المحدَّد أصبح ناعمًا للغاية، وهو يميل نحو المدخل المفتوح بزاوية حادة، بحيث فقد الرجلُ البائس اتزانَ خطواته عليه، وقبل أن يتمكَّن من استعادته، انزلق مندفعًا من المدخل وفوق القمة المكسور لسلَّم سانت

رايثا. وعلى الرغم من ذلك، وبناءً على رغبة أحد المحلَّفين، استُدعي فارنر مرة أخرى، وتمسَّك بقوةٍ بقصته الأصلية عن رؤية يدٍ هي بكل تأكيد، حسَبما أعلن، ليست يدَ القتيل، وسرعان ما أصبح من الواضح أن هيئة المحلَّفين تُشارك القاضيَ في اعتقاده بأن فارنر في خوفه وانفعاله قد أخطأ في التقدير، ولم يُفاجَأ أحدٌ عندما أعلن رئيس هيئة المحلَّفين، بعد استشارةٍ قصيرة جدًّا مع زملائه، حكمًا بأن الموت قد حدَث عن طريق الخطأ.

قال رجلٌ يجلس بجانب برايس: «إذن، بُرِّئت المدينة من وصمةِ جريمة القتل!» ثم أضاف: «هذا عملٌ جيد، على أي حال! إنه أمر سيئ، يا دكتور، أن تُفكِّر في وقوع جريمةِ قتلٍ داخل كاتدرائية. ستُصبح هناك مسألةُ تدنيس مقدسات، بالطبع — وجميع أنواع التعقيدات.»

لم يُعلِّق برايس على كلام الرجل. إذ كان يُراقب رانسفورد، الذي كان يتحدَّث إلى القاضي. ولم يكن مخطئًا الآن — فقد حمل وجهُ رانسفورد كلَّ علامات الارتياح اللامتناهي. من ماذا؟ استدار برايس ليُغادر القاعة الممتلئة، التي سارع الحضورُ بالخروج منها. وبينما كان يجتازُ الطاولة المركزية، رأى العجوز سيمبسون هاركر، الذي، بعد جلوسه في صمتٍ يقِظ لمدة ثلاث ساعات، قد اقترب منها، ثم التقطَ كتاب «تاريخ بارثورب» الذي عُثر عليه في حقيبة برادن وأخذ يُحدق بفضول في صفحة العنوان الخاصة به.

الفصل السابع

المسار المزدوج

لم يكن بيمبرتون برايس الشخصَ الوحيد في رايتشستر الذي كان يُراقب رانسفورد باهتمامٍ شديدٍ خلال هذه الأحداث. لقد أدركَت ماري بيوري، وهي فتاة تتمتع بقدراتٍ أكثرَ من المعتادة في الملاحظة وسَبْرِ أغوار البشر، على نحوٍ سريع أن القلق الشديد لدى وصيِّها بشأن الحادث في بارادايس كان شيئًا خارجَ نطاق المألوف. لقد عرَفَت رانسفورد كرجلٍ رقيق القلب للغاية، حيث كان لديه قدرٌ كبير من العاطفة في تكوينه؛ فقد عُرف باهتمامه الذي يتعدى الاهتمامَ المِهني بمَرْضاه الأكثرِ فقرًا، واكتسب شهرةً مستحَقة في المدينة بسبب رعايته لهم. ولكن كان من المدهش بعضَ الشيء، حتى بالنسبة إلى ماري، أن يُصبح منزعجًا للغاية بسبب وفاة شخصٍ غريب تمامًا، لدرجةٍ تجعله يفقد شهيته للطعام، ويكون، لما لا يقل عن يومين، مضطربًا لدرجة أن سلوكه هذا صار ملحوظًا بوضوحٍ لها ولشقيقها.

كانت ملاحظاتُه على المأساة تقليديةً تمامًا — حادث محزن للغاية، مصيرٌ محزن للرجل المسكين، حادث غامض ويصعب تفسيره، وما إلى ذلك — ولكن من الواضح أنَّ قلقه قد تجاوز ذلك. لقد كان يضطرب عندما تسأله ماري عن الحقائق، وينزعج عندما يسأله ديك بيوري، بسذاجةِ تلميذِ مدرسة، عن التفاصيل المهنية، وكانت متأكِّدة، بسبب الهالات حول عينَيه والإرهاقِ البادي على وجهه، أنه قد قضى ليلةً مضطربة عندما نزل لتناول الإفطار في صباح يوم جلسة التحقيق. ولكن عندما عاد من جلسة التحقيق، لاحظَت حدوث تغيير — كان من الواضح، لذكائها اليقظ، أن رانسفورد قد شعر بارتياحٍ كبير. وتحدَّث بارتياح، في الواقع، في تلك الليلة على العشاء، موضحًا أن الحُكم الذي قررَته هيئةُ المحلَّفين قد أبرأ المدينةَ من حدوث جريمة شنيعة كهذه على أرضها، وقال إنه لن يكون أمرًا جيدًا، إذا اكتسبَت كاتدرائية رايتشستر سُمعةً سيئة لا تُحسد عليها باعتبارها ساحةً لجريمة قتل.

علَّق ديك، الذي كان يعرف كل الحديث الدائر في المدينة، قائلًا: «مع ذلك، ما زال فارنر متمسكًا بما قاله طوال الوقت. إذ يقول فارنر — قال بعد ظهر ذلك اليوم، بعد

انتهاء جلسة التحقيق — إنه متأكد تمامًا مما رآه، وإنه لم يرَ فقط يدًا في سوار قميصٍ أبيضَ وكمٍّ معطف أسود، ولكنه رأى الشمسَ تلمع لثانيةٍ على أزرار السِّوار، كما لو كانت من الذهب أو الماس. إن هذا دليلٌ قوي جدًّا، يا سيدي، أليس كذلك؟»

أجاب رانسفورد: «في الحالة الذهنية التي كان عليها فارنر في تلك اللحظة، لم يكن قادرًا تمامًا على اتخاذ قرارٍ قاطع بشأنِ ما رآه حقًّا. ستحتفظ رؤيته بصورٍ مشوشة. من المحتمل أنه رأى يدَ القتيل — حيث كان يرتدي معطفًا أسودَ وقميصًا أبيض. إن الحكم الصادر في القضية منطقيٌّ بشدة.»

لم يستمرَّ الحديث بعد ذلك، وفي ذلك المساء عاد رانسفورد تقريبًا إلى طبيعته مرةً أخرى. لكن لم يَعُد كما كان على الإطلاق. حيث شاهدَته ماري وهو يبدو شديدَ الحزن، ومستغرقًا في التفكير، أكثرَ من مرة، كما سمعته يتنهَّد بشدة أكثرَ من مرة أيضًا. لكنه توقَّف عن الحديث حول الأمر لمدة يومين، بعدهما أعلن، عند الإفطار، عن نيتِه حضورَ جنازة جون برادن، التي كان من المقرَّر إقامتها في ذلك الصباح.

قال: «لقد طلبتُ عربة بروم لتُقلَّني في الساعة الحادية عشرة، وقد رتبتُ مع دكتور نيكلسون لاستقبال أيِّ حالة عاجلة تأتي بين هذا الوقتِ ووقتِ الظهيرة — لذلك، إذا كان هناك أيُّ حالة من هذا القبيل، يُمكنكِ الاتصالُ به عبر الهاتف. سيحضر عددٌ قليل منا جنازة هذا الرجل المسكين — سيكون من السيِّئ للغاية دفنُ شخص غريب دون حضور بعض الناس، خاصة بعد هذا المصير. سيحضر شخصٌ ما نائبًا عن العميد والمجلس، وثلاثةٌ أو أربعة من سكان المدينة البارزين، لذلك لن يتمَّ إهماله تمامًا.» وهنا تردَّد ونظر ببعضِ التوتر إلى ماري، التي كان يُخبرها بكلِّ هذا، بعد أن غادرَ ديك إلى المدرسة، ثم قال: «وهناك أمرٌ صغير أتمنى أن تهتمِّي به — وأظن أنك ستفعلينَه بنحوٍ أفضلَ مني. يبدو أن الرجل كان بلا أصدقاء، هنا، على أيِّ حال، لم يظهر له أيُّ أقارب، على الرغم من الإعلان عن موته بالوسائلِ الممكنة كافةً؛ لذا ألا تعتقدين أنه سيُصبح تصرُّفًا نبيلًا — نوعًا ما — إذا وُضع إكليلٌ من الزهور، أو صليب، أو شيء من هذا القبيل على قبره — فقط لإظهار التعاطف كما تعلمين؟»

قالت ماري: «إنه لَلُطفٌ شديدٌ منك أن تُفكِّر في هذا الأمر.» وأضافت: «ماذا تريد مني أن أفعل؟»

أجاب رانسفورد: «أن تذهبي إلى متجر الزهور جاردالز، وتختاري إكليلًا مناسبًا، وبعد ذلك — في وقتٍ لاحق من اليوم — تأخذيه إلى مدفنِ كنيسة سانت ويجبرت، حيث سيُدفَن الرجل، خذيه — إذا كنتِ لا تُمانعين — بنفسك إلى هناك.»

أجابت ماري: «بكل تأكيد.» ثم أردفَت: «سأفعل ما تريد.»

كانت ستفعل أيَّ شيء يبدو جيدًا لرانسفورد — لكن مع ذلك تساءلت عن هذا الاهتمام غيرِ المعتاد بعضَ الشيء بشخصٍ غريب تمامًا. لكنها فسَّرَت الأمر في النهاية بأنه بلا شكٍّ طيبةُ قلب من رانسفورد — حيث أثَّر فيه بشدةٍ المصيرُ المؤسف للرجل. وبعد ظُهر ذلك اليوم، أرشد خادم كنيسة سانت ويجبرت الآنسةَ بيوري والسيد ساكفيل بونهام إلى القبر الجديد، حيث كان يحمل أحدهما إكليلًا من الزهور والآخَرُ مجموعةً كبيرة من الزنابق. كان ساكفيل، الذي تصادف أن يجد ماري في متجر الزهور، قد ذهب إلى هناك ليشتريَ باقةَ زهورٍ لأمه، وعرَف ما تريد ماري أن تفعل، وقد استرعَته الفكرة — أو الرغبةُ في نيل رضا الآنسة بيوري — لدرجةِ أنه اشترى زهورًا على الفور لنفسِه إرضاءً لها، وأصرَّ على مرافقة ماري إلى مدفن الكنيسة.

سمع برايس عن هذا التكريم لجون برادن في اليوم التالي — من السيدة فوليوت، والدة ساكفيل بونهام، وهي سيدةٌ ضخمة البنيان تُهيمن على دوائرَ معينةٍ في مجتمع رايتشستر من نواحٍ عديدة. وكانت السيدة فوليوت واحدةً من هؤلاء النساء التي حبَتْها الطبيعة بالقوة — وهي لافتةٌ للانتباه من نواحٍ كثيرة. كان صوتها ذُكوريًّا، ويبلغ طولها حوالي ستة أقدام، وعرْضها يتوافق مع ارتفاعها، وهي ذات عينَين ثاقبتين، وأنفٍ روماني، ولم يكن هناك مسئول كنيس في رايتشستر لا يخضع لسيطرتها، وإذا رآها العميد نفسُه قادمةً، فقد كان يستدير على عجَلٍ ويدخل إلى أقربِ متجرٍ وهو يتصبب عرقًا؛ خوفًا من أن تتبعَه. كانت السيدة فوليوت، ذاتُ الثروة والثقة بالنفس، هي الروحَ القائدةَ في العديد من أعمال البرِّ والإحسان، لكن كان هناك أشخاصٌ في رايتشستر قُساةً بما يكفي ليقولوا — من خلفِ ظهرها — إنها متطفلةٌ بقدْرِ ما كانت بلا شكٍّ استبداديةً، ولكن، كما أشار ذاتَ مرة أحدُ أخلصِ المدافعين عنها من رجال الدين، فإن هؤلاء المتذمرين يُمكن أن يُغيروا رأيهم مقابل خمسة شلنات. كانت السيدة فوليوت، من خلال طريقتها، بلا شك مركزَ قوةٍ، وكان بيمبرتون برايس ولأسبابٍ تخصه، كلما التقى بها — وهو ما يحدث كثيرًا إلى حدٍّ ما — يُعاملها بلطفٍ وتهذيب على الدوام.

علقت السيدة فوليوت بأعمقِ نبرةٍ لصوتها، عندما قابلت برايس، في اليوم التالي للجنازة، عند زاوية شارعٍ خلفي كانت متوجهةً عبره إلى إحدى مهامِّها الخيرية، كي تُفزع أيًّا من النساء اللواتي يتصادف أن تُضبط وهي تُمارس النميمة: «إن هذا هو الشيء الأكثر غموضًا يا دكتور برايس.» وتابع: «ما الذي يجعل دكتور رانسفورد يطلب أن تُوضَع

الزهور على قبرِ شخصٍ غريب تمامًا؟ هل هو شعور عاطفي؟ أنا لا أظن ذلك! لا بد أن هناك سببًا.»

أجاب برايس، الذي أثار الأمرُ فضوله بالفعل: «أخشى أنني لا أعرف ما الذي تتحدَّثين عنه، يا سيدة فوليوت.» وأضاف: «هل وضع دكتور رانسفورد زهورًا على أحد القبور؟ — أنا لم أكن أعلم ذلك. لقد تركتُ العمل مع دكتور رانسفورد قبل يومين — لذلك لم أعد أعلمُ عنه شيئًا.»

قالت السيدة فوليوت: «لقد أخبرني ابني، السيد ساكفيل بونهام، أن الآنسة بيوري ذهبَت أمسِ إلى جاردالز وأنفقَت جنيهًا ذهبيًّا — جنيهًا ذهبيًّا بأكمله! — لشراء إكليلٍ من الزهور، وقد أخبرت ساكفيل، أنها ذاهبة، حسَب رغبةِ وصيِّها، لتضعه على قبر ذلك الرجل الغريب. فتأثَّر ساكفيل، وهو فتًى طيب القلب، واشترى هو أيضًا بعضَ الزهور ورافق الآنسةَ بيوري. إنه لأمرٌ في غاية العجب! فالرجل غريب تمامًا! يا إلهي! — عجبًا، إن أحدًا لا يعرف مَن كان هذا الرجل!»

قال برايس: «باستثناء مدير مصرفه، الذي يقول إنه يمتلك عشَرةَ آلاف جنيهٍ في حسابه.»

قالت السيدة فوليوت بجدِّية: «هذا بالتأكيد أمرٌ يدعو للتفكير. ولكن مَن يدري؟ — ربما يكون هذا المالُ مسروقًا. والآن، حقًّا، هل سمعت يومًا عن رجلٍ محترم جدًّا ليس معه حتى بطاقة شخصية أو رسالة؟ ومن أستراليا أيضًا! — التي يهرب إليها كلُّ المتهمين المطلوبين! أتساءل، يا دكتور برايس، حول ما إذا كان الطبيب رانسفورد قد عرَف هذا الرجل — خلال السنوات الماضية؟ ربما كان يعرفه، ربما كان يعرفه — بالتأكيد! وهذا، بالطبع، يُفسِّر رغبتَه في وضع زهورٍ على قبره.»

قال برايس: «هناك قدرٌ كبير في الأمر يتطلَّب تفسيرًا يا سيدة فوليوت.» كان يتساءل في نفسه عما إذا كان من الحكمة سكْب قطرة صغيرة من السُّم في عقل السيدة، لزيادةِ التأثيرِ والانتشار في الوقت المناسب. فتابع قائلًا: «أنا — بالطبع، ربما أكون مخطئًا — أعتقد بالتأكيد أن دكتور رانسفورد بدا مضطربًا بنحوٍ غيرِ معتاد بسبب هذه المسألة — من الواضح أنها أزعجته كثيرًا.»

ردَّت السيدة فوليوت: «لقد سمعت هذا — من آخَرين حضروا جلسةَ التحقيق.» وتابع: «في رأيي أن القاضيَ — وهو رجل موقَّر بخلاف ذلك — ليس دقيقًا بما فيه الكفاية. لقد قلت للسيد فوليوت هذا الصباح، عند قراءة الصحيفة، إنه في رأيي كان ينبغي

تأجيلُ جلسة التحقيق لجمع المزيدِ من المعلومات. أنا أعرف معلومةً لم تُذكر قط في تلك الجلسة!»

قال برايس: «ماذا؟» ثم أردف: «وما هي؟»

أجابت السيدة فوليوت: «لقد أخبرَتني السيدة ديرامور، التي يقع منزلها، كما تعلم، بجوار منزل دكتور رانسفورد، هذا الصباح أنه في صباحِ يوم الحادث، تصادف أنها نظرت من إحدى نوافذ منزلها العُلوية، فرأت رجلًا تشعر السيدة ديرامور، من الوصف الوارد في الصحف، أنها متأكِّدة من أنه هو الغريب الغامض، وكان يَعبر كلوس باتجاهِ الكاتدرائية، بحسَب السيدة ديرامور، في خطٍّ مستقيم مباشر من حديقة دكتور رانسفورد — كما لو كان قد خرج من هناك. دكتور برايس، كان يجب طرح سؤال مباشر على دكتور رانسفورد وهو: هل رأى ذلك الرجل من قبل؟»

«أنتِ على حق، لكن كما ترين، يا سيدة فوليوت، فإن القاضيَ لم يكن يعرف ما رأته السيدة ديرامور؛ لذلك لم يستطِع طرحَ مثل هذا السؤال، وكذلك لم يستطِع أيُّ شخص آخر.» هكذا أجاب برايس، الذي كان يتساءل عن المدة التي وقفَت خلالها السيدةُ ديرامور في نافذتها العلوية وما إذا كانت قد رأته يتبع برادن أو لا. ثم أضاف: «لكن هناك ملابَسات، بلا شك، يجب الاستفسارُ عنها. ومن المؤكد أنه أمر مثيرٌ للفضول للغاية أن يُرسل دكتور رانسفورد إكليلًا من الزهور إلى قبر شخص غريب.»

وعندما ترك السيدة فوليوت، كان مقتنعًا بأن فضولها قد أُثير، وأن لسانَها لن يتوقف عن الحديث في هذا الأمر؛ فالسيدة فوليوت لديها موهبةُ خلقِ جوٍّ عام، وإذا كانت قد اقتنعت بأن هناك صلةً غامضة بين دكتور رانسفورد والرجل الميت، فهي لن ترتاح أبدًا حتى تنشر شكوكها. لكن بالنسبة إلى برايس نفسِه، فقد أراد أكثرَ من الشكوك؛ لقد أراد الحقائق والتفاصيلَ والبيانات. ومرةً أخرى بدأ يراجع كم الأدلة التي تراكمَت لديه.

لقد ترك في الوقت الحاليِّ مسألة قُصاصة الورق التي عثر عليها في حقيبة برادن، والمكان الدقيق لقبر ريتشارد جينكينز في بارادايس. إذ إن ما أثار اهتمامه الآن بنحوٍ رئيسي هو الإعلان في صحيفة «ذا تايمز» الذي لفت الانتباهَ إليه مدير البنك اللندني. وسارع إلى شراء نسخةٍ من الصحيفة وقصَّ منها الإعلان. وقد كان ينصُّ على ما يلي: إن ستيكر (الذي من المفترض أن يكون صديقًا قديمًا) يُريد مقابلة الصديق القديم ماركو، وأيًّا مَن يكون ستيكر فيُمكن العثور عليه بالتأكيد من خلال جيه برادن. ولم يكن هناك شكٌّ للحظةٍ، في ذهن برايس، أن ستيكر هو جيه برادن نفسُه. والآن، مَن هو ماركو؟

مَن سيكون — بنسبة تأكيد مليون إلى واحد! — سوى رانسفورد، الذي كان اسمه الأول مارك؟

لقد تصوَّر أن فُرصه في التعرُّف على حقيقة القضية تجدَّدت مرةً أخرى في تلك الليلة. وحسبما كانت الأمور، بدا من غير المحتمل أن يظهر أيُّ أقاربَ أو معارفَ لبرادن الآن. لقد انتشرت قضية رايتشستر بارادايس، وَفْق ما أطلق عليها الصحفيُّون على نحوٍ ملائم، على نحوٍ كبير في الصحف، سواءٌ اللندنية أو الإقليمية؛ ولم يكن من الممكن أن تحظى بتغطيةٍ أكثرَ من ذلك — ومع ذلك لم يظهر أحدٌ من معارفه، باستثناءِ مديرِ البنك هذا. إذا كان هناك أيُّ شخص سيظهر، فإن كلام مدير البنك كان سيُصبح بالتأكيد حافزًا للإسراع من ذلك — لأنه كان هناك مبلغُ عشَرة آلافِ جنيه في انتظار أقربِ أقرباء جون برادن. في رأي برايس، فإن فرصةَ تقديمِ مطالبةٍ بالعشَرة الآلاف جنيه لن تُترَك لمدة ثمانٍ وأربعين ساعة — فكلُّ مَن سيرى إمكانية استثمار مثل هذه الفرصة سوف يستخدم التلغراف أو الهاتفَ بنحوٍ فوري. لكن لم تصل حتى الآن أيُّ رسالة من أي شخص يدَّعي علاقته بالرجل الميت إلى شرطة رايتشستر.

عندما أخذ برايس كلَّ شيء في الاعتبار، لم يجد أيَّ دليلٍ أفضلَ في الوقت الحاليِّ من ذلك الذي اقترحه أمبروز كامباني — بارثورب. كان برايس يرى أن أمبروز كامباني، بالإضافة إلى كونه قارئًا نهمًا، رجلٌ فَطِن، وذكي — إنه رجلٌ لديه القدرة على صياغةِ أفكارٍ منطقية ومبتكَرة. كان هناك بالتأكيد الكثيرُ من الوجاهة في اقتراحه بأن الرجل لم يكن من المحتمل أن يشتريَ كتابًا قديمًا عن بلدةٍ صغيرةٍ غيرِ مهمة مثل بارثورب ما لم يكن لديه بعضُ الاهتمام بها — لذا فإن بارثورب، إذا كانت نظريةُ كامباني صحيحةً، هي على الأرجح موطنُ جون برادن الأصلي.

ومن ثَم، يُمكن العثور في بارثورب على معلوماتٍ حول برادن تؤدي إلى معرفة ارتباطِه أو علاقته برانسفورد. صحيحٌ أن شرطة بارثورب قد أعلنَت بالفعل أنها ليس لديها أيُّ معلومات عن برادن، لكن هذا، في رأي برايس، لم يكن ليُثبت أيَّ شيء — حيث توصَّل بالفعل إلى استنتاجٍ مفاده أن برادن كان اسمًا مستعارًا. وإذا ذهب إلى بارثورب، فلن يُزعج الشرطة؛ فهو يعرف أساليبَ أفضلَ من ذلك لاستخلاص المعلومات. فهل سيذهب إلى هناك وهل يستحق الأمر عناءه؟ وقد اتخذ قرارَه بعد التأمُّل للحظة؛ إن أي شيء من شأنه أن يُساعده في إحكام قبضته على مارك رانسفورد يستحق عناءه. ولأنه دائمًا ما كان عمليًّا في أفعاله، فقد ذهب إلى المكتبة العامة، وحصل على أحد المعاجم

الجُغرافية، وبحث عن معلوماتٍ حول بارثورب. ومنها علم أن بارثورب هي مدينة تِجارية قديمة يبلغ عددُ سكانها ألفَي نسمة في شمال ليسترشير، ولا تشتهر بأيِّ شيء سوى أنها كانت ساحةً لمعركةٍ في زمن حروب الوردتَين، وأن اقتصادها كان يقوم بالأساس على الزراعة وصناعة الجوارب — من الواضح أنه مكان عتيقٌ بطيءُ الإيقاع وهادئ.

في تلك الليلة، ملأ برايس حقيبةً بمستلزماتٍ صغيرة تكفي رحلةً لبضعة أيام، وفي صباح اليوم التالي استقلَّ قطارًا مبكرًا إلى لندن، وفي نهاية عصر ذلك اليوم، وجد نفسَه في قطارٍ سريعٍ متجهٍ شمالًا نحو منطقة ميدلاندز، وكان القطار أثناء سيره يجعله يرى مساحاتٍ خضراءَ متموجةً من ليسترشير. وبينما كان قطاره يتوقف لمدة ثلاث دقائق في ليستر نفسِها، جرى تذكيره بالغرض من رحلته فجأةً من خلال سماع أصوات الحمَّالين العالية على الرصيف.

«المحطَّة التالية هي بارثورب! — بارثورب هي المحطَّة التالية!»

استدار أحدُ الرجلَين الآخرَين، اللذين كانا يتَشاركان مقصورةَ تدخينٍ مع برايس، إلى رفيقه عندما انطلق القطارُ مرة أخرى.

وقال: «بارثورب؟» وأضاف: «هذا هو المكان الذي ذُكر في تلك القضية الغريبة للغاية في رايتشستر، التي كُتب عنها في الصُّحف كثيرًا خلال الأيام القليلة الماضية. إنها الخاصةُ بذلك الغريب الغامض الذي أودعَ عشَرة آلافِ جنيه في أحد بنوك لندن، والذي لا يبدو أن أحدًا يعرفُ شيئًا عنه، ولم يكن معه شيء سوى كتابٍ عن تاريخ بارثورب. إنه أمرٌ غريب! ومع ذلك، على الرغم من أنك قد تظنُّ أنه لديه علاقةٌ ما بالمكان، أو أنه يعرفه، فإنهم يقولون إنه لا أحدَ في بارثورب يعرف أيَّ شيء عن أي شخص بهذا الاسم.»

أجاب الرجلُ الآخر: «حسنًا، أنا لا أجد أنَّ هناك شيئًا غريبًا جدًّا في هذا في نهاية الأمر.» وتابع: «فربما اشترى ذلك الكتابَ العتيقَ لأحد الأسباب العديدة التي يُمكن اقتراحها. كلا، لقد قرأت كلَّ شيء عن هذه القضية في الصحف، ولم أهتمَّ كثيرًا بمعلومة الكتاب العتيق. لكن دعني أخبِرْك بأمرٍ ما؛ وهو أن هناك شيئًا استرعى انتباهي. أنا أعرف منطقة بارثورب هذه — التي سنصل إليها في غضون بضع دقائق — وقد زُرتها كثيرًا. لقد وردَ اسم هذا الرجل الغريب في الصحف على أنه جون برادن. ويوجد بالقرب من بارثورب — على بُعد ميلٍ أو ميلَين خارجها — قريةٌ بهذا الاسم؛ برادن ميدوورث. هذه مصادفةٌ غريبة — وبالأخذ في الاعتبار امتلاك الرجل لكتاب عتيق عن بارثورب، ربما يوجد شيء في الأمر — ربما أكثر مما كنتُ أعتقد في البداية.»

قال المتحدث الأول: «حسنًا، إنها قضية غريبة — غريبة جدًّا.» وأردف: «وبما أن هناك عشَرةَ آلاف جنيه في المسألة، فسوف نسمع المزيدَ عنها. سيسعى شخصٌ ما للحصول عليها، تأكَّد من ذلك!»

غادر برايس القطارَ في بارثورب شاكرًا حظَّه السعيد؛ فالرجل الجالس في الزاوية البعيدة قد أعطاه تلميحًا مهمًّا عن غير قصد. لذا كان سيزور برادن ميدوورث — كانت الصدفة مدهشةً للغاية بحيث لا يُمكن إهمالها. لكنه أولًا، كان سيتفقَّد بارثورب نفسَها، وهي مدينة تِجاريةٌ صغيرة غريبة ذاتُ طرازٍ عتيق، حيث كانت بعض المنازل الرئيسية لا تزال أسقفُها مصنوعةً من القش، وحيث ظلت العادة القديمة لدقِّ جرس إطفاء الأنوار ساريةً. وهناك وجد فندقًا عتيقَ الطراز في السوق القريب بشدة من الكنيسة الرعوية، وفي غرفة الطعام الخاصة به والمكسوةِ جدرانُها بألواحٍ من خشب البلوط، التي عُلقت عليها لوحاتٌ لكبار ممارسي رياضة صيد الثعالب ومطبوعات قديمة غريبة لأيام الرياضة والتدريب، تناول العشاء بنحوٍ مريحٍ وجيد.

كان الوقت قد تأخَّر جدًّا لمحاولة إجراء أيِّ تحرٍّ في ذلك المساء، وعندما انتهى برايس من عشائه الهادئ، توجَّه إلى غرفة التدخين — وهي قاعةٌ أقدمُ وأكثرُ روعةً من تلك التي ترَكها للتو. كانت واحدةً من تلك الغرف الموجودة فقط في المنازل العتيقة للغاية؛ غرفة ذات زوايا وأركانٍ متعددة، مع مِدفأة كبيرة مفتوحة، وأثاث قديم ولوحات وتحف قديمة، وهو من نوعية الأماكن التي لا يزال يلتقي فيها التجارُ ذَوو الطراز العتيق من مدنِ الريف الصغيرة لقضاء أمسية، بدلًا من ارتياد النوادي السياسية الحديثة. كان هناك العديدُ من الرجال من هذا النوع في القاعة عندما دخل برايس، الذين كانوا يتحدَّثون عن السياسة المحلية فيما بينهم، ووجد ركنًا هادئًا وجلس فيه للتدخين، مُمنِّيًا نفسه بالحصول على بعض التسلية من الحديث الذي يدور حوله؛ فقد كان من شأنه دائمًا أن يحاول العثورَ على الإثارة والتسلية من أيِّ شيء يُعرَض أمامه. لكنه لم يكن قد استقرَّ على كرسيٍّ مريح ذي وسادة ومسندَين عندما فُتح الباب مرةً أخرى ودخل إلى القاعة سيمبسون هاركر العجوز.

الفصل الثامن

الإشبين

وقعَت عينا هاركر العجوز ذاتا النظرةِ الحصيفة، اللَّتان كانتا تتجولان في الغرفة كما لو كانتا تتفقَّدان الصحبة التي وجد نفسه معها، على الفور تقريبًا على برايس — ولكن ليس قبل أن يُصبح لدى برايس الوقت الكافي لإظهارِ نظرةِ تفاجؤٍ بريئة وحقيقية على وجهه. لم يُبدِ هاركر أيَّ مظاهرَ للتفاجؤ على الإطلاق، لكن بدَت عليه الدهشة التي كان يشعر بها عندما نهض الشابُّ الأصغر منه ودعاه إلى الجلوس على المقعد المريح الذي كان يجلس عليه هو نفسه للتو.

ومن ثَم قال متعجبًا، وهو يومئ برأسه تعبيرًا عن الشكر: «يا إلهي!» وتابع: «لم أكن أتوقَّع على الإطلاق أن ألتقيَ بك في هذه البلدة البعيدة، يا دكتور برايس! إنه مكانٌ بعيد للغاية عن رايتشستر، يا سيدي، كي يتقابلَ فيه سكان رايتشستر.»

رد برايس: «لم أكن أتخيلُ أن أُقابلَك هنا يا سيد هاركر.» وأردف: «لكنه عالَمٌ صغير، كما تعلم، ويحدثُ فيه العديد من الصدف. ولا يوجد شيء يُثير العجب في وجودي هنا، رغم ذلك؛ فقد حضرتُ إلى هنا بحثًا عن عملٍ كطبيب ممارس عام في الريف؛ فقد تركتُ العمل مع دكتور رانسفورد.»

كان قد تمكَّن من اختلاقِ تلك الكَذْبة بمجردِ أن رأى هاركر، وسواءٌ أصدَّقَ الرجل العجوز ذلك أم لا، فهو لم يُظهِر أيَّ علامة على التصديق أو عدمِه. لكنه جلس على الكرسيِّ الذي سحبه برايس للأمام وأخرج علبةَ سيجار قديمةَ الطراز، ودعا رفيقه للتدخين.

وسأله: «هل تُجرب واحدةً يا دكتور؟» وأضاف: «إنه سيجار أصلي، يا سيدي؛ إذ إن لديَّ صديقًا في كوبا يُرسله إليَّ بين الحين والآخر.» وتابع، بعد أن شكَره برايس وأخذ سيجارًا: «كلا، لم أكن أعرفُ أنك قد تركتَ العمل مع الدكتور. لكن هذا مكان هادئ للغاية كي تُمارس عملك فيه، على ما أظن؛ أكثر هدوءًا حتى من مدينتِنا العتيقة الهادئة.»

سأله برايس: «هل تعرف هذه المدينة؟»

أجاب هاركر: «لدي صديق يعيش هنا — صديق قديم.» ثم أضاف: «وأنا آتي لزيارته بين الحين والآخر؛ فأنا هنا منذ الأمس. إنه يقوم ببعض الأعمال التجارية من أجلي. هل ستمكثُ هنا طويلًا، يا دكتور؟»

أجاب برايس: «فقط لأخذ جولة.»

قال هاركر: «أنا سأُغادر صباح الغد؛ في الساعة الحاديةَ عشرة.» وأردف: «إنها رحلة طويلة للغاية إلى رايتشستر، بالنسبة إلى رجلٍ عجوز مثلي.»

قال برايس: «أوه، أنت بصحة جيدة! — فصحتك أفضلُ من الكثير من الرجالِ الأصغرِ سنًّا منك.» وتابع: «وستعيش مدةً أطولَ من الكثير ممَّن هم في مثلِ سنِّك، يا سيد هاركر. حسنًا، نظرًا إلى أنك قد أعطيتَني سيجارًا جيدًا للغاية، فاسمح لي الآن أن أدعوَك لتناول كأسٍ من الويسكي؟ — يكون لديهم بوجه عام شرابٌ من نوعية جيدة جدًّا في هذه الأماكنِ العتيقةِ الطراز، على ما أعتقد.»

جلس المسافران يتحدَّثان حتى وقت النوم — لكن لم يُشِر أيٌّ منهما إلى القضية التي أثارت حماسَ جميعِ سكان رايتشستر مؤخرًا. لكن برايس كان يتساءل طوالَ الوقت عمَّا إذا كانت قصةُ رفيقه عن وجود صديقٍ له في بارثورب ليست أكثرَ من مجرد عذر، وعندما أصبح بمفرده في غرفة نومه الخاصة وفكَّر بجدِّية أكبر، توصَّلَ إلى استنتاجٍ مفاده أن هاركر العجوز كان هنا بصدد أمرٍ ما له صلةٌ بلغز بارادايس.

قال متأملًا: «لقد كان الرجل العجوز في المكتبة عندما قال أمبروز كامباني إن هناك دليلًا في ذلك الكتابِ الخاصِّ بتاريخ بارثورب.» وأردف: «ورأيتُه بنفسي يفحص الكتاب بعد انتهاء جلسة التحقيق. لا، لا، يا سيد هاركر! إن الحقائق واضحةٌ للغاية، والأدلة واضحة للغاية. ومع ذلك لماذا قد يهتمُّ تاجرٌ عجوز متقاعد من رايتشستر بهذه القضية؟ إنني في غاية الفضول لمعرفةِ ما يفعله هاركر حقًّا هنا، ومَن هو صديقه في بارثورب.»

لو كان برايس قد استيقظ في وقتٍ مبكر من صباح اليوم التالي، وتكبَّد عناءَ تتبُّع تحركاتِ هاركر العجوز، لكان قد علم شيئًا يَزيد ريبتَه أكثر. لكن برايس، الذي لم يرَ أيَّ سبب للتعجُّل، رقد في سريره إلى ما بعد الساعة التاسعة، ولم يذهب إلى غرفة الطعام حتى العاشرة والنصف تقريبًا. وفي تلك الساعة، كان سيمبسون هاركر، الذي تناول الإفطار قبل التاسعة، يتشاور عن كثب مع صديقه — ولم يكن هذا الصديق سوى الرئيس المحلي

للشرطة، الذي اجتمع بسريةٍ مع الرجل العجوز في منزله الخاص، حيث ذهب إليه هاركر، بموعد مسبق، بمجرد انتهاء وجبة الإفطار. ولو كان بمقدور برايس الرؤيةُ عبر الجدران أو السماعُ عبر النوافذ، لاندهشَ من اكتشاف أن هاركر في هذا اللقاء لم يكن الرجلَ العجوز الهادئ والطيب والثرثار الذي كان يعرفه في مدينة رايتشستر، ولكنه كان رجلَ أعمالٍ عمليًّا وماديًّا.

كان يختم حديثه، في الوقت نفسِه الذي كان برايس يمضَغُ فيه على مهلٍ قطعةَ لحمِ الضأن الثانيةَ في غرفة الطعام بفندق بيكوك: «والآن بخصوص ذلك الشابِّ الذي يُقيم هناك في فندق بيكوك، إنه يسعى وراء شيءٍ ما — فحديثه عن المجيء إلى هنا بحثًا عن عمل هو محضُ كذب! — وعليك أن تُراقبه أثناء وجودِه في منطقتك. امنَح تلك المهمة في الحال لأفضل مُخبريك الذين يرتدون ملابسَ مدنية — سوف يتعرَّف عليه بسهولة من خلال الوصف الذي قدَّمتُه لك — واطلب منه أن يراقبه كظلِّه أينما ذهب. ثم أخبِرْني بتحركاته — إنه بالتأكيد يسعى وراء شيءٍ ما، وما يفعله قد يكون مفيدًا بالنسبة إليَّ — يمكنني الاستفادة منه في عملي الخاص. وبخصوص المسألة الأخرى، أخبِرني إذا توصلتَ لأي شيءٍ آخر. والآن سأخرج عبر حديقتك إلى الجزء الخلفي من المدينة ثم إلى المحطَّة. بالمناسبة، أبلغني عندما يُغادر هذا الشابُّ المقيم في بيكوك المدينةَ، وأعلِمْني إذا أمكن — ويُمكنك معرفةُ ذلك — إلى أين غادر.»

لم يكن برايس على علمٍ على الإطلاق بأن هناك مَن هو مهتمٌّ بتحركاته عندما تجوَّل في سوق بارثورب بعد الساعة الحادية عشرة تمامًا. لقد سأل سؤالًا عارضًا للنادل وعلم أنَّ الرجل العجوز قد رحل، وبِناءً عليه ظنَّ أنه بعيدٌ عن الملاحظة. وعلى الفور شرع في عمله الاستقصائيِّ بطريقته الخاصة. فهو لم يكن لِيَلفت الانتباهَ إلى نفسه بطرحِ أسئلةٍ على السكان الحاليِّين، الذين قد يُثير فضولَهم عندئذٍ؛ لكنه يعرف طرقًا أفضلَ من ذلك. قال برايس لنفسه إن كل مدينة تحتفظُ بسجلَّات عامةٍ — سجلات أبرشية، وقوائم السكان، وقوائم الناخبين، حتى المدن الصغيرة لديها سجلَّات كاملة إلى حدٍّ ما — ويمكنه البحث في هذه السجلات عن أيِّ ذِكرٍ أو تسجيلٍ لأيِّ شخص أو أيِّ عائلة باسم برادن. ومن ثَم قضى كلَّ ذلك اليومِ في هذا البحث، حيث فحص العديدَ من الوثائق والسجلات والدفاتر، وعندما جاء المساء كانت لديه معرفةٌ كاملةٌ بأسماء العائلات في بارثورب، وكان مستعدًّا للمراهنة على أنه لا يوجد أيُّ شخص يحمل اسم برادن عاش هناك خلال نصفِ القرن الماضي. إذ إنه خلال بحثه لم يُصادف هذا الاسم ولو مرةً واحدة.

كان الرجل الذي قضى يومًا بطيءَ الحركة جدًّا في مراقبة برايس، أثناء زيارته للأماكن العامة المختلفة، حيث أجرى أبحاثَه، يُراقبه أيضًا في صباح اليوم التالي، بينما كان يتناول برايس الإفطارَ في وقتٍ أبكرَ من المعتاد، استعدادًا لأعمال يوم جديد. وتتبَّع طريدته بعيدًا عن المدينة الصغيرة؛ حيث اتجه برايس نحو برادن ميدوورث. وفي رأي برايس، كان الذَّهاب إلى هناك أمرًا غيرَ مُجدٍ، لكن التشابُه بين اسم القرية والرجل الميت في رايتشستر قد يكون له أهميتُه، وقد كانت تقع على بُعد ميلين فقط من بارثورب. وعندما وصل إلى برادن ميدوورث وجدها مكانًا صغيرًا وهادئًا ورائعًا للغاية، به كنيسة قديمة على ضفاف نهرٍ مناسبٍ جدًّا لمحبِّي الصيد بالصنارة. وهناك تابع تكتيكاتِه كما في اليوم السابق، وتوجَّه مباشرة إلى منزل القسِّ، وطلب منه السماحَ له بالبحث في سجلات الأبرشية. فسارع القس، الذي لم يكن لديه اعتراضٌ على تحصيل رسومٍ مقابل ذلك، إلى الامتثال لطلب برايس، واستفسر عن المرحلة الزمنية التي يريد البحثَ خلالها، وهل هناك موضوعُ بحثٍ معين.

أجاب برايس: «لا يوجد موضوعٌ معيَّن، وبخصوص المرحلة فإنها حديثةٌ إلى حدٍّ ما. فالحقيقة هي أنني مهتمٌّ بالأسماء.» وهنا استخدم كذبةً أخرى من كذباته التي يخترعُها بسهولة، فقال: «فأنا أُفكِّر في تأليفِ كتابٍ عن الألقاب الإنجليزية، وأنا الآن أتفقَّد سجلاتِ الأبرشيات في ميدلاندز لهذا الغرض.»

قال القس، وهو يُنزل سِجلًّا من فوق أحد الرفوف: «إذن يُمكنني تسهيلُ مهمتِّك إلى حدٍّ كبير.» وتابع: «لقد نُسِخَت وطُبعت سجلات أبرشيتنا، وها هو المجلد، كل شيء موجودٌ فيه منذ عام ١٥٧٠ إلى ما قبل عشرِ سنوات، وهناك فِهرس كاملٌ تمامًا. هل تُقيم في الجوار، أم في القرية؟»

أجاب برايس، وهو يُشير برأسه من خلال نافذةٍ مفتوحةٍ نحو فندقٍ قديم في الوادي بالأسفل، بالقرب من جسرٍ حجَري قديم: «في الجوار، نعم؛ في القرية، ليس أكثرَ من الوقت الذي سأقضيه حتى موعد الغداء في الفندق هناك.» وأضاف: «هل يمكن أن تُعيرني هذا المجلدَ مدةَ ساعة؟ — وعندئذٍ، إذا رأيتُ أيَّ شيء جديرٍ بالملاحظة في الفهرس، فيُمكنني إلقاءُ نظرة على السجلات الفعلية عندما أُعيد هذا المجلد.»

أجاب القسُّ بأن هذا هو بالضبط ما كان على وشك أن يقترحَه، فأخذ برايس المجلدَ معه. وبينما كان جالسًا في رَدْهة الفندق في انتظار غَدائه، فتح المجلدَ على الفِهرس الذي جُمع بعناية، وأخذ يتصفَّحه بسرعة. وفي الصفحة الثالثة رأى اسم بيوري.

لو كان الرجل الذي تبع برايس من بارثورب إلى برادن ميدوورث موجودًا معه في ردهة الفندق الهادئ، لرأى طريدتَه يجفل، ولسَمِعه يُطلق صيحةَ اندهاشٍ مكتومةً من بين شفتَيه. لكن المطارِد، نظرًا إلى علمه بأن رَجله سيمكث في الرَّدهة مدةَ ساعة، جلس في البار بالخارج يأكل الخبز والجُبن ويشرب الجِعَة، ومن ثَم لم يُشاهد أحدٌ مدى تفاجؤِ برايس. ومع ذلك، فقد فُوجئ جدًّا لدرجةِ أنه حتى لو كان كلُّ سكان رايتشستر موجودين هناك ما كان ليتمكَّن، على الرغم من أنه قد درَّب نفسه على التحكُّم في ردود فعله، من كتمِ الإجفال أو صيحة الاندهاش.

بيوري! اسمٌ غير مألوف لدرجةِ أنه هنا — هنا، في قرية منطقة ميدلاندز البعيدةِ هذه! — يجب أن يكون هناك بعضُ الارتباط مع موضوع بحثه. ومن ثَم برز الاسمُ أمامه، متفوقًا على كل الأسماء الأخرى — بيوري — وبجواره رقم صفحةِ بحثٍ واحدة فقط. فقلَّب المجلدَ إلى الصفحة ٣٨٧ ولديه شعورٌ بأنه على وشك اكتشافٍ مؤكَّد.

وهناك لفتَ محتوى الصفحةِ انتباهَه في الحال، وعلم أنه اكتشف أكثرَ مما كان يأمُل في أيِّ وقتٍ مضى. فقرأه مِرارًا وتَكرارًا، منتشيًا بحظِّه الرائع.

التاسع عشر من يونيو، ١٨٩١. تزوَّج جون بريك، وهو رجلٌ أعزبُ من أبرشيَّة سانت بانكراس، لندن، من ماري بيوري، وهي فتاةٌ عزباءُ من هذه الأبرشية، على يد القَس. والشهود كانوا تشارلز كلايبورن، وسيلينا وومرسلي، ومارك رانسفورد.

قبل اثنين وعِشرين عامًا! إن ماري بيوري التي يعرفها برايس في رايتشستر عمرها نحوُ عشرين عامًا فقط؛ إذن، ماري بيوري العزباءُ هذه التي من بلدة برادن ميدوورث، هي، على الأرجح، والدتُها. لكن جون بريك الذي تزوَّج ماري بيوري هذه مَن يكون؟ مَن سيكون في واقع الأمر، ضحك برايس، سوى جون برادن، الذي لقي حتفَه للتوِّ في رايتشستر بارادايس؟ وهناك اسمُ مارك رانسفورد كشاهد. إذن ما هو الاحتمال التالي؟ أن مارك رانسفورد كان إشبين جون بريك؛ أي إنه هو ماركو المذكور في إعلان صحيفة «ذا تايمز» الأخير، وجون برادن، أو بريك، هو ستيكر المذكورُ في الإعلان نفسِه. إن الأمر واضح! واضحٌ كشمس الظهيرة! ماذا كان يعني كلُّ ذلك، وما الذي يستتبِعه، وما علاقة ذلك بوفاةِ برادن أو بريك؟

وقبل أن يأكل قطعةَ اللحم البقري الباردةَ الموضوعة في طبقه، نسَخ برايس تلك المعلومةَ من السجلِّ المُعاد طباعتُه، واقتنع بأن رانسفورد لم يكن اسمًا معروفًا في تلك القرية؛ فمارك رانسفورد كان الشخصَ الوحيد الذي يحمل هذا الاسمَ في السِّجل. وبعد

أن انتهى من غَدائه، انطلق إلى منزل القسِّ مرة أخرى، عازمًا على الحصول على مزيدٍ من المعلومات، وقبل أن يصل إلى بوابات المنزل لاحظ، بالصدفة، مكانًا كان من المرجَّح أن يحصل فيه على ما يريد أكثرَ من القس — الذي كان شابًّا بعض الشيء. ففي نهاية المنازل القليلة الواقعة بين الفندق والجسر، رأى متجرًا صغيرًا يحمل اسم تشارلز كلايبورن، الذي كان مكتوبًا بالطِّلاء على نحوٍ غير متناسق فوق نافذته المفتوحة. وفي تلك النافذة المفتوحة، جلس رجلٌ عجوز، ذو وجهٍ مبتهج، يُصلح أحذية، وأخذ ينظر في وجه الغريب من خلال نظارته الكبيرة.

رأى برايس فرصةً مُواتية، فاتجه نحوَه وفتح الكتاب وأشار إلى الإدخال الخاصِّ بالزواج.

ثم سأله دون مقدمات: «هل أنت تشارلز كلايبورن المذكورُ في هذا السجل؟»

أجابه صانعُ الأحذية العجوز بحيويَّة، بعد أن ألقى نظرةً نحوه: «هذا أنا، يا سيدي!» ثم أردف: «أجل — بكل تأكيد!»

سأله برايس: «ما قصةُ شهادتك على هذا الزواج؟»

أشار الرجل العجوزُ برأسه نحو الكنيسة على الجانب الآخر من الطريق.

وقال: «لقد أمضيتُ اثنَتَين وثلاثين سنةً، يا سيدي، خادمًا وكاتبًا للأبرشية.» وتابع: «وقد ورِثتُ تلك الوظيفة عن والدي — الذي وَرِثها عن والده.»

سأله برايس، وهو يجلس على المقعد الذي كان صانعُ الأحذية يعمل عليه: «هل تتذكَّر هذا الزواج؟» وأردف: «لقد مرَّ عليه اثنان وعِشرون عامًا، حسَبما أرى.»

أجاب الرجل العجوز وهو يبتسم: «أجل، كما لو كان البارحة!» وتابع: «زواج الآنسة بيوري؟ بالطبع!»

سأله برايس: «مَن كانت؟»

أجاب كلايبورن: «مربِّية في منزل القس.» وأضاف: «لقد كانت سيدةً شابة، لطيفة وحلوة.»

تابع برايس: «والرجل الذي تزوجَته — السيد بريك؟» ثم أضاف: «مَن هو؟»

أجاب كلايبورن، مشيرًا إلى النهر: «شابٌّ اعتاد المجيءَ إلى هنا للصيد بين الحينِ والآخر.» وتابع: «فنحن هنا نشتهرُ بسمك السلمون المرقَّط، كما تعلم، يا سيدي. وقد كان بريك قبل أن يتزوَّجا يأتي إلى هنا مدة ثلاثِ سنوات — هو وصديقه السيد رانسفورد.»

سأله برايس: «هل تتذكَّره هو أيضًا؟»

قال كلايبورن: «أتذكَّر كِلَيهما جيدًا في واقع الأمر، على الرغم من أنني لم أرَ أيًّا منهما بعد أن تزوجَت الآنسة ماري من السيد بريك. لكنني رأيتهما كثيرًا قبل ذلك. لقد اعتادا الإقامة في ذلك الفندق هناك — الذي رأيتُك تخرج منه للتو. كانا يأتيان مرتَين أو ثلاث مرات في السنة، وكانا مقرَّبَين بعض الشيء لقسِّنا في ذلك الوقت — ليس القس الحالي، بل سلفه — وكانا يصعدان إلى منزل القس ويُدخنان الغليون والسيجار معه، وبالطبع، توطَّدَت علاقة السيد بريك والمربية في ذلك الوقت. على الرغم من ذلك، كان البعض يظنُّ أنها سترتبط بالشاب الآخر، السيد رانسفورد، أجل! ولكنها، في نهاية الأمر، ارتبطت ببريك — وكان رانسفورد هو إشبينَه خلال حفل الزواج.»

استوعب برايس كلَّ هذه المعلومات بنهمٍ، وطلب المزيد.

قال وهو ينقر على السجلِّ المفتوح: «أنا مهتمٌّ بهذا الموضوع.» وأردف: «وأعرف بعض الأشخاص الذين يحملون اسم بيوري — ربما هم أقارب.»

هز صانع الأحذية رأسه وكأنه أمرٌ مشكوك فيه.

وقال: «أتذكَّر أنه كان يُقال إن الآنسة ماري ليس لها أقارب. لقد كانت تعمل عند القسِّ العجوز بعضَ الوقت، ولا أتذكر قط أن هناك أيَّ أقارب قد جاءوا لزيارتها، ولا أنها قد ذهبت لزيارة أيٍّ منهم.»

سأله برايس: «هل تعرف أيَّ معلومات عن بريك؟» وأردف: «فحسَبما قلت، كان يأتي إلى هنا كثيرًا قبل الزواج؛ لذا، أفترض أنك سمعتَ شيئًا عن مهنته، أو مجال عمله، أو أيًّا ما كان؟»

أجاب كلايبورن: «لقد كان ذلك الرجل مصرفيًّا.» وأضاف: «مصرفيًّا — ذلك هو عمله، يا سيدي. أما الرجل الآخر، السيد رانسفورد، فكان طبيبًا، وأنا أتذكَّر ذلك جيدًا؛ لأنه ذات مرة عندما كان هو والسيد بريك يصطادان هنا، سقطَت زوجة توماس جوينت من على السُّلم وكُسِرت ساقها، فجلَبوه إليها واستطاع أن يُعالجها قبل أن يُحضروا الطبيب المحلي من بارثورب.»

وهكذا حصل برايس الآن على جميع المعلومات التي يُريدها، وأعطى كاتبَ الأبرشية العجوز إكراميةً صغيرة واستدار ليذهب. ولكنْ خطر سؤالٌ آخر على ذهنه، فعاد إلى المتجر الصغير.

وسأله: «وماذا عن القس السابق؟» وأردف: «ذلك الذي كانت الآنسة بيوري تعمل مربيةً لعائلته — أين هو الآن؟ هل تُوفي؟»

أجاب كلايبورن: «لا أستطيع أن أقولَ ما إذا كان حيًّا أو ميتًا، يا سيدي.» وتابع: «لقد تركَ هذه الأبرشية وانتقل إلى أخرى — وهي توجد في جزءٍ مختلف من إنجلترا — منذ عدة سنوات، ولم أسمع الكثيرَ عنه منذ ذلك الوقت حتى الآن؛ حيث لم يأتِ إلى هنا ولو مرةً واحدة، ولا حتى في زيارة ودية؛ فقد كان رجلًا من نوعٍ غريب. لكني سأخبرك بأمر، يا سيدي ...» كان من الواضح أنه حريصٌ على إعطاء الزائر قيمةً جيدة مقابل الشلنَين ونصف الشلن اللذَين تلقَّاهما منه؛ لذا أضاف: «قسُّنا الحاليُّ لديه سجلٌّ به أسماءُ جميع رجال الدِّين، وهو سيُخبرك بمكانِ سلَفِه الآن، إذا كان على قيد الحياة، واسمه هو المبجَّل الحاصل على درجة الماجستير في الآداب توماس جيلووترز، الذي درس في جامعة أكسفورد وكان مثقفًا للغاية.»

عاد برايس إلى منزل القس، وأعاد المجلدَ المستعار، ثم طلب إلقاءَ نظرةٍ على سجلات عام ١٨٩١. فتحقَّق من الأمر ثم التفتَ إلى القس.

وقال وهو يدفع رسومَ البحث: «لقد اطلعتُ مصادفةً على ذِكرٍ لزواجٍ هناك يُهمني.» ثم أضاف: «لقد رَعاه سلفك، السيد جيلووترز. وسأكون ممتنًّا لمعرفة مكان وجوده. هل تمتلك سجلًّا إكليركيًّا؟»

أخرج القسُّ أحدَ «سجلات كروكفورد الإكليركية»، فقلَّب برايس صفحاته. ووجد أن السيد جيلووترز، من خلال السجل المقدَّم، رجلٌ مسنٌّ قد تقاعدَ الآن، وأنه يعيش في لندن، في بايزووتر، فدوَّن برايس عُنوانه واستعدَّ للمغادرة.

فسأل القس أثناء مغادرة زائره: «هل وجدت أيَّ أسماء تُهمك؟» وأردف: «أيُّ شيء جديرٌ بالملاحظة؟»

أجاب برايس من أسفل سُلم المنزل: «لقد وجدتُ اسمَين أو ثلاثة أسماء تُثير اهتمامي بشدة.» وأردف: «لقد كانت تستحقُّ البحث عنها.»

ودون مزيدٍ من التوضيح، غادر إلى بارثورب وتبِعه على النحو الواجبِ مُراقبُه، الذي رآه يدخلُ بأمانٍ إلى فندق بيكوك بعد ساعة، وبعد ذلك بساعةٍ أخرى، ذهب إلى رئيس الشرطة ليُبلغه بتقريره.

وقال: «لقد رحل، يا سيدي.» وتابع: «لقد غادر في قطار الخامسة والنصف السريعِ المتجهِ إلى لندن.»

الفصل التاسع

منزل صديقه

وجد برايس نفسَه في الساعة الحاديةَ عشرة من صباح اليوم التالي في رَدْهة صغيرةٍ مليئة بالكتب في منزل صغيرٍ يقع في شارعٍ هادئٍ في حي ويستبورن جروف. وقد عُلقت فوق رفِّ الموقد، وسط لوحات وصور فوتوغرافية أخرى، لوحةٌ رُسِمت بالألوان المائية لبرادن ميدوورث، والآن دخل إلى الرَّدهة رجلُ دينٍ عجوزٌ ذو شعر أشيب، اعتبره برايس على الفور القسَّ السابقَ لبرادن ميدوورث، وقد نظر بفضول إلى زائره ثم إلى البطاقة التي أرسلها برايس مع طلب اللقاء.

وقال مستفسرًا: «دكتور برايس؟» وتابع: «دكتور بيمبرتون برايس؟»

انحنى برايس ليُحيِّي الرجلَ بأفضل تحية، وتصرَّف بأكثر أسلوب متملِّقٍ ومهذب للغاية يعرفه.

وقال: «آمُل ألا أتطفَّل على وقتك، يا سيد جيلووترز.» ثم أردف: «الحقيقة هي، أنني قد نُصِحت أمس بمقابلتك، من قِبل القسِّ الحالي لبرادن ميدوورث — هو وكذلك، خادم الكنيسة هناك، كلايبورن، الذي تتذكَّره، بالطبع، يعتقدان أنك ستتمكَّن من إعطائي بعضَ المعلومات فيما يخص موضوعًا له أهمية كبيرة، بالنسبة إليَّ.»

قال السيد جيلووترز وهو يدعو برايس إلى الجلوس، ثم جلس بالقربِ منه: «أنا لا أعرف القسَّ الحاليَّ.» ثم أردف: «أما كلايبورن فأنا، بالطبع، أتذكرُه جيدًا بالفعل؛ لا بد أنه قد أصبح الآن عجوزًا — مثلي! والآن، ما الذي تريد أن تعرفه؟»

أجاب برايس، الذي وضع خُططَه بعنايةٍ وأعدَّ قصته: «سأمنحك ثقتي، يا سيد جيلووترز، وأنا متأكد من أنك أهلٌ لها. لقد أمضيت عامَين في العمل طبيبًا في رايتشستر، وتعرفت هناك على سيدةٍ شابة أرغب بشدة في الزواج منها. وهي ربيبة الرجل الذي عملت مساعدًا له. وأعتقد أنك ستبدأ في إدراكِ سببِ مجيئي إليك عندما أقول إن اسم هذه السيدة الشابَّة هو ماري بيوري.»

جفَل رجلُ الدين العجوزُ، ونظر إلى زائره باهتمامٍ غيرِ عادي. وقبض على ذراع الكرسيِّ وانحنى إلى الأمام.

وقال بصوتٍ منخفض: «ماري بيوري!» وتابع: «ما ... ما اسم الرجل الذي هو وصيُّها؟»

أجاب برايس على الفور: «دكتور مارك رانسفورد.»

اعتدل الرجلُ العجوز في جِلسته مرة أخرى، مع انحناءةٍ طفيفة لرأسه.

وصاح متعجبًا: «يا إلهي!» وأضاف: «مارك رانسفورد! إذن — يجب أن يكون الأمرُ كما كنتُ أخشى وأشتبه!»

لم يردَّ برايس. إذ علم على الفور أنه قد لمس وترًا ما، وكانت طريقته المعتادةُ هي السماحَ للناس بأخذ وقتهم. كان السيد جيلووترز قد غرق بالفعل في شيءٍ يُشبه إلى حدٍّ كبير حلمَ يقظة، فجلس برايس في صمتٍ منتظرًا ومتوقِّعًا منه الحديثَ. وفي النهاية انحنى الرجل العجوز إلى الأمام مرة أخرى، بنوعٍ من الحماس.

وسأل مكررًا سؤالَه الأول: «ما الذي تريد أن تعرفه؟» ثم أضاف: «هل ... هل هناك أيُّ ... أيُّ غموض؟»

أجاب برايس: «أجل!» ثم أردف: «غموضٌ أريد كشفَه، يا سيدي. وأرى أنك يُمكنك مساعدتي، إذا تكرَّمت بذلك. فأنا مقتنعٌ — في الحقيقة، أنا على يقين! — أن هذه الفتاة لا تعرفُ أبوَيها، وأن رانسفورد يُخفي بعض المعلومات، بعض الحقائق عنها، وأنا أريد اكتشاف حقيقة الأمر. وبمحض الصدفة — عرَضًا، في الواقع — اكتشفتُ أمس في برادن ميدوورث أنك منذ حوالي ٢٢ عامًا قد عقدتَ مراسم زواج ماري بيوري، التي، حسَبما علمتُ هناك، كانت تعمل مربيةً في منزلك، من رجل يُدعى جون بريك، وأن مارك رانسفورد كان إشبينَ جون بريك وشاهدًا على الزواج. والآن، يا سيد جيلووترز، فإن التشابُهَ في الأسماء مذهلٌ للغاية بحيث لا يخلو من الأهمية. لذا — إن الأمر ذو أهميةٍ قُصوى بالنسبة إليَّ! — هل يمكن أن تُخبرني مَن كانت ماري بيوري التي زوجتَها لجون بريك؟ ومَن كان جون بريك؟ وما صلة مارك رانسفورد بأيٍّ منهما، أو بكليهما؟»

كان يتساءل، طوال الوقت الذي طرح خلالَه هذه الأسئلةَ، ما إذا كان السيد جيلووترز يجهل تمامًا الأحداثَ الأخيرة التي وقعَت في رايتشستر. قد يكون كذلك؛ فقد أشارت نظرةٌ سريعة من برايس حول غرفته المليئة بالكتب إلى أنه من المرجَّح أن يكون شَغوفًا بقراءة الكتب أكثرَ من كونه قارئًا للصحف، ومن المحتمل جدًّا ألا تَحظى الأحداثُ التي وقعَت

في ذلك اليوم باهتمامٍ كبير من جانبه. وقد أقنعَت كلماتُه الأولى ردًّا على الأسئلة برايس بأنَّ تخمينه صحيح وأن الرجل العجوز لم يقرأ شيئًا عن لُغز رايتشستر بارادايس، الذي ظهر فيه اسمُ رانسفورد بالطبع شاهدًا في جلسة التحقيق.

إذ قال السيد جيلووترز: «لقد مرَّ ما يقرب من عشرين عامًا منذ أن سمعت أيًّا من تلك الأسماء.» وتابع: «ما يقرب من عشرين عامًا — إنه لوقتٌ طويل! لكن، بالطبع، يمكنني الردُّ على أسئلتك. كانت ماري بيوري تعمل لديَّ مربيةً في برادن ميدوورث. وقد جاءت إلينا عندما كانت في التاسعةَ عشرة من عمرها، ثم تزوجَت بعد ذلك بأربع سنوات. وهي فتاةٌ ليس لديها أصدقاء أو أقارب؛ لقد تلقَّت تعليمها في مدرسةٍ في الشمال، وقد اخترتُها للعمل من تلك المدرسة، التي، حسَبما فهمتُ، كانت تعيش فيها منذ طفولتها. والآن دعنا ننتقل للحديث عن بريك ورانسفورد. فقد كانا شابَّين من لندن، اعتادا المجيءَ للصيد في ليسترشير. وكان رانسفورد أصغرَ سنًّا من الآخَر ببضع سنوات، ولقد كان آنذاك إما طالبَ طبٍّ في سنته الأخيرة، أو مساعدَ طبيب في مكانٍ ما في لندن. أما بريك، فقد كان مدير بنك في لندن؛ لقد كان مديرًا لفرع أحد البنوك الكبرى. لقد كانا شابَّين لطيفَين، وكنتُ أدعوهما كثيرًا لزيارتي في منزلي. وفي نهاية المطاف، ارتبطَت ماري بيوري بجون بريك وقرَّرا الزواج. وقد فوجئتُ أنا وزوجتي كثيرًا بذلك؛ إذ كنا نعتقد، إلى حدٍّ ما، أن الرجل المفضَّل بالنسبة إليها هو رانسفورد. لكن رغم ذلك، اتضَح أنه بريك، وهكذا تزوجَت بريك، وكما ذكرتَ أنت، كان رانسفورد هو الإشبين. وبالطبع، أخذ بريك زوجتَه إلى لندن، ومنذ يوم زفافها، لم أرَها مرة أخرى.»

سأله برايس: «هل رأيتَ بريك مرةً أخرى منذ ذلك الحين؟» هز القسُّ العجوز رأسَه بالإيجاب.

وقال في أسًى: «أجل!» وتابع: «لقد رأيتُ بريك مرةً أخرى بالفعل، في ظلِّ ظروفٍ مؤسفة للغاية!»

قال برايس: «هل تُمانع في إخباري بتلك الظروف؟» ثم أضاف: «سأحفظ السرَّ، يا سيد جيلووترز.»

ردَّ الرجل العجوز: «لا يوجد سرٌّ في واقع الأمر بخصوص تلك الظروف.» وأردف: «لقد رأيتُ جون بريك بعد ذلك مرةً واحدة فقط. في زنزانةٍ بأحد السجون!»

صاح برايس متعجبًا: «زنزانة سجن!» وأضاف: «وهل كان سجينًا؟»

أجاب السيد جيلووترز: «كان قد حُكم عليه للتو بالسجن مع الأشغال الشاقَّة لمدة عشْرِ سنوات.» وأضاف: «لقد سمعتُ الحكم؛ إذ كنتُ حاضرًا. وحصلتُ على تصريحٍ بزيارته. عشر سنوات من السجن مع الأشغال الشاقة! — إنها عقوبةٌ رهيبة. لا بد أنه قد أُطلق سراحه منذ مدة طويلة، لكنني لم أسمع قط عن أخباره أكثرَ من ذلك.»

أخذ برايس يتأمَّل الأمرَ في صمتٍ للحظة، وهو يُقدِّر ويحسُب.

ثم سأل: «متى كانت ذلك — أقصد تلك المحاكمة؟»

أجاب السيد جيلووترز: «بعد مرور خمسِ سنوات على الزواج، أي منذ سبعة عشر عامًا.»

سأله برايس: «وماذا كانت جريمته؟»

أجاب الرجل العجوز: «سرقة أموال البنك.» وتابع: «لقد نسيتُ ماذا كانت نوعية المخالفة بالتحديد — الاختلاس، أو شيء من هذا القبيل. لم تكن هناك الكثيرُ من الأدلة، وكان من المستحيل تقديمُ أيِّ دفاع، كما أقرَّ بأنه مذنب. لكنني استنتجتُ مما سمعته أن شيئًا من هذا القبيل حدث. كان بريك مديرَ فرع. وداهمه، حسَبما قيل، أحدُ المفتشين ذات صباح، فوجد أن النقود التي في عُهدته بها عجزٌ بمقدار ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه. ويبدو أن مالكي البنك كانوا صارمين بنحوٍ غيرِ عادي وحتى متشددين، وكان لدى بريك، حسَبما قيل، تفسيرٌ للموقف، لكن لم يُلتفَت إليه واتُّهِم بالجريمة. وكانت العقوبة كما قلتُ للتو قاسيةً للغاية، حسَبما أعتقد. لكن كانت هناك في ذلك الوقت بعض القضايا الشائنة من هذا النوع في عالم البنوك، وأعتقد أن القاضيَ أراد أن يجعل منه عبرة. أجل، إنها قضيةٌ محزنة للغاية! لديَّ تقريرٌ عن القضية في مكانٍ ما، اقتطعتُه من إحدى الصحف اللندنية في ذلك الوقت.»

نهض السيد جيلووترز وتوجَّه إلى مكتبٍ قديم في زاوية غرفته، وبعد قليلٍ من البحث في الأوراق في أحد الأدراج، أخرج سجلًّا لمقتطفات الصحف وبحثَ في صفحاته عن مقتطَفٍ معيَّن. ثم ناول السجل لضيفه.

وقال: «ها هو ذا التقرير.» وأضاف: «يُمكنك قراءته بنفسك. ستُلاحظ أنه فيما قاله محامي بريك دفاعًا عنه، هناك تلميحٌ أو اثنان يتَّسمان بالغرابة والغموضِ حول ما كان يُمكن أن يُقال إذا كان من المفيد أو النافع قولُه. إنها لقضيةٌ غريبة!»

التفتَ برايس بلهفةٍ إلى قُصاصة الصحيفة الباهتة.

قضية اختلاس مدير بنك

في المحكمة الجنائية المركزية يومَ أمس، أقرَّ جون بريك، البالغُ من العمر ثلاثة وثلاثين عامًا، المدير السابق لفرع بنك لندن آند هوم كاونتيز، المحدود، في أبر توتينج، بأنه مذنبٌ فيما يتعلق بالاتهام الموجَّه إليه باختلاس بعض المبالغ، التي هي مِلكٌ لأرباب عمله.

قال السيد ووكينشو، المحامي الشهير، مخاطبًا المحكمة نيابةً عن المتهم، إنه رغم استحالة تقديم أيِّ دفاع من جانب موكله، فإن هناك ملابساتٍ في القضية، لو أمكن كشفُها للمحكمة، لأظهَرَت أن المتهَم رجلٌ مظلوم ومخدوع. وباستعارةِ عبارةٍ من الكتاب المقدَّس، لقد جُرح بريك في منزل صديقه. وأضاف أن الرجل الذي كان مذنبًا حقًّا في هذه القضية قد أفلتَ بذكاءٍ من كل العواقب، ولن يكون من المفيد الدخولُ في أيِّ تفاصيل تخصُّه. وذكر أن المتهم لم يستخدم بنسًا واحدًا من المالِ المذكورِ لأغراضه الخاصة. وأضاف أن لا شك في أن ما فعله موكله كان خطأً وغيرَ لائق، وقد أقرَّ بأنه مذنبٌ وبأنه سيتحمَّل العواقب. ولكن إذا كان من الممكن ذِكرُ كلِّ ما له صلةٌ بالقضية، وإذا كان ذكره سيكون مفيدًا، فسيمكن إدراكُ أن ما اعتُبر المتهَم مذنبًا بسببه ما هو إلا خطأٌ أحمقُ وخطير في الحكم على الأمور. واختتم المحامي الخبيرُ مرافعتَه، بأنه سيذهب إلى حدِّ القول، مع العلم بما فعَله موكله، ومع العلم بما قاله له على انفراد، بأن المتهَم، على الرغم من أنه مذنبٌ من الناحية الفنية، فهو بريءٌ من الناحية الأخلاقية.

وقد حكم سيادة القاضي، بعد الإشارة إلى أنه لا يمكن تقديمُ أيِّ عذر من أي نوعٍ في قضيةٍ من هذا النوع، على المتهم بالسجن لمدةِ عشر سنوات مع الأشغال الشاقة.

قرأ برايس هذا التقريرَ مرتَين قبل إعادة السجل.

ثم قال: «إنها قضيةٌ غريبة وغامضة للغاية، يا سيد جيلووترز.» وأضاف: «لكنك قلتَ إنك قابلتَ بريك بعد انتهاء المحاكمة. فهل علمت منه أيَّ شيء؟»

أجاب رجلُ الدين العجوز: «لا شيء على الإطلاق!» وتابع: «لقد حصلتُ على تصريحٍ لمقابلته قبل أن يُؤخَذ إلى السجن. ولم يبدُ مسرورًا أو ميالًا لمقابلتي. وقد رجَوتُه أن يُخبرني بالحقيقة الفعلية. لكنه كان، على ما أظن، مذهولًا بعضَ الشيء بسبب العقوبة التي وقعت عليه، كما كان أيضًا متجهِّمًا وكئيبًا. وقد سألتُه عن مكانِ زوجته وطفلَيه،

اللذين كان أحدهما مجردَ رضيع. إذ كنتُ قد ذهبت بالفعل إلى منزله ووجدتُ أن السيدة بريك قد باعت كلَّ الأثاث واختفت — تمامًا. لا أحد — في الجوار، على أي حال — كان يعرفُ مكانها، أو بمقدوره أن يُخبرني بأي شيء. وقد رفضَ هو الإجابةَ عن سؤالي هذا. وبعد أن ضغَطتُ عليه قال أخيرًا إنه كان يقول الحقيقة فقط عندما أجاب بأنه لا يعرف مكانَ زوجته. فقلت إنني يجب أن أعثرَ عليها. إلا أنه طلب مني عدمَ القيام بأيِّ محاولة. عندئذٍ رجَوتُه أن يُخبرني إن كانت موجودةً مع بعض الأصدقاء. أتذكَّر جيدًا ردَّه عليَّ. إذ قال بحزم: «لن أقول كلمةً واحدة أخرى لأيِّ رجل على وجه الأرض، يا سيد جيلووترز.» واختتم حديثه قائلًا: «سأُصبح ميتًا أمام العالم — فقط لأنني كنتُ أحمقَ منحَ ثقته لمن لا يستحق! — مدةَ عشر سنوات أو ما يقرب من ذلك، لكن عندما أعود إليه، سأجعل الجميعَ يُدركون معنى الانتقام! هيا اذهب!» وأردف: «لن أقولَ كلمة أخرى.» ومِن ثَم، تركتُه.»

سأل برايس: «ألم تُجْرِ المزيد من التحريات؟ — عن الزوجة؟»

أجاب السيد جيلووترز: «لقد فعلتُ ما بوُسعي.» وتابع: «لقد أجريت بعض التحرِّيات في الحي الذي كانوا يعيشون فيه. كل ما استطعت اكتشافَه هو أن السيدة بريك قد اختفت في ظلِّ ظروفٍ غامضة للغاية. لم يكن هناك أيُّ أثر لها. وسرعان ما اكتشفت أن هناك أشياءَ تُقال — الشكوك القاسية المعتادة، كما تعلم.»

سأله برايس: «مثل ماذا؟»

أجاب السيد جيلووترز: «كان يُقال إن كمية الاختلاسات كانت أكبرَ بكثيرٍ مما هو مُعلَن.» وأردف: «وإن بريك كان محتالًا ذكيًّا للغاية حيث استطاع تهريبَ الأموال بأمانٍ إلى مكانٍ ما بالخارج، وإن زوجته قد سافرت إلى مكانٍ ما — أستراليا، أو كندا، أو منطقة أخرى بعيدة — في انتظار إطلاق سَراحه. بالطبع، أنا لم أُصدِّق كلمةً واحدة من كل ذلك. ولكن ظلَّت هناك حقيقةٌ واحدة؛ وهي أنها قد اختفت! وفي النهاية، فكَّرت في رانسفورد، على أساس أنه صديقُ بريك المقرَّب؛ لذا حاولتُ العثور عليه. واكتشفت أنه أيضًا — والذي كان حتى ذلك الوقت يعمل طبيبًا ممارسًا في إحدى ضواحي لندن؛ ستريتام — قد اختفى. فبعد إلقاءِ القبض على بريك مباشرةً، باع رانسفورد عيادته فجأةً وغادر، لم يعرف أحدٌ إلى أين، لكن كان يُعتقَد إلى خارج البلاد. لم أستطِع إيجاده، على أيِّ حال. وبعد ذلك بمدة وجيزة عانيتُ مرضًا طويلًا، وأصبحت عاجزًا عن الحركة مدة عامَين أو ثلاثة، وانتهى الأمر، وكما قلتُ قبل قليل، لم أسمع أيَّ شيء عن أيٍّ منهم طوال تلك السنوات. والآن، إنك تُخبرني أن هناك ماري بيوري التي هي ربيبة دكتور مارك رانسفورد في ... أين قلت؟»

أجاب برايس: «في رايتشستر.» وأضاف: «وهي فتاةٌ في العشرين من عمرها، ولها أخٌ، يُدعى ريتشارد، عمره بين السابعة عشرة والثامنة عشرة.»

صاح الرجل العجوز: «دونَ شكٍّ هذان طفلا بريك!» وأردف: «الرضيع الذي أخبرتُك عنه كان ذكرًا. يا إلهي! — إنه لأمر غريب. منذ متى وهم يعيشون في رايتشستر؟»

أجاب برايس: «إن رانسفورد يعمل طبيبًا هناك منذ سنوات — بضع سنوات.» وأضاف: «وقد انضمَّ هذان الشابان إليه هناك قبلَ عامين. ولكن ممَّا علمتُه، فقد أصبح وصيًّا عليهما منذ أن كانا طفلَين.»

سأله السيد جيلووترز: «وماذا عن والدتهما؟»

أجاب برايس: «قيل إنها ميتة — منذ زمنٍ طويل.» وتابع: «ووالدهما أيضًا. وهما لا يعرفان شيئًا. ولن يُخبرهما رانسفورد بأي شيء. ولكن، كما تقول — أنا شخصيًّا ليس لديَّ شك في ذلك الآن — من المؤكد أنهما ابنا جون بريك.»

قال الرجل العجوز: «وقد اتخذا اسمَ عائلة والدتهما!»

قال برايس: «بل فُرِض عليهما.» وأضاف: «إنهما لا يعرفان أنه ليس لقَبَهما الحقيقي. بالطبع، رانسفورد قد فرَضه عليهما! لكن الآن، ماذا عن الأم؟»

قال السيد جيلووترز: «أوه، أجل، الأم!» وأردف: «مربيتنا القديمة! يا للمسكينة!»

تابع برايس، وهو يَميل مقتربًا أكثرَ من القس ويتحدَّثُ بنبرةٍ منخفضة وسرِّية: «سوف أطرح عليك سؤالًا.» وأردف: «لا بد أنك رجلٌ ذو خبرة كبيرة، يا سيد جيلووترز — فالرجال في مهنتك خبراءُ بأحوال الدنيا، والطبيعة البشرية، أيضًا. استحضِر في ذهنك كلَّ الظروف الغامضة، والتلميحات المستترة لتلك المحاكمة. هل تعتقد — هل فكرتَ يومًا — أن الصديق المزيف الذي أشار إليه المحامي هو رانسفورد؟ استخدِم المنطق!»

رفع القس العجوز يدَيه وتركهما يسقطان على ركبتيه.

ثم صاح: «أنا لا أدري ماذا أقول!» وأردف: «لكن لأقولَ لك الحقيقة، كثيرًا ما كنتُ أتساءل عما إذا ... إذا كان هذا هو ما حدثَ بالفعل. فهناك حقيقةٌ أن زوجة بريك قد اختفَت اختفاءً غامضًا، وأن رانسفورد قد اختفى بالمثل في الوقت نفسه تقريبًا، وأن من الواضح أن بريك كان يُعاني كراهيةً شديدة ومريرة عندما رأيتُه بعد المحاكمة — كراهية لشخصٍ ما قرَّر أن ينتقم منه بعد الخروج من السجن — كما أن محاميَه ألمح إلى أنه قد خُدع وتعرَّض للخيانة من أحد الأصدقاء. والآن، على حدِّ علمي، كان هو ورانسفورد أقربَ الأصدقاء — فيما مضى، قبل أن يتزوج بريك من مربيتنا. وأفترض أن الصداقة قد

استمرت — حيث اختار بريك أن يكونَ رانسفورد إشبينًا له في حفل الزفاف! ولكن كيف يُمكن تفسير ذلك الاختفاء المزدوج الغريب؟»

كان برايس قد وضَع بالفعل تفسيرًا لذلك، في عقله. والآن، بعد أن حصل على كلِّ ما يُريد من معلوماتٍ من رجل الدين العجوز، نهض من أجل المغادرة.

ثم قال: «أعتقد أنك ستعتبرُ هذه المقابلة ذاتَ طبيعة سريةٍ للغاية، يا سيد جيلووترز، أليس كذلك؟»

أجاب الرجل العجوز: «بالتأكيد!» وتابع: «لكنك ذكرتَ أنك ترغب في الزواج من الابنة، أليس كذلك؟ والآن بعد أن علمت بماضي والدها — لأني أصبحتُ متأكدًا من أنها ابنة جون بريك — أظن أنك عدَلتَ عن رأيك، أليس كذلك؟»

أجاب برايس، مُظهِرًا بعضَ النبل: «لم أعدِلْ ولو لحظة!» وأضاف: «أنا لستُ رجلًا بهذه الأخلاق، يا سيدي. كلا! — لقد كنتُ أرغب فقط في استيضاح بعض الأمور، وأرجو أن تكون قد فهمتَ ذلك.»

سأله السيد جيلووترز بقلق: «وبما أنها على ما يبدو — مما تقوله — تجهل ماضيَ والدها الحقيقيَّ — فماذا إذن؟ هل ســ...»

أجاب برايس: «لن أفعل أيَّ شيء على نحوٍ متسرع.» ثم أضاف: «ثِقْ في أني سأُراعي مشاعرها في كل شيء. وبما أنك كنتَ متعاطفًا للغاية، سأخبرك، لاحقًا، كيف سارت الأمور.»

كانت هذه إحدى كذباتِ بيمبرتون برايس الجاهزةَ. إذ لم يكن لديه أيُّ نية لرؤية أو التواصل مع القس السابق لبرادن ميدوورث مرةً أخرى؛ لقد أخذ من السيد جيلووترز كلَّ ما يريد في الوقت الحاليِّ وانتهى الأمر. ومن ثَم غادر بايزووتر، وبعد ساعة، غادر لندن، وهو راضٍ للغاية. وقد كان يعتقد أن مارك رانسفورد، قبل سبعةَ عشر عامًا، قد استغل مصائبَ صديقه ليهرب مع زوجته، وعندما ظهر بريك، باسمٍ مستعار هو برادن، بنحوٍ غيرِ متوقَّع في رايتشستر، أضاف إلى خطيئته السابقة خطيئةً أكبر بكثير.

الفصل العاشر

دبلوماسية

عاد برايس إلى رايتشستر مقتنعًا بشدةٍ أن مارك رانسفورد قد قتَل جون برادن. وقد قدَّر الأمور على طريقته الخاصة. من المؤكد أنه قد انقضَت بعضُ السنوات منذ إطلاق سراح برادن، أو على وجه الدقة بريك. وربما كان قد سمع، بعد إطلاق سراحِه، أن رانسفورد وزوجتَه، زوجة بريك، قد سافرا إلى الخارج — وفي هذه الحالة كان سيتتبَّع أثرَهما بالتأكيد. وربما فقد كلَّ أثر لهما؛ أو ربما فقد اهتمامَه الأصليَّ بمُخططاته الأولى للانتقام، أو ربما يكون قد بدأ حياةً جديدة لنفسه في أستراليا، التي عاد منها بلا شكٍّ إلى إنجلترا مؤخرًا. لكنه عاد، في نهاية المطاف، ومن الواضح أنه تعقَّب أثر رانسفورد ووجده يعيش في رايتشستر — إذ لماذا، بخلاف ذلك، قد أتى ليسأل عن رانسفورد في ذلك الصباحِ الحافل بالأحداث الذي شهد وفاته؟ لا شيء، في رأي برايس، يُمكن أن يكون أوضحَ من هذا التفسير للأحداث. لقد ظهر بريك على نحوٍ مفاجئ. والتقى هو ورانسفورد — غالبًا في محيط الكاتدرائية. وعلى الأرجح حثَّ رانسفورد، الذي كان يعرف كلَّ الزوايا الهادئة للمكان العتيق، بريك على الصعود إلى المقصورة معه، ولاحظ المدخلَ المفتوح، فألقى بريك من خلاله. وهكذا تُشير جميع الحقائق إلى هذا الاستنتاج — إنها نظرية، بحسَب تصوُّر برايس حتى الآن، مثالية. من المؤكد أنها كافيةٌ — ومثبتة — لوضع رانسفورد في قفص الاتهام. فكَّر برايس فيها في ذهنه مِرارًا وتَكرارًا وهو يُسارع عائدًا إلى رايتشستر — حيث تخيَّل الشرطةَ وهي تستمع باهتمامٍ بالغ إلى كلِّ ما يُمكن أن يخبرهم به إن أراد. كان هناك عاملٌ واحد فقط في مجموع القضية بدا ضدَّ نظريته — وهو الإعلان في صحيفة «ذا تايمز». إذا أراد بريك العثورَ على رانسفورد كي ينتقمَ منه، فلماذا نشر هذا الإعلان، كما لو كان يتوق إلى مقابلةِ صديقٍ عزيزٍ مرةً أخرى؟ لكن برايس بكل سرور تغلَّب على تلك العقبة — فنظرًا إلى أنه هو نفسه كان بارعًا في كافة أشكال المناورات والحِيَل،

كان مستعدًّا دومًا لأن يُقدِّر ما يقوم به الآخرون من حِيَل، وقد اعتبر الإعلانَ حيلةً ذكية لجذب، ليس رانسفورد، ولكن أي شخص يُمكنه تقديم معلومات حول رانسفورد. ومهما كان المعنى الدقيقُ للإعلان، فإن وجوده لم يُحدِث فرقًا في رأي برايس الراسخ بأن مارك رانسفورد هو الذي ألقى جون بريك أسفل سلَّم سانت رايثا وقتلَه. لقد كان واثقًا من ذلك بقدْر ما كان متأكدًا من أن برادن هو بريك. وقرَّر ألا يُخبر الشرطة باكتشافاته — فهو ما كان سيُخبر أحدًا. إن الشيء الوحيد الذي كان يَشغله هو تحديد أفضل السبل للاستفادة مما توصَّل إليه بهدف التمكُّن من الزواج بربيبة مارك رانسفورد. فهو قد عقد العزمَ على فِعل ذلك منذ عامٍ مضى، وهو رجلٌ لا يمكن لشيء أن يَثْنيَه عن تحقيق هدفه. وعبر وسائل شريفة، أو غير شريفة — لقد تجاهل هو نفسُه الكلمةَ الأخيرة واستبدل بها كلمة بارعة — قرَّر أن يَحصل على ماري بيوري.

لم تكن ماري بيوري نفسُها تُفكِّر في برايس مطلقًا عندما، في صباح اليوم التالي لعودة ذلك الشخص البارع إلى رايتشستر، ذهبت بمفردها إلى نادي رايتشستر للجولف. لقد كان من عادتها الذَّهابُ إلى هناك كلَّ يوم تقريبًا، وكان برايس على دراية جيدة بتحركاتها ويعرف بالضبط أين يترصَّد لها. وعلى الرغم من أنها لم تكن تُفكر في برايس مطلقًا، فإنها لم تتفاجأ عندما، في مكانٍ منعزل في الأرض المشاع رايتشستر كومن، خرج برايس من وراء إحدى الأيكات وقابلَها وجهًا لوجه.

كانت ماري ستمرُّ دون أن تُعيره أكثرَ من نظرة صامتة — حيث كانت قد قرَّرت ألا تتحدَّثَ مطلقًا مع مساعد وصيِّها المفصول. لكن كان عليها أن تمرَّ عبر بوابة صغيرة في ذلك المكان، بينما حجب برايس عنها الطريقَ بهدفٍ لا لبس فيه. كان من الواضح للفتاة أنه ينتظرُها. وقد عكَّر ذلك من صفوها، وفجأةً قررت التعبير عن ذلك بتوبيخ مهاجمها.

قالت بحدَّة، وقد احمرَّ وجهها بفعل الغضب: «هل تعتبر هذا تصرفًا يتَّسمُ بالرجولة، يا دكتور برايس؟» وأردفَت: «أن تترصَّد لي هنا، بينما تعلم أنني لا أريد أن أتعامل معك مطلقًا. اسمح لي بالمرور، من فضلك — وابتعد!»

لكن برايس أبقى إحدى يدَيه على البوابة الصغيرة، وعندما تحدَّث كان هناك شيءٌ في صوته جعل الفتاة تستمع رغمًا عنها.

إذ قال بسرعة: «أنا لستُ هنا في أمرٍ يخصُّني.» وأضاف: «أؤكد لكِ أني لن أقولَ شيئًا يُسيء إليكِ. صحيحٌ أنني انتظرتك هنا — فهذا هو المكان الوحيد الذي اعتقدتُ أنه يمكنني مقابلتكِ فيه، على انفراد. أنا أريد أن أتحدَّثَ معكِ. والأمر هو: هل تعرفين أن وصيَّك في خطر؟»

كان لدى برايس موهبةُ الإقناع — حيث يُمكنه إقناع الناس، ضدَّ غرائزهم، وحتى ضد إرادتهم، بأنه يقولُ الحقيقة. وقد صدقَته ماري، بعد نظرة خاطفة.

ومن ثَم سألته: «أيُّ خطر؟» وتابعت: «وإذا كان كذلك، وإذا كنتَ تعلم أنه كذلك، فلماذا لا تذهب إليه مباشرة؟»

رد برايس: «سيُصبح هذا أكثرَ شيء خاطئٍ في العالم يمكن فعلُه!» ثم أضاف: «أنت تعرفينه — يمكن أن يصبح عدائيًّا. هذا من شأنه أن يُصعِّد الأمور ويُحوِّلها إلى أزمة. ومن أجل مصلحته، يجب ألَّا يحدث هذا.»

قالت ماري: «أنا لا أفهمك.»

انحنى برايس بالقرب منها — عبر البوابة.

وقال بصوتٍ منخفض: «أنت تعرفين ما حدث الأسبوع الماضي.» وأردف: «الموتُ الغامض لذلك الرجل — برادن.»

سألت وعلى وجهها نظرةٌ مفاجئة تنمُّ عن عدم الارتياح: «حسنًا؟» ثم أضافت: «ماذا في ذلك؟»

أجاب برايس: «يُشاع في المدينة أن لدكتور رانسفورد علاقةً بهذه القضية.» ثم أردف: «هذا أمر غيرُ سارٍّ — ومؤسفٌ — لكنه حقيقة.»

صاحت ماري في تعجُّب وقد اكفهرَّ وجهها: «مستحيل!» ثم أردفت: «ماذا يمكن أن تكون صِلتُه بالأمر؟ وما السبب في ظهور مثل هذه الشائعات الحمقاء الشريرة؟»

قال برايس: «أنت تعلمين مثلما أعلمُ كيف يتحدَّث الناس، وكيف سيتحدَّثون.» وتابع: «لا يُمكنكِ منعُهم، في مكانٍ مثل رايتشستر، حيث الجميع يعرف بعضُهم البعض. هناك غموضٌ يحيط بوفاة برادن — لا فائدة من إنكاره. لا أحد يعرف مَن كان، ومن أين أتى، ولماذا أتى. وهناك تلميحٌ — أنا فقط أُخبرك بما جمعتُه من معلومات — بأن دكتور رانسفورد يعرف أكثرَ مما قاله. أخشى أن هناك أساسًا لما يقولونه.»

قالت ماري بحدَّة: «أيُّ أساس؟» وبينما كان برايس يتحدَّث، بطريقته المعتادة البطيئة والحَذِرة، كانت هي تُفكر — وتتذكَّر اضطرابَ رانسفورد الواضحَ في وقت حادثة باراديس، وارتياحه عندما انتهت جلسة التحقيق وإرساله لها بالزهور إلى قبر الرجل الميت، وبدأت تشعرُ بعدم الارتياح وحتى الخوف. ثم أضافت: «ما الأساس الذي يمكن أن يوجد بخصوصِ هذا الأمر؟» وأردفَت: «لم يكن دكتور رانسفورد يعرف ذلك الرجل — ولم يرَه قط!»

أجاب برايس: «هذا غيرُ مؤكد.» وتابع: «لقد قيل — وتذكَّري، أنني أكرِّر الأشياء فقط — لقد قيل إن دكتور رانسفورد، قبل اكتشاف الجثة مباشرة، قد شُوهد — شُوهد، ضَعِي في اعتبارك ذلك! — يُغادر الرواق الغربي للكاتدرائية، وبدا كأنه كان منزعجًا جدًّا. لقد رأى شخصان ذلك.»

سألَته ماري: «مَن هما؟»

قال برايس، الذي لم تكن لديه نيةٌ لإبلاغها أن أحدهما هو نفسُه والآخر شخصٌ متخيَّل: «غير مسموح لي أن أُخبرَكِ بهذا.» وأضاف: «لكن يُمكنني أن أؤكد لك أنني على ثقةٍ — ثقة تامة! — بأن روايتَهما صحيحة. والحقيقة هي أنني يمكن أن أؤكِّدها.»

صاحت متعجبةً: «أنت!»

رد برايس: «أنا!» ثم أضاف: «أنا سأخبرك بشيء لم أخبِر به أيَّ شخص — حتى الآن. لن أطلب منك احترامَ سرِّي — فأنا أثق بك بدرجةٍ كافية لأعلمَ أنك ستفعلين ذلك، دون أيِّ طلب من جانبي. اسمعي! في ذلك الصباح، خرج دكتور رانسفورد من العيادة باتجاهِ مقرِّ العميد، وتركني هناك بمفردي. وبعد بضعِ دقائق، سمعتُ طرقًا على الباب. ففتحته — ووجدتُ رجلًا يقف في الخارج!»

سألَت ماري بخوف: «هل كان ذلك الرجل؟»

أجاب برايس: «أجل، كان ذلك الرجل — برادن.» ثم أضاف: «لقد سأل عن دكتور رانسفورد. فقلت إنه خرجَ — وسألتُه عن اسمه حتى أُخبر الدكتور به عندما يعود. فقال لا داعيَ لذلك — وإنه قد جاء لزيارته لأنه كان يعرفُه قبل سنوات. وأضاف أنه سيعاود زيارتَه مرةً أخرى، ثم غادر العيادة — واتجه عبر كلوس نحو الكاتدرائية. ثم رأيته مرةً أخرى — بعد مدة ليست بالطويلة — ممدَّدًا في أحد أركان بارادايس — وقد فارق الحياة!»

عند سماع ذلك شحبَ وجهُ ماري بيوري وأخذت ترتجف — وواصل برايس النظرَ إليها بثبات. واختلست هي نظرةً خفيَّة نحوه.

وسألَت بصوت هامس: «لماذا لم تقُل كلَّ هذا في جلسة التحقيق؟»

أجاب برايس على الفور: «لأنني كنتُ أعرف أن ذلك سيكون وبالًا — على رانسفورد.» وتابع: «وسيُثير الشك. وكنتُ متأكدًا من أنه لا أحد سِواي يعرف أن برادن قد جاء إلى العيادة — لذلك، ظننتُ أنني إذا التزمتُ الصمت، فلن يعرف أحدٌ قط بزيارته. لكني بعد ذلك اكتشفتُ أنني مخطئ. حيث شُوهد برادن وهو يُغادر عيادة دكتور رانسفورد.»

سألت ماري: «مَن الذي شاهده؟»

أجاب برايس: «السيدة ديرامور — في المنزل المجاور.» وأضاف: «تصادف أنها كانت تنظر من إحدى النوافذِ العُلوية. ورأته يُغادر ويسير عبر كلوس.»

قالت ماري بحدَّة؛ إذ كانت تعرف عن السيدة ديرامور حُبَّها للنميمة: «هل أخبرَتك بذلك؟»

قال برايس: «لا، لم تفعل!» وأردف: «لكنها أخبرت السيدة فوليوت — والسيدة فوليوت أخبرتني.»

صاحت ماري في تعجُّب: «إذن، لقد كان الأمر مادةً للنميمة!»

قال برايس موافقًا: «لقد قلتُ ذلك.» وأردف: «أنتِ تعرفين لسان السيدة فوليوت.»

قالت ماري: «إذن سيصلُ الأمر إلى مسامعِ دكتور رانسفورد.»

رد برايس مؤكدًا: «سيُصبح آخِرَ مَن يصل الأمرُ إلى مسامعه.» ثم أضاف: «إن الحديث عن هذه الأشياء يدور في الخفاء، وقتًا طويلًا قبل أن يصل إلى آذان الشخص الذي تخصُّه بشكل رئيسي.»

ترددَت ماري لحظةً قبل أن تسأل سؤالها التالي.

لكنها في النهاية سألته: «لماذا أخبرتَني بكل هذا؟»

أجاب برايس: «لأنني لم أُرِد أن تتفاجَئي.» وتابع: «هذا الأمر — أيًّا كانت حقيقته — قد ينتهي بنهايةٍ مفاجئة — من نوعٍ غير سارٍّ. لقد انتشرَت هذه الشائعات ولا تزال الشرطةُ تسعى حثيثًا لاكتشافِ أيِّ أمورٍ ذاتِ صلةٍ بهذا الرجل الميت. فإذا نما إلى علْمهم أن دكتور رانسفورد كان يعرفه ...»

وضعَت ماري يدها على البوابة فيما بينهما — ففتحها برايس، الذي فعَل كلَّ ما أراد أن يفعله في ذلك الوقت، على الفور، ومرَّت من جانبه.

ثم قالت: «أنا ممتنَّة لك كثيرًا.» وأردفَت: «لا أعرف ما الذي يعنيه كلُّ هذا — ولكن هذا شأن دكتور رانسفورد — إذا كان هناك أيُّ شأن له بالقضية، وهو ما أشك فيه. هل تسمح لي بالذَّهاب الآن، من فضلك؟»

وقف برايس جانبًا ورفع قبَّعته، وسارت ماري، بدون أكثرَ من إيماءة، نحو نادي الجولف عبر رايتشستر كومن، بينما استدار برايس عائدًا إلى المدينة، مبتهجًا للغاية بما فعله هذا الصباح. إذ زرَع بذور القلق والشكِّ — وهو يعرف، أنَّ بعضها سينمو.

لم تلعب ماري بيوري الجولفَ في ذلك الصباح. في الواقع، ذهبت فقط إلى النادي لتُخلِّص نفسها من برايس، ثم رحلَت على الفور باتجاه المنزل، وهي تُفكر. وبالفعل، قالت

لنفسها إنه كان لديها الكثيرُ لتُفكر فيه. ونظرًا إلى أنها ذاتُ طبيعة صريحة وصادقة، لم تشكَّ في نية برايس في ذلك الوقت؛ وبقدرِ ما كان لا يُعجبها في معظم النواحي، كانت تعرف أن لديه بعضَ الصفات الجديرة بالثناء، وكانت تميل إلى تصديقه عندما قال إنه قد التزمَ الصمت لدرءِ العواقب التي ربما تكون غيرَ سارة بالنسبة إليها بشكلٍ غير مباشر. لكنها لم تُفكر كثيرًا فيه وفي أخباره — ما شغَل عقلها هو الصلةُ المحتملة بين الغريب الذي ظهر فجأةً واختفى فجأة — وإلى الأبد! — وبين مارك رانسفورد. هل كان من الممكن — حقًّا — أنهما قد تقابَلا في أو حول محيطِ الكاتدرائية في ذلك الصباح؟ لقد عرَفَت، بعد لحظةٍ من التفكير، أنه أمرٌ ممكن للغاية — لِمَ لا؟ ومن هذا المنطلق اتبعَت أفكارُها اتجاهًا طبيعيًّا — هل يرتبط الغموض المحيط بهذا الرجل بأي شكلٍ من الأشكال بالغموض الذي يحيط بها وبشقيقها؟ — ذلك الغموض الذي (كما بدا لها) كان رانسفورد يخجلُ بشدةٍ من التحدُّث عنه. ومرة أخرى — وللمرة المائة — سألَت نفسها لماذا كان متحفظًا للغاية، ومن الواضح أنه مملوءٌ بالكراهية للموضوع، ولماذا لم يستطِع إخبارَها هي وديك بكلِّ ما يمكن قولُه عنه، على نحوٍ واضح؟

كان عليها المرورُ من أمام منزل عائلة فوليوت في الزاوية البعيدة من كلوس في طريقها إلى المنزل — وهو قصر عتيق رائع يقع وسط حديقة حسنة التنسيق، ومحاط بجدار مرتفع من الطوب الأحمر القديم. كان يوجد في هذا الجدار بابٌ مفتوح، وبالداخل كان يقف السيد فوليوت، وقد أخذ يتحدَّث إلى بستانيٍّ ممن يعملون لديه — كانت المناظر خلفه مبهجةً مليئة بالورود، وغنيةً بالزهور التي قضى عمره كلَّه في زراعتها. رأى ماري وهي تمرُّ أمام الباب المفتوح، فنادى عليها كي تعود.

وقال: «ادخلي وألقي نظرةً على بعض الزهور الجديدة التي حصلتُ عليها.» ثم أضاف: «إنها جميلة! سأُعطيك حَفنةً منها لتأخذيها معكِ إلى المنزل.»

كانت ماري تُحب السيد فوليوت كثيرًا. وقد كان هو رجلًا ضخمًا، عيناه شِبه مغمَضتَين، قليل الكلام ولا يتحدَّث عن شيء تقريبًا غير هوايته. إذ كان محبًّا بشدةٍ للزهور والنباتات، ولديه ولَعٌ حقيقي بزراعة الزهور، ويُسعده بشدة دائمًا أخذُ عشاق الزهور في جولةٍ حول حديقته. ومن ثم عادت على الفور ودخلت إلى الحديقة، وقادها فوليوت داخلَ ممراتها ذاتِ الرائحة الجميلة.

وقال، بينما يقودُها نحوَ مجموعةٍ من الأزهارِ ذاتِ لونٍ وحجم لم ترَهما من قبل: «إنها تَجرِبة كنتُ أعمل عليها.» وأردف: «ما رأيك في النتائج؟»

صاحت ماري: «رائعة!» وأضافت: «لم أرَ أجمل منها قط!»

قال فوليوت موافقًا، مع ضحكةٍ هادئة: «بالطبع!» وتابع: «هذا رأيُ الجميع — لأنه لا توجد مثلُ هذه الزهرة في إنجلترا. يجب أن أذهب إلى بعضِ هؤلاء القساوسة المتعلِّمين في كلوس كي يبتكِروا لها اسمًا لاتينيًّا — إنها نتيجةُ تجارِبَ دقيقةٍ في التطعيم — وقد استغرقَت مني ثلاثَ سنوات للحصول عليها. انظري كيف تزدهر العشرات على شجيرة واحدة.»

ثم أخرج سكِّينًا وبدأ في اختيار حَفنةٍ من أفضل الأزهار، وأعطاها لماري.

وقال بعد أن شكَرَته ثم أخذا يُواصلان السيرَ عبر الممر باتجاه باب الخروج: «بالمناسبة، كنتُ أريد أن أتحدَّث معك في أمرٍ، أو مع رانسفورد.» وأضاف: «هل تعلَمين — وهل يعلم هو — أن تلك المرأة السخيفةَ الملعونة التي تعيش بالقرب من منزلكم، السيدة ديرامور، كانت تقول بعضَ الأشياء — أو شيئًا ما — الذي بصراحةٍ قد يُسبِّب له بعضَ الانزعاج؟»

تمالكَت ماري نفسها، وأعطَته إجابةً صادقة بالقدر الكافي، على حدِّ علمها.

حيث قالت: «أنا متأكدة من أنه لا يعلم شيئًا.» وتابعت: «ما الأمرُ يا سيد فوليوت؟»

تابع فوليوت، وهو ينظر إليها نظرةً فاحصة: «بالقطع، أنت تعلمين ما حدثَ الأسبوع الماضيَ.» وأضاف: «الحادث الذي وقعَ لذلك الغريب. تقول السيدة ديرامور، وهي سيدة عجوز ثَرْثارة، هنا وهناك، إنه شيءٌ غريب جدًّا ألا يعرف دكتور رانسفورد أيَّ شيء عن الرجل، وألا يُمكنه قولُ أي شيء؛ لأنها هي بنفسها، حسَبما تقول، رأت الرجلَ نفسَه يخرج من منزل دكتور رانسفورد قبل وقتٍ قصير من وقوع الحادث.»

قالت ماري: «أنا لا أعلم أنه قد زار منزلَ دكتور رانسفورد على الإطلاق.» وأضافت: «أنا لم أرَه قط — وقد كنت في الحديقة، في ذلك الوقت تحديدًا، مع ابن زوجتك، يا سيد فوليوت.»

قال فوليوت: «هذا ما أخبرَني به ساكفيل.» وأضاف: «لقد كان حاضرًا — وأنا كذلك — عندما كانت السيدة ديرامور تُثرثر بشأنِ هذا الأمر في منزلنا أمس. حيث قال، حينها، إنه لم يرَ الرجل يذهب إلى منزلِكم قط. لكن ألم تسمَعي أيًّا من خدمك يُدلي بأيِّ ملاحظة حول ذلك الأمر؟»

قالت ماري: «مطلقًا!»

تابع فوليوت: «لقد أخبرت السيدة ديرامور أنه من الأفضل أن تُمسِك لسانها.» وأردف: «هذا النوع من الثَّرثرة يُمكن أن يؤدي إلى مشاكل. وإذا دقَّقنا في الأمر، فسيتَّضح

أن كلَّ ما رأته هو أن هذا الشخص الغريب كان يتجوَّل عبر كلوس وبدا لها كما لو كان قد غادرَ منزلكم للتو. لقد بدا لها ذلك، دائمًا ما يكون هذا هو الحال!» وأضاف، وهو يُمسك مرفقَ ماري برفق وينظر بخفيةٍ إليها أولًا ثم إلى منزله في الجانب الآخر من الحديقة: «لكني سأخبرك لماذا ذكرتُ ذلك لكِ. إن السيدات اللواتي يتقدمنَ قليلًا في السن، كما تعلمين مثل زوجتي، يعشقنَ النميمة، وبينك وبيني، أنا لن أندهشَ إذا كانت السيدة فوليوت قد كررَت ما قالته السيدة ديرامور — ألا تُوافقينني الرأي؟ وأنا لا أريد أن يظنَّ الدكتور — إذا سمع أيَّ شيء، كما تعلمين، وهو الأمر الذي قد يحدث أو ربما يكون قد حدث — أن مصدره هنا. لذا، إن حدث وذكر لك هذا الأمر، فيُمكنك القول إنه قد انبثق من جارته في المنزل المجاور. يا للسخف! — إنهن عجائزُ يعشقن النميمة، سيدات كلوس هؤلاء!»

قالت ماري: «شكرًا لك.» وأضافت: «لكن بافتراض أنَّ هذا الرجل ذهَب إلى منزلنا — ما الفرق الذي سيُحدثه ذلك؟ هناك عدةُ أسباب لذَهابه إلى هناك.»

نظر إليها فوليوت بعينَيه نصف المغمضتَين.

وقال: «سيرغب بعضُ الناس في معرفةِ سببِ عدم ذِكْر رانسفورد لذلك — أثناء جلسة التحقيق.» وأردَف: «هذا كلُّ ما في الأمر. عندما يكون هناك بعضُ الغموض، كما تعلمين — أليس كذلك؟»

أومأ برأسه — كما لو كان يُؤكد أمرًا — وذهب لينضمَّ مجددًا إلى البُستاني، بينما عادت ماري إلى المنزل مع زهورها، وهي غارقةٌ في التفكير أكثرَ من أيِّ وقتٍ مضى. غموض؟ — بعض الغموض؟ لقد كانت هناك سحابةٌ ضخمة وثقيلة من الغموض، وعرَفت أنها لن تستطيعَ أن تنعم بالراحة حتى تنكشف.

الفصل الحادي عشر

الحجرة الخلفية

في خِضمِّ حَيرتها الشديدة في تلك اللحظة، كانت ماري بيوري متأكدةً من حقيقةٍ واحدة لم يكن لديها أيُّ حيرة أو شك فيها، وهي أنه لن يمرَّ وقتٌ طويل قبل أن تنتشر الشائعات التي تحدَّث عنها برايس والسيد فوليوت. وعلى الرغم من أنها عاشت في رايتشستر وقتًا قصيرًا نسبيًّا، فقد رأت فيها وتعلمَت ما يكفي لتعرف أن المكان كان مرتعًا للنميمة. فبمجرد أن تبدأ الشائعة هناك، تنتشر وتتَّسع في دائرةٍ تِلو الأخرى. وعلى الرغم من أن برايس ربما كان محقًّا عندما قال إن الشخص ذا الصِّلة بالشائعة بنحوٍ رئيسي هو عادةً آخرُ شخص يسمع ما كان يُشاع، فإنها كانت تعلم جيدًا أن هذا الحديث عن رانسفورد سيصلُ عاجلًا أم آجلًا إلى أذنَيْ رانسفورد. لكنها لم تكن تعلم أنَّ هذا سيحدث قريبًا للغاية، وعلى يد أخيها.

كان الغداء في منزل رانسفورد وجبةً غير رسمية. ففي الساعة الواحدة والربع من كلِّ يوم، كان يُوضع على الطاولة — وقد كان طعامًا باردًا يُحضِّره أفرادُ الأسرة الثلاثة بأنفسهم كما يحلو لهم، دون مساعدةٍ من الخدم. في بعض الأحيان كان يوجد الثلاثة في نفس الوقت؛ وفي أحيانٍ أخرى يتأخَّر رانسفورد نصفَ ساعة؛ كان العضو الوحيد الموجود دائمًا في الوقت المحدَّد هو ديك بيوري، الذي كان يُغذي نفسه بعنايةٍ بعد حصص المدرسة الصباحية. وفي هذا اليوم بالذات، التقى الثلاثةُ في غرفة الطعام في وقتٍ واحد، وجلسوا معًا. وقبل أن يأكل ديك بِضْع قضمات من فطيرة باردة كان قد أحضَرها بنفسه، مال في سرِّية عبر الطاولة باتجاه وصيِّه.

وقال مع نظرة جانبية نحوَ ماري: «هناك شيءٌ أعتقد أنه يجب إخبارك به يا سيدي.» وأردف: «شيءٌ سمعته هذا الصباحَ في المدرسة. فكما تعلم، لدينا الكثير من الزملاء — من أبناء المدينة — الذين يُثرثرون.»

أجاب رانسفورد بغِلظة: «يا إلهي!» وأضاف: «إنهم يُقلدون أمهاتِهم، بلا شك. حسنًا، ما الأمر؟»

وألقى، هو أيضًا، نظرةً خاطفة نحو ماري — وقد انهمكَت الفتاة فيما كانت تفعله لتبدوَ غيرَ منتبهة لما يقولان.

أجاب ديك خافضًا صوتَه على الرغم من حقيقةِ أن الثلاثة كانوا بمفردهم: «إن الأمر هو ما يلي.» وتابع: «إنهم يقولون في المدينة إنك تعرف شيئًا لن تذكرَه عن ذلك الحادث الذي وقع الأسبوع الماضي. هكذا يُثرثرون.»

ضحك رانسفورد — بسخريةٍ بعضَ الشيء.

وسأله: «هل أنت متأكد، يا ولدي، من أنهم لا يقولون إنني لن أجرؤَ على ذِكره؟» وأردف: «إذ إن عبارة «لن أجرؤ» هي العبارة التي استخدموها هم على الأرجح، حسَبما أظن.»

رد ديك: «حسنًا — قالوا مثلَ ذلك يا سيدي.» وأردف: «شيء من هذا القبيل، على أيِّ حال.»

سأله رانسفورد: «وما أدلَّتهم؟» وتابع: «لقد سمعتَها، أنا متأكد!»

أجاب ديك: «يقولون إن الرجل — برادن — قد جاء إلى هنا — هنا، إلى المنزل! — في ذلك الصباح، قبل وقتٍ قصير من العثور عليه ميتًا.» وأردف: «بالطبع، قلتُ إن هذا محضُ هُراء! — وقلتُ إنه لو كان قد جاء إلى هنا وقابلك، لكنتُ أنا قد علمتُ بذلك، بكل تأكيد.»

قال رانسفورد: «هذا ليس صحيحًا تمامًا، يا ديك؛ لأنني أنا نفسي لا أعرفُ شيئًا عن قدومه إلى هنا.» وأردف: «ولكن مَن الذي يقول إنه قد جاء إلى هنا؟»

أجاب ديك على الفور: «السيدة ديرامور.» وتابع: «إنها تقول إنها رأته يبتعدُ عن المنزل ويسير عبر كلوس، قبل الساعة العاشرة بقليل. هكذا يقول جيم ديرامور، على أي حال — ويقول إن والدته تستطيع الرؤية بعينَيها على نحوٍ جيد تمامًا.»

قال رانسفورد موافقًا: «بلا شك!» ثم نظر نحو ماري مرةً أخرى، ورأى أنها كانت تُثبِّت نظرها على طبقها. فتابع: «حسنًا، إذا كان ذلك سوف يُرضيك بأيِّ نحو، يا ديك، فيُمكنك أن تُخبر أولئك النمَّامين أن دكتور رانسفورد لم يُقابل أيَّ رجل في منزله، سواءٌ برادن أو أي شخص آخر، ذلك الصباح، وأنه لم يتبادل قط ولو كلمةً واحدة مع برادن. هذا هو كل ما يُمكنني قوله عن هذا الأمر!» ثم أضاف: «لكن أنت لستَ في حاجةٍ إلى أن تتوقَّع منهم أن يُصدقوك. فأنا أعرف هؤلاء الناس — إذا كانت لديهم فكرةٌ في رءوسهم فسيتمسَّكون بها حتى الموت. ومع ذلك، فإن ما أقوله هو الحقيقة.»

بعد ذلك انصرف ديك، ونظر رانسفورد مرةً أخرى إلى ماري. وهذه المرة، كان على ماري أن تُواجه نظرة وصيِّها المستفسرة.

سألها: «هل سمعتِ أيَّ شيء عن هذا الأمر؟»

أجابت دون تردُّد: «تلك الشائعة؟ — أجل.» وأردفت: «لكن ليس الآن، بل هذا الصباح.»

سألها رانسفورد: «مَن أخبركِ عنها؟»

ترددت ماري. ثم تذكَّرَت أن السيد فوليوت، على أي حال، لم يُلزمها بالسرية.

فأجابت: «السيد فوليوت.» وأردفَت: «لقد دعاني إلى حديقته، لإعطائي تلك الزهورَ، وذكر أن السيدة ديرامور قد قالت هذه الأشياء للسيدة فوليوت، ونظرًا إلى أنه كان يظنُّ أنه من المحتمل جدًّا أن تنشرَها السيدة فوليوت، أخبرني بالأمر لأنه لم يكن يُريدك أن تعتقد أن الشائعةَ قد انطلقت من منزله.»

قال رانسفورد بغِلظة: «هذا أمرٌ جيد للغاية منه.» وأضاف: «إنهم جميعًا يرغبون في إبعادِ اللَّوم عن أنفسِهم وإلقائه على الآخرين!» وأضاف وهو ينظر إليها بتمعُّن: «لكن أنت لا تعرفين أيَّ شيء عن مسألة مجيءِ برادن إلى هنا، أليس كذلك؟»

أدركَ في الحال أنها كانت تعرف، ورأت ماري لمحةً خفيفة من القلق تُخيم على وجهه.

فأجابت: «نعم، أعرف!» وأردفَت: «في ذلك الصباح. لكن قيلَت لي المعلومة، اليومَ فقط، وطُلب مني اعتبارها سرًّا يجب كتمانه.»

كرَّر قائلًا: «سرًّا يجب كتمانه!» ثم أردف: «هل لي أن أعرف مَن أخبرك بها؟»

أجابت: «دكتور برايس.» وتابعَت: «لقد التقيتُ به هذا الصباحَ. وأعتقد أنك يجب أن تعرف بما قاله. لكنه طلب مني اعتباره سرًّا وبالتالي كتمانه.» توقفَت لحظةً عن الكلام، ونظرت إليه، فاضطرب وجهُها. وتابعت: «أكرهُ أن أقترح ذلك، لكن هلا تأتي معي لمقابلته، وسأطلب منه — ما دامت الأمور على ما هي عليه الآن — أن يُخبرك بما قاله لي؟ فأنا لا أستطيع قولَ أي شيء — دون إذنه.»

هزَّ رانسفورد رأسه وتجهَّم.

وقال: «أنا لا يُعجبني ذلك!» وأضاف: «إن هذا ... إن هذا يجعلنا نضع أنفسنا تحت سيطرته؛ إن جاز التعبير. لكنني يجب أن أعلم بالأمر. ارتدي قبَّعتك.»

استأجر برايس، منذ مجيئه إلى رايتشستر، شقةً في منزلٍ قديم في فرايري لين، في الجزء الخلفي من كلوس. وكان يُقيم فيها بنحوٍ مُريح. في الطابق السفلي كانت لديه غرفةُ

جلوس مزدوجة تمتدُّ من الجزء الأمامي إلى الجزء الخلفي من المنزل، وتُطل نافذتُه الأمامية على حديقة، ونافذته الخلفية على أخرى. وكان قد انتهى لتوِّه من تناول الغَداء في الجزء الأمامي من غرفته، وينظر من نافذته، متسائلًا عما سيفعلُ بعد ظُهر ذلك اليوم، عندما رأى رانسفورد وماري بيوري يقتربان. فخمَّن سببَ زيارتهما في الحال، وتوجَّه مباشرة إلى الباب الأمامي لمقابلتهما، ودون أن ينبس ببِنت شفةٍ دعاهما كي يتبَعاه إلى الدخول إلى شقته. بادر، كما كانت عادتُه، بالكلام — قبل أن يتمكن أيٌّ من زائريه من الكلام.

فقال، وهو يُغلق الباب وينظر إلى ماري: «أنا أعرف لماذا أتيتِ.» وأردف: «إما أنكِ تُريدين إذني كي تُخبري دكتور رانسفورد بما قلتُه لكِ هذا الصباحَ، وإما تُريدينني أن أُخبره به بنفسي. هل أنا على حق؟»

أجابت ماري: «أنا أُفضِّل أن تُخبره بنفسك.» وأردفَت: «إن الشائعة التي تحدَّثتَ عنها قد وصلَت إليه — ويجب أن يعرف ما لديك من معلومات. أما أنا فقد حافظتُ على سرك، حتى الآن.»

نظر الرجلان كلٌّ منهما إلى الآخَر. وهذه المرةَ كان رانسفورد أولَ مَن تحدَّث.

فقال: «يبدو لي أنه لا يوجد سببٌ وجيهٌ للسرية. وإذا كانت الشائعاتُ تتناثر في رايتشستر، فلا توجد سرِّية. لقد أخبرني ديك أنهم يقولون في المدرسة إنه يُشاع أن برادن قد زارني في منزلي قبل وقتٍ قصير من العثور عليه ميتًا. وأنا لا علمَ لي مطلقًا بتلك الزيارة! لكن لقد تركتُك بمفردك في العيادة في ذلك الصباح. فهل تعرف ما إذا كان قد جاء إلى هناك؟»

أجاب برايس: «أجل!» وتابع: «لقد جاء. بعد مدَّة وجيزة من مغادرتك لها.»

سأله رانسفورد بحدَّة: «لماذا أبقيتَ الأمر طيَّ الكتمان؟» ثم أردف: «كان من الممكن أن تُخبر الشرطة — أو قاضيَ التحقيق — أو تخبرني أنا. لماذا لم تفعل؟»

قبل أن يتمكَّن برايس من الإجابة، سمع الثلاثةُ نقرةً حادة على بوابة الحديقة الأمامية، فاستداروا، ورأَوْا ميتشينجتون يقترب عبر الممشى.

قال برايس بهدوء: «ها هو أحدُ رجال الشرطة قد أتى الآن.» ثم أضاف: «ربما جاء للحصول على بعض المعلومات. وأنا أُفضِّل كثيرًا ألا يراك هنا — لكني أودُّ أيضًا أن تسمع ما سأقوله له.» وتابع بينما كان يسحب الستائر التي كانت تحجبُ الحجرة الخلفية: «ادخلا إلى هناك.» وأردف:

«لا تهتمَّ بالتفاهات! فأنت لا تعرف كيف ستسيرُ الأمور.»

ومن ثَم أجبرهما تقريبًا على الدخول، وسَحَبَ الستائر مرةً أخرى، وهُرِع إلى الباب الأمامي، وعاد على الفور تقريبًا مع ميتشينجتون.

قال المفتش، بينما كان يُدخله برايس ويُغلق الباب مرةً أخرى: «أتمنى ألا أكونَ قد أزعجتك يا دكتور.» وأردف: «كلا؟ حسنًا، إذن، لقد جئتُ لأطرحَ عليك سؤالًا. هناك شائعة غريبة تنتشر في المدينة، حول تلك الحادثة التي وقعَت الأسبوع الماضيَ. يبدو أن مصدرها هو بعضُ النسوة العجائز في كلوس.»

قال برايس: «بالتأكيد!» وكان يخلط الويسكي والصودا لزائرِه، واختلطَت ضحكته بصوتِ سيفون الصودا. ثم أردف: «بالتأكيد! لقد سمعتُ ذلك.»

قال ميتشينجتون: «هل سمعتَه؟» ثم أردف: «إم! في صحتك، يا سيدي! لقد سمعتَ، بالطبع، أن ...»

قال برايس: «أن برادن زار دكتور رانسفورد قبل وقتٍ قصير من وقوع الحادث، أو جريمة القتل، أو أيًّا كان ما حدث.» ثم أضاف: «هذه هي الشائعة، أليس كذلك؟»

قال ميتشينجتون موافقًا: «شيءٌ من هذا القبيل.» ثم أردف: «يُقال، على أيِّ حال، إن برادن ذهب إلى منزل رانسفورد، ومن المفترض أنه قابله، وبِناءً على ذلك، إن رانسفورد يعرف شيئًا عنه لم يُخبر به أحدًا. والآن ماذا تعرف عن هذا الأمر؟ هل تعرف ما إذا كان رانسفورد وبرادن قد التقيا في ذلك الصباح؟»

أجاب برايس على الفور: «ليس في منزل رانسفورد، على أيِّ حال.» ثم أضاف: «يُمكنني إثباتُ ذلك. لكن بما أن هذه الشائعةَ قد انتشرت، فسأُخبرك بما أعرفه، وما هي الحقيقة. لم يأتِ برادن إلى منزل رانسفورد، ولكن إلى عيادة رانسفورد. وهو لم يُقابل رانسفورد — حيث كان رانسفورد قد غادر العيادةَ، وذهب عبر كلوس. أما مَن قابل برادن، فهو أنا!»

قال ميتشينجتون: «يا إلهي! لم أكن أعرفُ ذلك.» ثم أضاف: «أنت لم تذكر ذلك قط.»

قال برايس وهو يضحك قليلًا: «لن تتعجَّبَ من أنني لم أذكر ذلك، عندما أُخبرك بما كان الرجل يُريده.»

سأل ميتشينجتون: «ماذا كان يريد، إذن؟»

أجاب برايس: «كان فقط يسأل عن مكان مكتبة الكاتدرائية.»

رأى رانسفورد، وهو يُراقب ماري بيوري، أن وجهَها قد احمرَّ، وعرَف أن برايس كان يكذب في مرَح. لكن مِن الواضح أن ميتشينجتون لم يكن لديه أيُّ شك.

حيث سأل: «هل هذا كلُّ ما في الأمر؟» ثم أردف: «مجرد سؤال؟»

أجاب برايس: «مجرد سؤال — هذا السؤال.» وتابع: «فأشرتُ له إلى المكتبة — وغادر. ولم أرَه قط مرةً أخرى حتى جُلِبتُ لرؤيته وهو ميت. ولم أفكِّر كثيرًا في الأمر — في الواقع، لم يخطر ببالي مطلقًا أن أذكره.»

سأل المفتش: «إذن — رغم أنه جاء إلى العيادة — هو لم يُقابل رانسفورد قط، أليس كذلك؟»

أجاب برايس: «أقول لك إن رانسفورد كان قد غادرَ بالفعل.» وتابع: «وهو لم يُقابل أحدًا سِواي. وحينما ارتكبَت السيدة ديرامور خطأَها — تصادف أني عرَفتُ، يا ميتشينجتون، أنها مصدرُ هذه الشائعة — كانت تُحاول تحميل الأمر أكثرَ مما يحتمل. لقد رأت هذا الرجلَ يسير عبر كلوس، كما لو كان قد خرجَ من منزل رانسفورد وتخيلَت في الحال أنه قد قابل رانسفورد وتحدَّث معه.»

قال ميتشينجتون: «يا لها من عجوزٍ حمقاء!» ثم أضاف: «بالطبع، هذه هي الطريقة التي تنتشرُ بها هذه القصص. ومع ذلك، ما زالت هناك أمورٌ أخرى مُثارة.»

نظر المستمِعان خلف الستائر كلٌّ منهما إلى الآخر. وأظهرَت نظرة رانسفورد أنه كان منزعجًا بالفعل من الوضع الذي كان فيه — لكنَّ نظرة ماري دلَّت فقط على الخوف. وفجأة، كما لو كانت تخشى أن يُلقي رانسفورد الستائرَ جانبًا ويدخل إلى الغرفة الأمامية، وضعت يدَها على ذراعه وأشارت إليه أن يتحلَّى بالصبر — والصمت.

قال برايس: «أوه؟» وأردَف: «أمورٌ أخرى مثارة؟ حول هذه القضية؟»

قال ميتشينجتون: «بالضبط.» ثم أردف: «بدايةً، إن ذلك الرجل، فارنر، عاملَ البناء، لم يتوقَّف عن الثرثرة قط. يقولون إنه دائمًا ما يتحدَّثُ عن القضية — ويقول إن حكم هيئة المحلَّفين في جلسة التحقيق كان خاطئًا تمامًا، وإن شهادته قد نُحِّيَت جانبًا. وهو يُصِر على أنه رأى ما أقسم أنه رآه.»

قال برايس بلا مبالاةٍ: «سوف يستمرُّ في ذلك حتى يوم موته.» ثم أضاف: «إذا كان هذا كلَّ ما في الأمر ...»

قاطعَه المفتش: «ليس هذا كلَّ ما في الأمر.» ثم أردف: «على الإطلاق! لكن كلام فارنر هو تأكيدٌ مباشر — المسألة الأخرى هي نوع من التلميح القبيح. هناك رجلٌ يُدعى كوليشو، وهو أحد سكان المدينة، وقد وُظِّف عامِلَ بناءٍ مساعدًا في الكاتدرائية مؤخرًا. كوليشو هذا، على ما يبدو، كان يعمل في مكانٍ ما في المقصورات أو الممرَّات أو أيًّا كان ما

يُسمُّون به تلك المناطقَ العُليا، في صباح يوم الحادث. وفي ليلةٍ سابقة، وهو تحت تأثير الشراب إلى حدٍّ ما، تحدَّث عن الأمر مع رفاقه في حانة، وأطلق بعضَ التلميحات الغامضة بأنه يمكن أن يقول شيئًا ما إذا أراد. بالطبع، ضغَطوا عليه لإخبارهم — لكنه لم يفعل. وعندئذٍ — كما أخبرني مخبري — شجَّعوه على الحديث، لكنه ظلَّ صامتًا بنحوٍ فظ. انتشر هذا، بالطبع، ووصل إلى أذنَيَّ. فقابلت كوليشو.»

سأل برايس: «ماذا حدث؟»

أجاب ميتشينجتون: «أعتقد أن الرجلَ يعرف شيئًا ما.» وأردف: «هذا هو الانطباع الذي خرَجتُ به، على أي حال. لكنه لن يتكلم. لقد اتهمتُه مباشرة بمعرفة شيءٍ ما وإخفائه — لكن ذلك لم يُجدِ نفعًا. فأخبرتُه بما سمعته. وكلُّ ما قاله هو أنه مهما كان ما صدر عنه وهو مخمور، فهو لن يقول أيَّ شيء الآن، لا لي ولا لأي شخص!»

قال برايس: «هكذا فقط!» ثم أضاف: «لكنه سيُصبح مخمورًا مرةً أخرى، يومًا ما، وعندئذٍ — عندئذٍ، ربما سيُضيف المزيد إلى ما قاله من قبل. وتأكد أنك ستسمع ذلك.»

أجاب ميتشينجتون: «أنا لستُ متأكدًا من ذلك.» وتابع: «لقد قمتُ ببعض التحريات ووجدتُ أن كوليشو عادةً ما يكون رصينًا جدًّا ومنطويًّا — لقد أُغري كي يشربَ عندما صرَّح بتلك الأقوال. بالإضافة إلى ذلك، سواءٌ كنت على صواب أو خطأ، خطرَت لي فكرة أنه قد تلقى رِشوة!»

صاح برايس متعجبًا: «رشوة!» وتابع: «عجبًا، إذا كانت تلك الحادثةُ جريمةَ قتل حقًّا، فسيُصبح عُرضةً لتوجيه الاتهام إليه باعتباره شريكًا في الجريمة!»

أجاب ميتشينجتون: «لقد حذَّرته من ذلك.» ثم أضاف: «أجل، لقد حذرته رسميًّا.»

سأل برايس: «وهل أسفر ذلك عن شيء؟»

قال ميتشينجتون: «إنه رجلٌ فظ.» وأردف: «من النوع الذي يلتزم الصمت. لم يُقدِّم أيَّ إجابة ولم يفعل شيئًا سوى الزمجرة.»

قال برايس: «هل تعتقد حقًّا أنه يعرف شيئًا ما؟» ثم أضاف: «حسنًا — إذا كان هناك أيُّ شيء، فسينكشف — في الوقت المناسب.»

قال ميتشينجتون موافقًا: «أوه، بالقطع سينكشف!» ثم أردف: «أنا لستُ راضيًا بأيِّ حالٍ من الأحوال عن هذا الحكم الصادر عن قاضي التحقيق. وأعتقد أنه كان هناك تلاعبٌ من نوعٍ ما. وما زلت أتابعُ الأمورَ بهدوء. وسأخبرك بشيءٍ — بيني وبينك — لقد توصلتُ

إلى اكتشافٍ مهم. وهو كما يلي. في مساء يوم وصول برادن إلى فندق مايتر، خرج، إلى مكانٍ ما، مدةَ ساعتَين كاملتين — بمفرده.»

قال برايس: «أظن أننا عَلِمنا من السيدة بارتينجلي أنه والرجل الآخر، ديلينجهام، قد أمضَيَا المساء معًا؟»

أجاب ميتشينجتون: «أجل — لكن لم يكن الأمرُ كذلك بالضبط.» ثم أضاف: «لقد خرجَ برادن من فندق مايتر قبل الساعة التاسعة بقليل، ولم يَعُد إلا بعد الحاديةَ عشرة ببضع دقائق. إذن، أين ذهب؟»

سأل برايس، بعد مدةِ صمت، سمع خلالها المستمعان الزائرَ وهو ينهض ويتجهُ نحو الباب: «أعتقد أنك تُحاول اكتشاف ذلك؟»

أجاب ميتشينجتون، مع ضحكةٍ واثقة: «بالتأكيد!» وتابع: «وسأفعل! لا تَبُح بذلك لأحد، يا دكتور.»

بعد أن أوصل برايس المفتشَ إلى الخارج وعاد إلى غرفة جلوسه، خرجَ رانسفورد وماري من وراء الستائر. فنظر إليهما وهزَّ رأسه.

وقال: «لقد سمعتما الكثيرَ، كما تُلاحظان.»

قال رانسفورد بلهجةٍ آمرة: «انظر هنا!» ثم أضاف: «لقد ضلَّلتَ هذا الرجلَ بشأن الزيارة التي جرَت في عيادتي. أنت لم تقُل له الحقيقة.»

وافق برايس على ذلك بقوله: «هذا صحيحٌ تمامًا.» ثم أضاف: «لم أفعل. لماذا يجب عليَّ ذلك؟»

سأل رانسفورد بحدَّة: «عن أي شيء سألك برادن؟» وتابع: «أخبِرْني، الآن.»

أجاب برايس: «سألني فقط عما إذا كان دكتور رانسفورد موجودًا، مشيرًا إلى أنه كان يعرفه من قبل. كان هذا — حرفيًّا — كلَّ شيء. وأجبتُه بأنك لم تكن موجودًا في العيادة.»

وقف رانسفورد يُفكر في صمتٍ لحظةً أو اثنتَين. ثم تحرك نحو الباب.

وقال: «لا أرى أن أيَّ خير سيأتي عبر المزيد من الحديث عن هذا الأمر.» وأضاف: «نحن الثلاثة، على أيِّ حال، نعرف الآتي: إنني لم أُقابل برادن مطلقًا عندما جاء إلى منزلي.»

ثم أشار إلى ماري أن تتبعَه، وغادرا المنزل، فابتسم برايس لصورته في مِرآته — برضًا كامل، بعد أن راقبَهما وهما يغيبان عن نظره.

الفصل الثاني عشر

مقتل عامل البناء المساعد

قبل وقتِ الظهيرة من اليوم التالي، اتخذَ برايس خطوةً إلى الأمام في مسألةِ حلِّ مشكلة ريتشارد جينكينز ومقبرتِه في بارادايس. إذ كان يُحاول منذ عودته من بارثورب أن يصل إلى المعنى الحقيقيِّ لهذا اللغز. وقد زار مكتبة الكاتدرائية عدةَ مرات لدرجة أن أمبروز كامباني سأله مازحًا عما إذا كان سيُغير مجال عمله إلى علم الآثار، فأجاب برايس بأنه ليس لديه ما يفعله في هذا الوقت؛ لذا لم يرَ أيَّ سبب يمنعُه من تحسين معرفته بآثار رايتشستر. لكنه كان حريصًا بشدة على عدم السماح لأمين المكتبة بمعرفة الهدف الحقيقي من فحصِه وتدقيقه في الكتب والوثائق القديمة. كان كامباني حسَبما يُدرك برايس جيدًا، موسوعةً تسير على قدمَين للمعلومات الخاصة بكاتدرائية رايتشستر؛ كان في الواقع، في ذلك الوقت، منخرطًا في إكمال كتابِ تأريخٍ عنها. ومن خلال عملية كتابة التاريخ تلك حصل برايس بالصدفة على معلوماته الثمينة. إذ في اليوم التالي للمقابلة مع ماري بيوري ورانسفورد، أرشد كامباني برايس أثناءَ وجوده في المكتبة لفحص بعض الرسومات التي رسمها أمينُ المكتبة لتكونَ رسوماتٍ توضيحيةً لعمله، التي معظمها، عن الألواح التذكارية النُّحاسية، وشعارات النبالة، وما شابه — وعند الجزء السفليِّ من واحدةٍ من هذه، وهو رسمٌ لدرع نبالة نُحت عليه ثلاثةُ غِربان، رأى برايس اسمَ ريتشارد جينكينز، حامل الدرع. كان كلُّ ما أمكنه فعلهُ هو أن يكبح ردَّ فعله ويُحسن انتقاءَ كلماته. لكن كامباني، الذي لا يعرف شيئًا عن نواياه، سرعان ما قدم له المعلومات التي يُريدها.

حيث قال: «كل هذه الرسومات هي لأشياءَ قديمةٍ داخل الكاتدرائية وحولها. بعضها مثل هذا، على سبيل المثال، درع نبالة جينكينز هذا، عبارة عن زخارف على مقابرَ عتيقةٍ للغاية لدرجة أن نقوشَها اختفَت تمامًا — مقابر في منطقة الأديرة، وفي بارادايس. لا يمكن التعرُّف على بعضِ تلك القبور إلا من خلال هذه المنحوتات والزخارف.»

سأل برايس، وقد شعر أنه من المناسبِ الآن أن يستفسرَ دون أن ينكشف مقصدُه الحقيقي: «كيف تعرف، على سبيل المثال، أن أيَّ مقبرة أو نُصب تذكاري محدَّد، يخص، لِنَقل مثلًا، جينكينز؟» ثم أضاف: «من المؤكد أن يُصبح الأمر موضعَ شك إذا لم يتبقَّ عليه نقش، أليس كذلك؟»

أجاب كامباني: «كلا!» ثم أردف: «ليس هناك شكٌّ على الإطلاق. بخصوص هذه المقبرة تحديدًا، ليس هناك شكٌّ في أن المَقبرة الموجودة في زاوية بارادايس، بالقرب من الجدار الشرقي للرِّواق الجنوبي، هي مقبرة ريتشارد جينكينز؛ لأنها تحمل شعار النبالة الخاص به، الذي، مثلما ترى، يتضمَّن هذه الطيورَ — التي هي عبارة عن غربان صغيرة أو ضخمة. لقد مُحيت النقوش من على تلك المقبرة؛ ولهذا السبب لم تُذكر في مخطَّطِ مدافنِ بارادايس — لم يكن الرجل الذي أعدَّ ذلك المخطط يعرف كيف يتتبَّع الأشياء كما نفعل في الوقت الحاضر. كان ريتشارد جينكينز، كما قد تُخمِّن، من سكان ويلز، واستقرَّ هنا في رايتشستر في القرن السابعَ عشر؛ لقد ترك بعض المال لكنيسة سانت هيدويج، لكنه دُفن هنا. هناك المزيد من الأمثلة — انظر إلى هذا؛ شعار النبالة هذا — إنه هو الوسيلة الوحيدة لتحديد مقبرةٍ أخرى في بارادايس والتي تخص جيرفيس تايرويت. هل ترى شعار النبالة الذي في هذا الرسم؟ والآن هذه …»

سمح برايس لأمين المكتبة بالاستمرار في الحديث والشرح، وسمع كلَّ ما كان عليه أن يقوله دون أن يُعيره أدنى تركيزٍ أو اهتمام — إذ إن ما كان نشطًا حقًّا في عقله هو الفرَح بضربةِ الحظ غيرِ المتوقَّعة هذه؛ ربما كان هو نفسُه قد ظل يبحث عنه طَوال سنة دون أن يعثرَ على آخِر مثوًى لريتشارد جينكينز. وبعد أن دقَّت ساعةُ الكاتدرائية الكبيرةُ معلنةً حلول ساعة الظهيرة بمدَّة وجيزة، ترك كامباني وخرج من المكتبة، ثم سار إلى بارادايس وخاض بين أشجار السرو والصنوبر بداخلها، عازمًا على رؤية مقبرة جينكينز بنفسه. لا يمكن أن يشكَّ أحدٌ في أي شيء من مجرد رؤيته هناك، وكلُّ ما كان يُريده هو نظرةٌ واحدة على النُّصب القديم.

لكن لم يتمكَّن برايس من أن يُلقِيَ ولو نظرةً واحدة على قبر ريتشارد جينكينز في ذلك اليوم، ولا في اليوم التالي، ولا لعدة أيام — حيث قابلَه الموت في شكلٍ آخر قبل أن يسيرَ عدة خطوات في الفِناء الهادئ حيث يرقد الكثيرُ جدًّا من موتى رايتشستر.

من أعلى الفروع العُليا لأشجار الصنوبر العتيقة، سقط شعاعٌ كبير من ضوء الشمس في الظهيرة بالكامل على رُقعة من الجدران الرمادية للصَّحن ذي الأسقفِ العالية. وعند

نهايتها، جلس رجل، وقد استند ظهرُه بشكلٍ مريح مقابلَ زاوية دعامةٍ بارزة، ومن الواضح أنه كان نائمًا بعمق في دفء تلك الأشعة القوية. وبينما انحنى رأسه إلى أسفل وإلى الأمام على صدرِه، وطُويت يداه على خَصرِه، وكان مظهره ككلٍّ هو مظهرَ رجل، بعد أن أكلَ وشرب في الهواء الطَّلْق، استغرق في النوم. لقد نام أثناء التدخين وهو ما يتَّضح من وجودِ غليونٍ فَخَّاري قصير مسودٍّ سقط من شفتَيه واستقرَّ على العُشب بجانبه. وبالقرب من الغليون، انتشرت على منديلٍ ملوَّن بقايا غَدائه — حيث لاحظَت عينُ برايس السريعةُ قِطع الخبز والجُبن والبصل. وبجواره كانت توجد واحدةٌ من القارورات المعدنية التي عادةً ما يَحمل فيها العمالُ مشروباتِهم، والتي كانت سِدَادتها، التي رُبِطت بقطعةٍ من الخيط في عنق القارورة، تتدلَّى على جانبها. وعلى بُعد ياردات قليلة، أظهرت كتلةٌ من الأنقاض المتساقطة ومجرفة وعربة يدٍ ما كان يفعله النائم عندما حانت ساعةُ غدائه وراحته.

شيء غير عادي، شيء ملحوظ بشكل غريب — ومع ذلك لم يستطِع تحديدَ ما هو بالضبط — جعل برايس يقتربُ من الرجل النائم. كان هناك ثباتٌ غريب لجسده — تصلَّب بدا أنه يُوحي بشيءٍ أكثرَ من النوم. وفجأةً، انحنى برايس للأمام مع دهشةٍ مكتومة، ورفع إحدى يدَي الرجل المطويَّتَين. فسقطت مثل كتلةِ وزنٍ رصاصيَّة عندما تركَها برايس، فدفع وجهَ الرجل إلى الخلف ونظر إليه بتمعُّن. وفي تلك اللحظة عرَف أنه للمرة الثانية في غضون أسبوعَين، قد وجد رجلًا ميتًا في رايتشستر بارادايس.

لم يكن هناك أيُّ شك في أن الرجل قد مات. كان جسده ويداه لا تزال دافئتين — لكنه لم يكن يتنفَّس؛ لقد كان ميتًا مثلَ جميع الموتى الذين يرقدون حوله تحتَ شواهد القبور القديمة بستةِ أقدام. وقد علِم برايس من خلال لمسته وعينه الخبيرتَين أنه قد مات للتو — وأنه قد مات أثناء نومه. كل شيء هناك يشير بشكلٍ لا لبسَ فيه إلى ما حدث. لقد أكل الرجلُ غداءه الرَّخيص، وساعد على بَلعِه بالشرب من قارورته المَعدنية، وأشعل غليونه، ثم انحنى إلى الوراء في ضوء الشمس الدافئ، واستغرق في النوم — ومات بهدوءٍ مثل طفل نام بعد اللعب.

بعد نظرة فاحصة أخرى، استدار برايس وسار عبر الأشجار إلى المسار الذي يَعبُر فِناء المقابر العتيق. وهناك وجد ديك بيوري، الذي كان ذاهبًا إلى المنزل على مهلٍ لتناول الغداء، والذي أخذ ينظر إلى الطبيبِ الشابِّ بفضول.

ومن ثَم صاح مع تحرُّر الشباب تجاهَ مَن هم في سنٍّ لا يكبرهم بالكثير من السنين: «مرحبًا!» ثم أضاف: «أأنت هنا؟ كيف حالك؟»

ثم نظر بوضوحٍ أكثر، فرأى برايس شاحبًا ومنفعلًا. وضع برايس يدَه على ذراع الفتى.

وقال: «انظر هنا!» ثم أردف: «هناك مشكلةٌ — مرة أخرى! — هنا. أسرِع إلى مركز الشرطة — وأبلِغ ميتشينجتون — بهدوء، هل تفهم! — وأحضِرْه إلى هنا في الحال. إذا لم يكن هناك، فأحضِر شخصًا آخر — أيًّا من رجال الشرطة. لكن لا تقُل شيئًا لأيِّ شخص غيرهم.»

ألقى عليه ديك نظرةً سريعة أخرى، ثم استدار، وركَض. وعاد برايس إلى الرجل الميت — والتقط القارورةَ المعدنية، وسكب القليلَ ممَّا فيها في راحة يدِه اليسرى. فوجَدها تحتوي على الشاي البارد! — وبقدرِ ما يستطيع أن يُدرك، لا شيء غير ذلك. لقد وضع طرَفَ إصبَعِه الصغير في المشروب ذي المظهر الضعيف، وتذوَّق — فوجد طعمها يحتوي على قدْرٍ كبير من السُّكر.

وقف هناك، يُراقب القتيل حتى نبَّهه صوتُ خُطًى خلفه إلى عودة ديك بيوري، الذي، في دقيقة أخرى، سارع عبر الشجيرات، يتبعُه ميتشينجتون. حدَّق الفتى في صمتٍ إلى الجسد الذي يجلس بلا حَراك، لكن المفتش، بعد نظرة سريعة، استدار نحو برايس وقد علَت وجهَه علاماتُ الصدمة.

وقال بانفعالٍ: «يا إلهي!» ثم تابع: «إنه كوليشو!»

فَشِل برايس في تلك اللحظة في فَهمِ ذلك، وهز ميتشينجتون رأسه.

وهو يُكرر: «كوليشو!» ثم أردفَ: «كوليشو، ألا تذكُر؟! إنه الرجل الذي أخبرتُك عنه بعد ظهرِ أمس. الرجل الذي قال ...»

توقَّف ميتشينجتون فجأةً عن الكلام، وهو يُلقي نظرةً على ديك بيوري.

فقال برايس: «إنني أتذكَّر الآن.» ثم أردف: «عامل البناء المُساعد! إذن — هذا هو الرجل، أليس كذلك؟ حسنًا، يا ميتشينجتون، لقد مات — لقد وجدتُه ميتًا، للتو. في رأيي إنه قد مات منذ خمس إلى عشْرِ دقائق — ليس أكثر. من الأفضل أن تحصل على المساعدة — وأودُّ أن يفحصه طبيبٌ آخر قبل نقله من هنا.»

نظر ميتشينجتون مرةً أخرى إلى ديك.

وسأله: «هل يُمكنك أن تجلب دكتور رانسفورد، يا سيد ريتشارد؟» ثم أردف: «إنه الأقرب.»

فقال ديك: «إن دكتور رانسفورد ليس في المنزل.» ثم أضاف: «لقد ذهب إلى هايمينستر — من أجل شأنٍ خاصٍّ بمجلس المقاطعة أو ما شابهَ — في الساعة العاشرة

من هذا الصباح، ولن يعود حتى الرابعة — لقد تصادف أن عرَفتُ ذلك. هل أذهب لاستدعاء دكتور كوتس؟»

قال ميتشينجتون: «إذا كنت لا تُمانع، ولأن مركز الشرطة قريبٌ من هنا، اذهب إلى هناك مرةً أخرى وأخبِر الرقيب أن يأتيَ إلى هنا مع رجلَيْ شرطة.» وتابعَ، بعد أن ابتعد الفتى مسرعًا: «يا إلهي! إن هذا أمرٌ غريب، يا دكتور برايس! ما رأيك؟»

أجاب برايس: «أعتقد ذلك.» ثم أضاف: «هذا الرجل — انظر إليه! — الذي هو رجل قوي، يتمتَّع بصحة جيدة، في مقتبل العمر قد لقيَ هذا الرجلُ حتفه بعملٍ إجرامي. أرجو أن تهتمَّ بشكل خاصٍّ ببقايا غدائه هذه — بكل قطعة صغيرة — وبالقارورة المعدنيَّة تلك. هذه، على وجه الخصوص. خذ كلَّ هذه الأشياء بنفسك، يا ميتشينجتون، وتحفَّظْ عليها — سيتطلب الأمرُ فحصها جميعًا.»

نظر ميتشينجتون نحو الأشياء البسيطة التي أشار إليها برايس. وفجأةً ألقى بنظرةٍ شبه مذعورة على رفيقه.

وسأله: «أنت لا تقصد أن تقول إنك ... إنك تشكُّ في أنه قد تعرَّض للتسمُّم، أليس كذلك؟» ثم أردفَ: «يا إلهي، إذا كان الأمر كذلك ...»

أجاب برايس: «لا أعتقد أنك ستجد أن هناك الكثير من الشك حول ذلك.» وتابع: «لكن هذه نقطةٌ ستُحسم قريبًا. من الأفضل أن تُخبِر قاضيَ التحقيق في الحال، يا ميتشينجتون، وسيُصدر أمرًا رسميًّا للطبيب كوتس كي يُجرِيَ تشريحًا للجثة.» ثم أضاف بنحوٍ جدِّي: «وسأتفاجأُ إذا لم يكن سببُ الوفاة كما أقول — السُّم!»

قال ميتشينجتون، وهو يهزُّ رأسَه في غضب: «إذا كان الأمرُ كذلك، إذا كان كذلك حقًّا، فأنا أعرف كيف سأنظرُ للأمر! جريمة القتل هذه!» وتابع مشيرًا إلى الرجل الميت: «جريمة القتل هذه ... تكملة للجريمة الأخرى. كان هناك شيءٌ فيما قاله الشابُّ المسكين — لقد كان يعرف شيئًا ضد شخصٍ ما، وعلِم ذلك الشخصُ بالأمر — فقام بإسكاته. لكن، يا إلهي، كيف يُمكن أن يحدث ذلك، يا دكتور؟»

قال برايس: «أستطيع أن أُفسِّر كيف يُمكن القيامُ بذلك، بسهولة للغاية.» وتابع: «من الواضح أن هذا الرجل كان يعمل هنا بمفرده طوال الصباح. وبالطبع قد أحضر غداءه معه. ولا شكَّ أنه وضع سلتَه وزجاجته في مكانٍ ما، قبل قيامه بعمله. ومن السهل أن يقتربَ شخصٌ ما من خلال هذه الأشجار والشجيرات من خلف ظهر الرجل، أو بينما هو مشغولٌ حول إحدى هذه الزوايا، ويضَع بعض السمِّ القاتل في تلك الزجاجة؟ إنه أمرٌ في غاية السهولة!»

قال ميتشينجتون: «حسنًا، إذا كان الأمر كذلك، فإنه يُثبت شيئًا آخر — في رأيي.»

سأله برايس: «ما هو؟»

أجاب ميتشينجتون: «أيًّا كان مَن فعل ذلك فهو شخصٌ لديه معرفة بصُنع السُّم!» ثم أضاف: «وفي رأيي أنه لا يوجد الكثيرُ من الناس في رايتشستر ممَّن لديهم مثلُ هذه المعرفة سِوى أنتم كأطباء وكذلك الصيادلة. إنه عملٌ خطير!»

أومأ برايس برأسه في صمت. وانتظر حتى وصل الطبيبُ كوتس، وهو رجل مسنٌّ يُعَد الممارِسَ العامَّ الرئيسي في المدينة، وقدَّم له وصفًا دقيقًا لاكتشافه. وبعد أن نقلَت الشرطة الجثة، ورافق هو ميتشينجتون إلى مركز الشرطة ورأى القارورةَ المعدنية وبقايا غداءِ كوليشو متحفَّظًا عليها بأمانٍ، ذهب إلى المنزل لتناوُل الغداء، وهو يتساءل عن هذا التطور الغريب. كان المفتش محقًّا بلا شك في قوله إن شخصًا ما أراد إسكات كوليشو فقَتَله — ولكن مَن يُمكن أن يكون هذا الشخص؟ تحولَت أفكار برايس على الفور إلى حقيقةِ أن رانسفورد قد سمِع كلَّ ما قاله ميتشينجتون، في تلك الغرفة بالذات التي كان يجلس فيها، برايس نفسه، ليتناولَ الغداء — رانسفورد! هل من الممكن أن رانسفورد قد أدركَ وجود خطرٍ في معلومات كوليشو، ومِن ثَم أقدم على ...؟

في تلك اللحظة قاطعَ تفكيرَه ميتشينجتون، الذي جاء على عجلٍ بوجه مذعور.

وهمس بمجرَّد أن أغلقَت مالكةُ منزل برايس البابَ عليهما قائلًا: «يا للعجب، يا للعجب!» ثم تابع: «هناك معلومة مهمة! لقد سمعت شيئًا ... شيئًا لا أستطيع أن أُصدِّقه — لكنه حقيقي. لقد ذهبت لأُخبر عائلة كوليشو بما حدث. وأنا مصدومٌ من المعلومة — لكنها حقيقة — إنها كذلك!»

سأله برايس في حدَّة: «ما الذي كذلك؟» ثم أضاف: «ما هي المعلومة الحقيقية؟»

انحنى ميتشينجتون مقتربًا من الطاولة.

ثم قال: «لقد استُدعي دكتور رانسفورد إلى كوخ كوليشو في الساعة السادسة من صباح هذا اليوم!» ثم أردف: «يبدو أن زوجة كوليشو كانت في حالةٍ صحِّية سيئة مؤخرًا، وكان دكتور رانسفورد يُتابع حالتها من وقتٍ لآخر. وقد أُصيبت بنوعٍ من الأزمات المفاجئة هذا الصباحَ — في وقتٍ مبكر — فأرسَلوا لاستدعاء رانسفورد من أجلها. وقد ظلَّ هناك مدةً قصيرة — وقد سمعتُ بعض الأشياء الغريبة.»

سأله برايس في حدَّة: «أيُّ نوع من الأشياء الغريبة؟» ثم أردف: «لا تخَفْ من التحدُّث علانيةً، يا رجل! — ليس هناك مَن يُمكنه أن يسمعَك إلا أنا.»

تابع ميتشينجتون، الذي كان من الواضح أنه منزعجٌ للغاية: «حسنًا، الأشياء التي تبدو مثيرةً للرِّيبة، في ظاهرها.» ثم أردف: «كما ستُقرُّ عندما تسمعها. لقد حصلتُ على معلوماتي من الجارة في الكوخ المجاور، السيدة باتس. تقول السيدة باتس إنه عندما جاء رانسفورد — الذي استدعاه الابنُ الأكبر للسيدة باتس — إلى منزل كوليشو، كان كوليشو يُعِد غَداءه كي يأخذَه معه إلى عمله ...»

قاطعه برايس: «عجبًا، ما الذي جعل السيدة باتس تُخبركَ بذلك؟»

أجاب ميتشينجتون: «أوه، حسنًا، في الحقيقة، لقد طرحتُ عليها بعض الأسئلة حول ما حدث عندما كان رانسفورد في المنزل.» وتابع: «إذ بمجردِ أن اكتشفتُ أنه كان هناك، كما تعلم، أردتُ بطبيعة الحال أن أعرفَ كلَّ ما يُمكنني معرفتُه من معلومات.»

سأله برايس: «حسنًا، وإلى ماذا توصَّلت؟»

تابع ميتشينجتون: «كان كوليشو، كما قلت، يُعِد غَداءه ليأخذَه معه إلى عمله.» ثم أضاف: «وكانت السيدة باتس مشغولةً بأمرٍ ما أو اثنَين في المنزل. وصعد رانسفورد إلى الطابق العلوي للكشف على زوجة كوليشو. وبعد مدةٍ نزل وقال إن عليه أن يبقى قليلًا. وصعد كوليشو للتحدُّث مع زوجته قبل أن يُغادر. وعندئذٍ طلب رانسفورد من السيدة باتس إحضار شيءٍ ما — نسيت ما هو — شيء صغير غير موجود لدى عائلة كوليشو، فذهبت إلى المنزل المجاور لجلبِه. ومن ثَم — هل تُدرك ما حدث؟ — لقد تُرك رانسفورد بمفرده مع زجاجة كوليشو المعدنية!»

نظر برايس، الذي كان يستمع باهتمام، إلى المفتش بثبات.

وقال: «أنت تشتبهُ في رانسفورد بالفعل!»

هز ميتشينجتون رأسه.

وأجاب، بنحو شبهِ متوسل: «كيف يبدو لك الأمر؟» ثم أردف: «لقد أوضحتُه لك الآن! — فكيف يبدو لك؟ ها هو هذا الرجل قد تسمَّم دون أدنى شكٍّ — وأنا متأكدٌ من ذلك. وكانت هناك تلك الشائعات؛ من العبث إنكارُ أنها تركزَت على رانسفورد. وهذا الصباح سنَحَت الفرصة لرانسفورد!»

قال برايس على نحوٍ شبهِ ساخر: «هذا يُشير إلى أن رانسفورد حملَ معه عن عمدٍ جرعةً من السُّم لوضعِها في زجاجة كوليشو المعدنية!» وأردف: «وهو احتمالٌ بعيد، كما تعلم، يا ميتشينجتون.»

بسَط ميتشينجتون يدَيه.

وقال: «حسنًا، هذا هو واقع الأمر!» ثم أردفَ: «مثلما أظن، لا يمكن إنكارُ المظهر المثير للشبهات فيه. وإذا كنت فقط متأكدًا من أن تلك الشائعات، حول ما ألمحَ إليه كوليشو من أنَّ لديه سرًّا يُخفيه بخصوص جريمة القتل، قد وصلت إلى أذنَيْ رانسفورد! — بالقطع، عندئذٍ …»

سأله برايس: «ما الذي وصَلتم إليه بخصوص عملية تشريح الجثة؟»

أجاب ميتشينجتون: «سيُجريها دكتور كوتس ودكتور إيفرست بعد ظُهر اليوم.» ثم أضاف: «لقد ذهب إليهما قاضي التحقيق في الوفَيَات على الفور، بمجرد أن أخبرته.»

قال برايس: «ربما سيتعيَّن عليهما استدعاءُ خبيرٍ من لندن.» ثم أردف: «ومع ذلك، لا يُمكنك فعلُ أيِّ شيء محدَّدٍ، كما تعلم، حتى تُعلَن النتيجة. لا تقل أيَّ شيء من هذا لأيِّ شخص. سآتي إلى مقرِّ عملك لاحقًا وأعرفُ منك ما إذا كان بإمكان كوتس بالفعل التوصلُ لأي شيء مؤكد.»

ومن ثَم انصرف ميتشينجتون، وقضى برايس بقيةَ وقتِ ما بعد الظهر في التساؤل، والتكهُّن، والتخطيط. إذا كان رانسفورد قد تخلَّص حقًّا من هذا الرجل الذي كان يعرف شيئًا — فبالقطع، إذن، كان رانسفورد هو مَن قتَلَ برادن.

وبعد ذلك ذهب إلى مركز الشرطة في الساعة الخامسة. فأخذه ميتشينجتون جانبًا.

وقال هامسًا: «كوتس يقول إنه ليس هناك شكٌّ في سبب الوفاة!» وتابع: «لقد تُوفِّي مسمومًا! باستخدام حمض الهيدروسيانيك!»

الفصل الثالث عشر

برايس يُسأل سؤالًا

انتقل ميتشينجتون إلى غرفةٍ خاصة، وأشار إلى برايس لِيَتبعَه. وأغلق الباب بحذرٍ، ونظر بتمعُّنٍ إلى رفيقه، وكرَّر كلماته الأخيرة، مع هزِّ رأسه.

وهمس قائلًا: «لقد تُوفي مسمومًا! — دون أدنى شك.» ثم أردف: «باستخدام حمض الهيدروسيانيك — الذي، حسَبما أفهم، هو الشيء نفسُه الذي يُعرف بحمض البروسيك. وهما يقولان إنهما لم يَجِدا أيَّ صعوبة في اكتشاف ذلك! وهكذا قُضي الأمر.»

سأله برايس: «هذا ما قاله لك كوتس، بالطبع؟» ثم أردف: «بعد تشريح الجثَّة؟»

أجاب ميتشينجتون: «أخبرَني كلاهما — كوتس، وإيفرست، الذي ساعده.» ثم أضاف: «قالا إن الأمر كان واضحًا منذ البداية. و... يا للعجب!»

قال برايس: «ماذا؟»

قال ميتشينجتون، الذي كان من الواضح أنه متحيِّر بسبب الغموض المُحيط بالقضية: «لم يكن في تلك القارورة المعدنية، على أيِّ حال.»

قال برايس مؤكدًا: «لم يكن كذلك! — بالطبع لم يكن كذلك!» ثم أردف: «يا إلهي، يا رجل — أنا أعرف ذلك!»

سأله ميتشينجتون: «كيف علمتَ بذلك؟»

أجاب برايس على الفور: «لأنني سكبتُ بضع قطراتٍ من تلك القارورة في يدي عندما عثرتُ على كوليشو لأول مرةٍ وتذوقتُ ما بداخلها.» وتابع: «شاي بارد! مع الكثير من السكر. ولم يكن فيه حمضُ هيدروسيانيك حيث، أينما وُجدت تلك المادة السامَّة، تنبعث منها دائمًا رائحة قوية أو ضعيفة — تُشبه رائحة اللوز المر. ولم يكن هناك رائحةٌ في تلك القارورة.»

قال ميتشينجتون: «ومع ذلك كنت مهتمًّا جدًّا بأن نفحص ما بداخل القارورة؟»

أجاب برايس على الفور: «بالطبع! — لأنني اشتبهتُ في استخدامِ سُمٍّ أندرَ من ذلك بكثير.» ثم أضاف: «يا للسخف! — إنها طريقة خرقاءُ لتسميم أي شخص! — رغم أنها سريعة.»

قال ميتشينجتون: «حسنًا، هذا هو واقع الأمر!» وتابع: «سيُصبح هذا هو الدليلَ الطبي في جلسة التحقيق الخاصة بأسباب الوفاة، على أي حال. هكذا تم ذلك. والسؤال الآن هو ...»

قاطعه برايس: «مَن فعلَها؟» ثم أردف: «بالضبط! حسنًا — سأردُّ على هذا على الفور، يا ميتشينجتون. أيًّا كان مَن فعل ذلك فهو إما غبيٌّ كبير أو ذكيٌّ ملعون! هذا هو رأيي حول هذه الجريمة!»

قال ميتشينجتون: «أنا لا أفهمك.»

أجاب برايس مبتسمًا: «إن ما أعنيه واضحٌ بما فيه الكفاية.» ثم أردف: «إنَّ قتلَ أيِّ شخص بهذه المادة أمرٌ سهل للغاية — ولكن لا يوجد سمٌّ يمكن اكتشافه بسهولة أكبرَ من هذا. إنها طريقةٌ ساذَجة لتسميمِ أيِّ شخص — إلا إذا كنتَ تستطيع أن تفعل ذلك بطريقةٍ لا يمكن لأي شكٍّ أن يربطَك بها. وفي هذه القضية — من المؤكد أن مَن وضع هذا السمَّ لكوليشو كان متأكدًا — متأكدًا تمامًا، ضع هذا في اعتبارك! — من أنه يستحيلُ على أي شخص أن يكتشفَ أنه هو مَن فعل ذلك. لذلك، أقول ما قلته — من المؤكَّد أن هذا القاتلَ ماهر ملعون. وإلا، سيُكتشَف بسرعة كبيرة. وكلُّ ما يُحيرني هو: كيف وُضع السم؟»

سأل ميتشينجتون: «ما المقدار الذي يُمكن أن يقتل أيَّ شخص — بسرعة كبيرة؟»

أجاب برايس: «ما المقدار؟ إنَّ قطرةً واحدة تُسبِّب الموت الفوري!» وأردف: «تُسبب شللَ القلب، في التو واللحظة، على الفور!»

ظل ميتشينجتون صامتًا بعضَ الوقت، وهو ينظر بتأملٍ إلى برايس. ثم التفت إلى درج مقفل، وأخرج مِفتاحًا، وأخذ شيئًا من الدرج — شيئًا صغيرًا، ملفوفًا بالورق.

وقال: «سأُخبرك بشيءٍ مهمٍّ يا دكتور.» وتابع: «بينما أنت تعلمُ الكثير بالفعل، سأخبرك أكثر قليلًا. انظر إلى هذا!»

فتح يده وأظهر لبرايس علبةَ دواء صغيرة مصنوعة من الورق المقوَّى، كُتب على وجهها بضعُ كلمات — «حبَّة واحدة بعد الوجبات — السيد كوليشو.»

سأل ميتشينجتون: «خطُّ يدِ مَن هذا؟»

نظر برايس عن قرب، وجفل.

وردَّ مُغمغمًا: «خط رانسفورد!» وتابع: «رانسفورد — بالتأكيد!»

قال ميتشينجتون: «كانت هذه العلبةُ في جيب صدرية كوليشو.» وأضاف: «هناك حبوبٌ بداخلها. انظر!» ونزع غطاء العلبة وكشف عن أربع حبات مغلَّفة بالسكَّر. ثم قال: «إنها لن تتسعَ لأكثرَ من ست حبات.»

استخرج برايس حبةَ دواء واشتمَّ رائحتها، بعد أن كشط القليلَ من طبقة السكر.

وقال: «هذه مجردُ حبوبٍ للهضم.»

فسأل ميتشينجتون: «هل يُمكن أن يكون السمُّ قد وُضع في واحدة من تلك الحبوب؟»

أجاب برايس: «من الممكن.» ثم وقف يُفكر لحظةً. وسأل في النهاية: «هل عرَضتَ هذه الحبوبُ على كوتس وإيفرست؟»

أجاب ميتشينجتون: «ليس بعد.» وتابع: «أردتُ أن أعرف، أولًا، ما إذا كان رانسفورد قد أعطى هذه العلبةَ إلى كوليشو، ومتى. أنا ذاهب إلى منزل كوليشو الآن — لديَّ تحريات معيَّنة يجب إجراؤها. من المؤكَّد أن أرملته لديها معلوماتٌ عن هذه الحبوب.»

قال برايس: «أنت تشتبهُ في رانسفورد.» وأردف: «هذا مؤكد!»

وضع ميتشينجتون علبة الدواء بعنايةٍ في الدرج وأعاد غلقه.

ثم قال: «لديَّ بعض الأفكار غير المريحة بالتأكيد — التي أُفضِّل عدمَ وجودها — حول دكتور رانسفورد.» وتابع: «عندما يبدو أن هناك شيئًا يتناسبُ مع شيء آخَر، كيف سيُفكر المرء؟ إذا كنت متأكدًا من أن تلك الشائعةَ التي انتشرَت، حول معرفة كوليشو بشيءٍ ما — كما تعلم، قد وصلَت إلى أذنَيْ رانسفورد — بالقطع، يجب أن أقول إن الأمر يبدو تمامًا كما لو أن رانسفورد أراد إخراسَ لسانِ كوليشو للأبد قبل أن يتمكَّن من قول المزيد — وربما، في المرة القادمة شيء محدَّد. إذا بدأ الرجال في التلميح إلى أنهم يعرفون شيئًا ما، فلن يتوقَّفوا عند التلميح. ربما كان على كوليشو أن يتحدَّث بصراحةٍ قبل مُضيِّ مدة طويلة — معنا!»

سأل برايس سؤالًا عن عقد جلسة التحقيق وغادر. وبعد بعض التفكير، استدار في اتجاه الكاتدرائية، وشقَّ طريقه عبر منطقة الأديرة القديمةِ متجهًا إلى كلوس. كان على وشك القيام بحركةٍ أخرى في لعبته الخاصة، بينما كانت هناك فرصةٌ جيدة. كان كل شيء في هذه المرحلة يرمي أوراقًا ممتازةً في يده — كان يعتقد أنه من الحماقة عدمُ استغلالها لصالحه. وهكذا توجَّه مباشرةً إلى منزل رانسفورد، وقبل أن يصلَ إليه، التقى

برانسفورد وماري بيوري، اللذَين كانا يسيران عبر كلوس من نقطةٍ أخرى، عائدَين من محطة السكة الحديد، حيث ذهبَت ماري خِصِّيصى لمقابلة وصيِّها. وكانا في وسط محادثة عميقة لدرجةِ أن برايس قد اقترب منهما قبل أن يُلاحظا وجوده. وعندما رأى رانسفورد مساعده السابق، عبس تلقائيًّا — حيث كان يُفكر في برايس، والمقابلة التي أجراها معه فيما بعد الظهر اليوم السابق، طَوال اليوم، وكان لديه شعورٌ غيرُ مريح بأن برايس يلعب لعبةً ما. وسرعان ما لاحظَ برايس ذلك العُبوس — وكذلك الإجفالَ المفاجئ الذي لم تستطِع ماري كبْحَه — وكان سريعًا في بدءِ الحديث معهما.

قال بهدوء: «كنتُ ذاهبًا إلى منزلك، يا دكتور رانسفورد.» ثم أضاف: «أنا لا أريد أن أفرضَ نفسي عليك، الآن أو في أيِّ وقت — ولكن أعتقد أنه من الأفضل أن تمنحَني بضع دقائق.»

كانوا قد وصَلوا عند بوابة حديقة رانسفورد في ذلك الوقت، ففتحها رانسفورد وأمرَ برايس بأن يتبعه. وقاده عبرَ الطريق إلى غرفة الطعام، وأغلق البابَ على ثلاثتهم، ثم نظر إلى برايس. اعتبر برايس النظرةَ سؤالًا، فطرح هو سؤالًا آخر، بالكلمات.

حيث قال: «هل سمعتَ بما حدث اليوم؟»

أجاب رانسفورد: «بخصوص كوليشو — أجل.» وتابع: «لقد أخبرَتني الآنسة بيوري لتوها — بما قاله لها شقيقُها. ماذا في ذلك؟»

قال برايس: «لقد جئتُ لتوي من مركز الشرطة.» وأضاف: «وقد أجرى كوتس وإيفرست تشريحًا للجثة بعد ظهرِ اليوم. وقد أخبرني ميتشينجتون بالنتيجة.»

سأله رانسفورد، دونَ أيِّ محاولة لإخفاءِ نفادِ صبره: «حسنًا؟» ثم أضاف: «وماذا كانت؟»

أجاب برايس وهو يُراقب رانسفورد بتمعُّن لاحظَته ماري: «لقد مات كوليشو مسمومًا.» وأردف: «بحمض الهيدروسيانيك. ولا شكَّ في ذلك على الإطلاق.»

سأله رانسفورد، بنفادِ صبرٍ أكبر: «حسنًا؟ — وماذا بعد؟» ثم أضاف: «ولأكونَ صريحًا، ما علاقة كل هذا بي؟»

أجاب برايس: «جئتُ إلى هنا لأقدِّم لك خدمة.» وأردف: «وما إذا كنتَ ترغب في قَبولها أو لا، فهذا شأنك. ربما تعرف أنك في خطر. كوليشو هو الرجل الذي ألمحَ — كما سمعتُما أمسِ في شقتي — إلى قدرته على إفشاء سرٍّ بخصوص قضية برادن — إذا كان يريد ذلك.»

قال رانسفورد: «حسنًا؟»

قال برايس: «إن الشرطة على علمٍ بأنك كنتَ في منزل كوليشو في وقتٍ مبكرٍ من هذا الصباح.» ثم أضاف: «يعرف ميتشينجتون ذلك.»

ضحك رانسفورد.

وسأله: «وهل يعرف ميتشينجتون أنني سمعتُ ما قاله لك، بعد ظهر أمس؟»

أجاب برايس: «كلا، لا يعرف.» وتابع: «لا يمكن أن يعرفَ ما لم أُخبِره. وأنا لم أُخبره — ولن أخبره. لكن إنه يشتبهُ بالفعل.»

قال رانسفورد مع ضحكةٍ أخرى: «يشتبهُ بي بالطبع.» ثم استدار عبر الغرفة وفجأةً واجه برايس، الذي ظل واقفًا بالقرب من الباب. وانفجر قائلًا: «هل تقصد حقًّا أن تُخبرني بأن ميتشينجتون أحمقُ لدرجة الاعتقاد بأنني سأسمِّم رجلًا عاملًا فقيرًا — وبهذا الأسلوب الأحمق؟» ثم أضاف: «بالطبع أنت لا تقصد ذلك.»

أجاب برايس: «أنا لم أقُل قطُّ إنني أقصد ذلك.» وتابع: «أنا أخبرك فقط بما يعتقدُ ميتشينجتون أنها أسبابٌ للشك. لقد أسرَّ لي بذلك لأني كنت مَن وجد جثة كوليشو. ويوجد بحوزة ميتشينجتون علبةُ دواءٍ للهضم مِن الواضح أنك أعطيتَها لكوليشو.»

صاح رانسفورد: «يا للسخف!» وأردفَ: «هذا الرجل أحمق! دَعْه يأتِ ويتحدَّثْ معي.»

قال برايس: «لن يفعلَ ذلك — الآن.» وتابع: «لكنني أخشى أن يكشف عن كلِّ هذا في جلسة التحقيق. والحقيقة هي أنه يشتبهُ — بسبب أمرٍ أو آخرَ — بك فيما يتعلق بالقضية السابقة. إنه يعتقد أنك أخفيتَ الحقيقة — أيًّا كانت — فيما يخصُّ معرفتك ببرادن.»

قال رانسفورد فجأةً: «سأُخبرك فيما يشتبهُ!» وتابع: «إن الأمر كالتالي؛ إنه يشتبهُ في أنَّ لي يدًا — أو أنَّني مَن تسببَ، إذا أردتَ! — في وفاةِ برادن، وأنني الآن مَن تخلَّصَ من كوليشو لأن كوليشو يُمكن أن يُثبت أنني مَن تسبَّب في وفاة برادن. هذا هو ما يظنُّه!»

قال برايس موافقًا: «هذه طريقةٌ واضحة لوصف الأمر، بالتأكيد.» وأردف: «لكن هناك طريقة واضحة جدًّا، أيضًا، لتبديدِ أيٍّ من هذه الأفكار.»

سأله رانسفورد في حدَّة: «أيُّ طريقة؟»

قال برايس مقترحًا: «إذا كنت تعرفُ بالفعل أيَّ شيء عن قضية برادن، فلماذا لا تكشفُ عنه، وتنتهي من الأمر برمَّته.» ثم أردف: «هذا من شأنه أن يُنهي الأمر.»

ألقى رانسفورد نظرةً طويلة صامتة على سائله. ونظر برايس إليه بالمثل، وراقبَت ماري بيوري كِلا الرجُلَين بقلق.

ثم قال رانسفورد أخيرًا: «إن هذا شأنٌ خاص بي.» وأضاف: «وأنا لا أقبلُ مِن أحد أن يجبرني أو يُهددني أو يتملَّقني. أنا ممتنٌّ لك لأنك أعطيتَني تلميحًا عن خطرٍ يُحدق بي، على ما أظن! وأنا لستُ مجبرًا على أن أقول أكثرَ من ذلك.»

قال برايس: «وأنا كذلك.» ثم أضاف: «لقد جئتُ فقط لأخبرك.»

وهنا، بعد أن نجحَ برايس في القيام بكلِّ ما يريد القيامَ به، خرج من الغرفة والمنزل، وراقبَه رانسفورد، بينما كان يقف في النافذة ويداه في جيبَيه، وهو يرحل بعيدًا عبر كلوس.

قالت ماري بهدوءٍ: «يا سيدي!»

فاستدار رانسفورد بحدَّة.

وتابعَت حديثها في توتُّر: «ألن يكونَ من الأفضل، إذا ... إذا كنتَ تعرف أيَّ شيء عن ذلك الرجل البائس — أن تُفصِحَ عنه؟ لماذا تترك الشكوك تحومُ حولك هكذا؟»

بذل رانسفورد جهدًا لتهدئة نفسِه. كان غاضبًا بشدة — غاضبًا من برايس، وغاضبًا من ميتشينجتون، وغاضبًا من سحابة الحماقة والغباء التي بدا أنَّها تتراكم.

وسألها: «لماذا ينبغي عليَّ — بافتراضِ أنني أعرف شيئًا ما، وهو الأمر الذي لا أُقره — لماذا ينبغي عليَّ أن أسمح لنفسي بأن يجبرَني ويُخوفني هؤلاء الحمقى؟» وتابع: «لا أحدَ يستطيع أن يمنع أن تُثار الشكوك حوله — إنه سوءُ حظي الذي أوقعَني في تلك الدائرة في هذه الحالة. لماذا ينبغي أن أُهرَع إلى مركز الشرطة وأقول: «ها أنا ذا، سأُفصح عن كلِّ ما أعرف؛ كل شيء!» لماذا؟»

سألَته: «ألن يُصبح هذا أفضلَ مِن معرفة أن الناس يُشيعون عنك أشياء؟»

أجاب رانسفورد: «بخصوص ذلك، لا يُمكنك منعُ الناس من إشاعةِ أشياءَ عنك — خاصة في مدينةٍ مثل هذه. ولولا الحقيقةُ المؤسفة أن برادن جاء إلى باب العيادة، لَما أُشيع شيء. لكن ما المشكلة في ذلك؟ لقد عرَفتُ مئات الرجال طوال حياتي، أجل، ونسيتهم! كلَّا! لن أقعَ ضحيةً لهذه الخدعة، كل هذا ينبعُ من الفضول. وبخصوص هذه القضية الأخيرة، فكل هذا هُراء!»

قالت ماري: «لكن إذا كان الرجل قد تسمم حقًّا؟»

قال رانسفورد بابتسامةٍ جدية: «لِندَعِ الشرطةَ تجد الفاعل!» ثم أردف: «هذا هو عملهم.»

لم تقُل ماري شيئًا للحظة، وتحرَّك رانسفورد بقلقٍ في الغرفة.

ثم قال فجأة: «أنا لا أثقُ في ذلك الرجل المسمَّى برايس.» وتابع: «إنه يُخطِّط لشيءٍ ما. أنا لا أنسى ما قاله عندما طردتُه في ذلك الصباح.»

سألته: «ماذا قال؟»

أجاب رانسفورد: «إنه سيُصبح عدوًّا سيئًا.» ثم أضاف: «وهو يتظاهر الآن بأنه صديقٌ — لكن عندما يقوم الرجل بما قد تُسمينه أفعالَ الصداقة غيرَ الضرورية، فإن هذا يدفع إلى الشك في حقيقةِ نواياه. وأنا قد أسمح لأي شخص بالتدخل في شئوني — شئونك — ما عدا بيمبرتون برايس!»

قالت: «وأنا كذلك!» وأردفَت: «ولكن ...»

توقَّفت عن الكلام لحظةً ثم نظرَت بتوسُّل إلى رانسفورد.

وقالت: «أتمنى لو تُخبرني بما قد وعَدتَ أن تُخبرني به.» وتابعَت: «أنت تعرف ما أعنيه — عني وعن ديك. بنحوٍ ما، أنا لا أعرف كيف أو لماذا بالضبط لديَّ شعورٌ غير مريح بأن برايس يعرف شيئًا ما، وأنه يخلط كلَّ ذلك مع هذا الأمر! فلماذا لا تُخبرني من فضلك؟»

رانسفورد، الذي كان لا يزال يسيرُ في أرجاء الغرفة، توقَّف ووضع يدَيه على الطاولة، ونظر إليها بجدِّية.

وقال: «لا تسألي عن هذا الأمر الآن!» وتابع: «أنا لا أستطيعُ فعل ذلك الآن. الحقيقة هي أنني أنتظر شيئًا — بعض التفاصيل. وبمجرد أن أحصلَ عليها، سأتحدَّث إليكِ، وإلى ديك. في غضون ذلك، لا تسأليني عنه مرةً أخرى، ولا تخافي. وبخصوص هذه القضية، اتركي الأمر لي، وإذا قابلتِ برايس مرةً أخرى، ارفُضي مناقشةَ أي شيء معه. انظري هنا! — هناك سببٌ واحد فقط لادِّعائه الصداقةَ والرغبةَ في إنقاذي من المشاكل. وهو ظنُّه أنه يستطيع بهذا أن يكسبَ وُدَّكِ!»

تمتمَت ماري وهي تهزُّ رأسها: «إنه مخطئ في ظنه!» ثم أردفَت: «أنا لا أثقُ به. وأصبحتُ كذلك أكثرَ من أي وقتٍ مضى بسبب ما حدثَ أمس. فهل يُمكن أن يفعل الرجلُ الأمين ما فعلَه؟ أن يدعَ مفتش الشرطة هذا يتحدَّثُ بحرية، كما فعل، مع إخفاء بعض الأشخاص خلف ستارة؟ وبعد ذلك أن يضحك على ذلك؟! كرهتُ نفسي لوجودي هناك — ولكن هل كان من الممكن فِعلُ أي شيء؟»

قال رانسفورد: «لن أكرهَ نفسي بسبب بيمبرتون برايس.» ثم أضاف: «دعيه يلعب لُعبته — فأنا متأكدٌ من أن لديه واحدةً.»

ذهب برايس لمواصلة لعبته — أو مرحلة أخرى منها. إذ لم تجعله قضيةُ كوليشو ينسى مقبرة ريتشارد جينكينز، والآن، بعد مغادرة منزل رانسفورد، سار عبر كلوس متجهًا نحو بارادايس بهدفِ إجراء المزيدِ من التحقيقات. لكن عند ممرِّ الفِناء العتيقِ المُقنطَر، قابل سمبسون هاركر العجوز، الذي كان يتسكَّع بأسلوبه المعتاد الذي يبدو بلا هدف. وابتسم هاركر عندما رأى برايس.

وقال: «حسنًا، كنتُ أريد أن أتحدَّثَ معك يا دكتور!» وأردف: «إنه أمرٌ مهم. هل لديك دقيقةٌ أو دقيقتان، يا سيدي؟ تعالَ إلى منزلي الصغير، إذن — حيث نستطيع التحدُّثَ في هدوء.»

كان لدى برايس الكثيرُ من الوقت الذي يُمكن أن يُخصِّص منه أيَّ قدْرٍ من أجل شخصٍ مثيرٍ للاهتمام مثل هاركر؛ لذا تبِع الرجلَ العجوز إلى منزله — وهو مكانٌ صغير يقع وسط مجموعةٍ متشابهة من البِنايات العتيقةِ الطراز خلف كلوس. قاده هاركر إلى رَدهة صغيرة، مريحة ودافئة، بها عدةُ رفوفٍ للكتب ذات المظهر القانوني والمِهْني المثير للفضول، وبعض اللوحات القديمة، وخِزانة من التحف والمقتنَيات، مخبَّأةً في زاوية مظلمة. أشار إليه الرجلُ العجوز كي يجلسَ على كرسيٍّ مريح، ثم ذهب إلى خِزانة، وأخرج دورقًا من الويسكي وعلبة سيجار.

وقال بينما يجلس بالقرب من برايس، بعد إحضار كأسَين وماءِ الصودا: «يُمكننا إجراءُ حديثٍ هادئ ومريح هنا، يا دكتور.» ثم أردف: «أنا أعيش بمفردي تمامًا، مثل الناسك — أما أعمال المنزل المعتادةُ فتقوم بها خادمةٌ تأتي فقط في الصباح. لذلك نحن بمفردنا تمامًا. هيا أشعل سيجارك — إنه من النوعِ نفسِه الذي أعطيتُك إياه في بارثورب.» وتابع، بينما جلس برايس يستمع: «حسنًا، والآن هناك سؤالٌ أريد أن أطرحه عليك — بيني وبينك فقط — وبأقصى قدرٍ من السرِّية، من فضلك. لقد كنتَ أنت مَن استدعاه فارنر ليرى جثةَ برادن، وقد تُركت بمفردك مع جثة برادن، أليس كذلك؟»

رد برايس، وتزايد الشكُّ بداخله فجأة: «حسنًا؟» ثم أردف: «وماذا في ذلك؟»

قرَّب هاركر كرسيَّه قليلًا من كرسيِّ ضيفه، وانحنى نحوه.

ثم سأله هامسًا: «ماذا … ماذا فعلتَ بقُصاصة الورق تلك التي أخرجتَها من حقيبة برادن؟»

الفصل الرابع عشر

من الماضي

لو كان أيُّ مراقبٍ متحمِّس وخبير بالصِّفات الإنسانية الغريبة حاضرًا داخلَ رَدهة هاركر الصغيرة في تلك اللحظة، ويُراقبه هو وزائره، لكان قد صُدِم بما حدث عندما طرَح الرجل العجوز هذا السؤالَ المفاجئ والصريح على زائره الشاب. فقد طرح هاركر السؤال، وإن كان على نحوٍ هامس، بطريقةٍ غيرِ رسمية، تكاد تكون وُديةً وسرية، ولم يُظهِر برايس ولو حتى انتفاضةَ إصبَع أو رمشةَ عين تدلُّ على شعوره بأن هذا السؤال هو بالفعل السؤالُ الأكثر إثارةً للدهشة والذهول مما طُرح عليه من قبل. بدلًا من ذلك، نظر إلى السائلِ بهدوءٍ في عينَيه، وطرح عليه سؤالًا بدوره.

إذ سأله برايس بهدوء: «مَن أنت، يا سيد هاركر؟»

ضحك هاركر — تقريبًا بابتهاج.

وقال: «أجل، مِن حقك أن تسألَ هذا السؤال!» وأردف: «بالطبع! — وأنا سعيدٌ لأنك تأخذ الأمرَ بهذه الطريقة. أنت ستُوصلني لما أريد!»

أضاف برايس: «سأجعل السؤالَ أكثرَ تحديدًا إذن.» وتابع: «إنه ليس مَن أنت — إنه ماذا تعمل؟!»

أشار هاركر بسيجاره نحو رفوف الكتب التي يجلسُ الزائر أمامها.

وقال: «ألقِ نظرةً على مجموعة الكتب الخاصة بي، يا دكتور.» وأردف: «ما رأيُك فيها؟»

التفت برايس وتفحَّص الرفوف الواحدَ تِلو الآخر على مهل.

ثم قال بهدوء: «يبدو أنها تضمُّ في الغالب ملفاتِ قضايا جنائيةٍ ومَراجعَ قانونية.» وتابع: «لقد بدأتُ أشكُّ في أمرك، يا سيد هاركر. إنهم يقولون هنا في رايتشستر إنك تاجرٌ متقاعد. لكنني أعتقد أنك شرطيٌّ متقاعد — من شعبة المحققين.»

ضحك هاركر مرةً أخرى.

وقال: «لم يدخل أيُّ رجل من رايتشستر إلى منزلي منذ أن جئتُ للاستقرار فيها.» وأضاف: «أنت أول شخص أدعوه إلى هنا — باستثناءٍ وحيدٍ بارز. أنا حتى لم أستقبل قط كامباني، أمين المكتبة، هنا. فأنا أشبهُ بالناسك.»

قال برايس: «لكن أنت كنت تعمل محقِّقًا، أليس كذلك؟»

أجاب هاركر: «بلى، ولمدة خمسةٍ وعشرين عامًا كاملة!» وأضاف: «وأنا مشهورٌ للغاية، أيضًا، يا سيدي. لكن ماذا عن سؤالي يا دكتور؟ بيني وبينك!»

قال برايس: «سأسألك سؤالًا، إذن.» وتابع: «كيف عرَفت أنني قد أخذت قصاصة ورق من حقيبة برادن؟»

أجاب هاركر: «لأنني أعلمُ أنه كان يحمل تلك الورقةَ في حقيبته في الليلة التي جاء فيها إلى فندق مايتر، وكنت متأكدًا من وجودها هناك في صباح اليوم التالي، ولأنني أعلم أيضًا أنك تُركتَ بمفردك مع الجثة بضع دقائق بعد أن أحضرك فارنر، وأنه عند تفتيشِ ملابسِ برادن ومتعلقاته من قِبل ميتشينجتون، لم تكن الورقة موجودة. إذن، بالطبع، أنت مَن أخذها! وأنا لا يُهمني أنك فعلتَ ذلك — باستثناء أنني أعلم، من خلال معرفة ذلك، أنك تلعب لعبةً مماثلةً للُعبتي — وهذا هو السبب في أنك ذهبتَ إلى ليسترشير.»

سأله برايس: «هل كنتَ تعرف برادن؟»

أجاب هاركر: «أجل كنتُ أعرفه!»

قال برايس: «هل قابلتَه — وتحدَّثتَ معه — هنا في رايتشستر؟»

أجاب هاركر: «لقد حدث هذا هنا — في هذه الرَّدهة، على هذا الكرسيِّ — من الساعة التاسعة وخمس دقائق إلى نحوِ الساعة العاشرة في الليلة التي سبقَت وفاتَه.»

التقط برايس، الذي كان يستمتعُ في هدوء بسيجار هافانا الذي أعطاه إياه الرجلُ العجوز، كأسَه، وشرب بعضًا مما كان فيها، واستقر في كرسيِّه المريح كما لو كان ينوي البقاءَ هناك مدةً.

وقال: «أعتقد أنه من الأفضل أن نتحدَّثَ بسريةٍ يا سيد هاركر.»

أجاب هاركر: «وهذا بالضبط ما نفعلُه يا دكتور برايس.»

قال برايس باقتضاب: «حسنًا، يا صديقي.» وتابع: «نحن الآن يفهمُ أحدُنا الآخر. إذن هل تعرف مَن كان جون برادن بالفعل؟»

أجاب هاركر على الفور: «أجل!» ثم أضاف: «كان في الواقع جون بريك، وهو مدير بنك ومجرم مدانٌ سابق.»

سأله برايس: «هل تعرف ما إذا كان لديه أيُّ أقاربَ هنا في رايتشستر؟»

قال هاركر: «أجل.» وأردف: «الفتى والفتاة اللذان يعيشان مع رانسفورد — إنهما ابن بريك وابنتُه.»

تابع برايس: «هل كان بريك يعلم ذلك — عندما أتى إلى هنا؟»

أجاب هاركر: «كلا، لم يكن يعلم — لم تكن لديه أدنى فكرةٍ عن ذلك.»

سأل برايس: «هل كنتَ تعلم أنت ذلك — إذن؟»

أجاب هاركر: «كلا، لكني علمتُ بعد ذلك — بعد ذلك بقليل.»

سأله برايس: «هل اكتشفتَ ذلك في بارثورب؟»

قال هاركر: «كلا، لقد توصلتُ للأمر هنا — بعد موت بريك.» ثم أضاف: «وذهبتُ إلى بارثورب من أجل أمرٍ مختلفٍ تمامًا — أمر يخص بريك.»

قال برايس: «آه!» ثم نظر إلى المحقق العجوز بهدوء في عينَيه. وأضاف: «مِن الأفضل أن تُخبرني بكل شيء عن ذلك الأمر.»

قال هاركر مشترطًا: «إذا كان سيُخبر كلٌّ منا الآخرَ — بكل شيء عن هذا.»

وافق برايس على ذلك قائلًا: «اتفقنا.»

دخَّن هاركر بتأنٍّ للحظةٍ وبدا أنه يُفكر.

ثم قال: «مِن الأفضل أن أعود إلى البداية.» وتابع: «لكن، أولًا، ما الذي تعرفه عن بريك؟ أعلم أنك ذهبتَ إلى بارثورب لتكتشفَ ما يُمكنك اكتشافه؛ فإلى أيِّ مدًى أوصلَك بحثُك؟»

أجاب برايس: «لقد توصلتُ إلى أن بريك تزوَّج فتاةً من برادن ميدورث، وأنه أخذها إلى لندن، حيث كان يعمل مديرًا لفرعِ أحد البنوك، وأنه قد وقع في مشكلة، وحُكم عليه بالسجن مدةَ عشر سنوات مع الأشغال الشاقَّة، هذا بالإضافة لبعض التفاصيل الصغيرة التي لا داعي للخوض فيها في الوقت الحالي.»

قال هاركر: «حسنًا، ما دمتَ تعرف كلَّ ذلك، فهناك أساسٌ مشترك ونقطةُ انطلاق مشتركة؛ لذا سأبدأ مِن محاكمة بريك. لقد كنتُ أنا مَن ألقى القبض على بريك. لم تكن هناك مشكلة، ولا عَناء. لقد أخذه أحدُ مفتشي البنك على حينِ غِرَّة. لقد كان يُعاني عجزًا كبيرًا في عُهدته — ولم يتمكَّن من تسويته — كما لم يتمكن أو لم يُرِد أن يُفسِّر موقفه إلا بتلميحات مكتئبة عن أنه قد خُدع بقسوة. ولم يكن هناك دفاعٌ — ولا يمكن أن يكون هناك. وقد قال محاميه إنه يستطيع ...»

قاطعه برايس: «لقد قرأتُ تفاصيل المحاكمة.»

قال هاركر: «حسنًا، إذن فأنت تعلم كلَّ ما يُمكنني إخبارك به بشأن هذه النقطة.» وتابع: «لقد حُكم عليه، كما قلتَ، بالسجن عشرَ سنوات. وقد قابلتُه قبل نقله إلى السجن مباشرةً وسألتُه عما إذا كان بوُسعي فعلُ أيِّ شيء له بشأن زوجته وطِفلَيه. أنا لم أرَهم من قبل — حيث اعتقلته داخل البنك، وبالطبع هو لم يُغادر قط الحبس بعد ذلك. فأجاب بطريقةٍ غريبة ومقتضبة بأن هناك مَن يعتني بزوجته وطِفلَيه. ثم سمعت، بالمصادفة، أن زوجته قد تركَت المنزل، أو هرَبَت منه — كان هناك شيءٌ غامض حول ذلك — إما بمجرد القبض عليه أو قبل ذلك. على أي حال، هو لم يَقُل شيئًا، ومنذ تلك اللحظة لم أُقابله قط مرةً أخرى حتى التقيته في الشارع هنا في رايتشستر، في تلك الليلة، عندما جاء إلى فندق مايتر. لقد عرَفته في الحال — وهو عرَفَني. حيث التقينا تحت أحدِ تلك المصابيح القياسية الكبيرة الموجودة في السوق — بينما كنت أُمارس المشيَ ليلًا وَفْق عادتي، وهو آخِر ما أفعله قبل الذَّهاب إلى الفراش. توقَّفنا وحدَّق كلٌّ منا في الآخر. ثم تقدَّم نحوي مادًّا يده وتصافحنا. ثم قال: «هذا شيء غريب!» ثم أضاف: «أنت الرجل الذي أردتُ إيجادَه! دعنا نذهب إلى مكانٍ ما، يتَّسم بالهدوء، واسمح لي أن أتحدَّثَ معك.» لذلك أحضرته إلى هنا.»

أصبح برايس منتبهًا للغاية الآن — حيث كان يُكرِّس كلَّ ملَكاتِه للتركيز بشدةٍ واستيعابٍ على ما يمكن أن يقوله الرجل الآخر، تاركًا التأملات والاستنتاجاتِ حول ما سمعه حتى ينتهيَ من سرد كلِّ ما لديه.

كرَّر هاركر كلامَه قائلًا: «لقد أحضرتُه إلى هنا.» وأردف: «وأخبرتُه أنني قد تقاعدت وأنني أعيش هنا بمفردي، مثلَما رأى. ولم أسأله أيَّ أسئلة عن نفسه — كان بإمكاني أن أرى أنه رجلٌ حسَنُ الملبس، وتبدو عليه أماراتُ الغنى. ثم بدأ يُخبرني عن نفسه. فقال إنه بعد أن أنهى مدةَ عقوبته، غادر إنجلترا وسافر بعضَ الوقت إلى كندا والولايات المتحدة، ثم ذهب إلى نيوزيلندا وبعد ذلك إلى أستراليا، حيث استقرَّ وبدأ المُضارَبة في تجارة الصوف. فقلت إنني آمُل أن يكون قد وُفِّق في تجارته. قال: أجل، لقد وُفِّق للغاية — وبعد ذلك فتح لي قلبه. حيث قال: «سأُخبرك بشيءٍ فعلتَه يا هاركر.» ثم أضاف: «إنك كنتَ مهذبًا جدًّا ومراعيًا لي عندما كنتُ في أزمتي، لذلك لن أُمانع في إخبارك. لقد دفعتُ لأصحاب البنك كل بنس من تلك الأموال التي خَسِروها بسبب حماقتي في ذلك الوقت — كل بنس، قبل أربع سنوات، مع الفائدة، وحصلتُ منهم على إيصالٍ بذلك.» فقلتُ له: «أنا مسرور لسماع ذلك

يا سيد ... هل ما زلت تستخدم الاسمَ نفسَه؟» قال، وهو ينظر إليَّ: «إن اسمي منذ أن غادرت إنجلترا، هو برادن — جون برادن.» وتابع قائلًا: «أجل، لقد دفعت لهم — على الرغم من أنني لم أحصل مطلقًا على بنسٍ واحدٍ من المال الذي كنتُ أحمقَ بما يكفي لأن آخُذَه في ذلك الوقت — ولا نصف بنس حتى!» فسألتُه ظانًّا أنه ربما سيعترف بعد كل هذا الوقت: «مَن حصل عليه إذن، يا سيد برادن؟» فأجاب: «لا تهتمَّ يا رجل!» وأضاف وهو يضحك: «سيتَّضح الأمر — لكن فيما بعد. لا تهتمَّ بذلك، الآن. سأُخبرك لماذا أردتُ أن أقابلك. الحقيقة هي أنني رغم أنني لم أُمضِ سوى بضعِ ساعات فقط في إنجلترا، إذا جاز التعبير، فقد فكَّرت فيك، وتساءلت أين يُمكنني أن أجدك — فأنت الرجل الوحيد في مهنتك الذي التقيتَ به، كما ترى.» وتابع: «وأريد بعض المساعدة في هذا المجال.» فقلت: «حسنًا، يا سيد برادن، لقد تقاعدتُ، ولكن إذا كانت مهمة سهلة ...» فقال: «يمكنك القيام بها، وهي سهلة بما فيه الكفاية.» وأردف: «إن الأمر هو أنني قد التقيتُ برجل في أستراليا مهتمٍّ للغاية بالحصول على بعض الأخبار عن رجلٍ آخر، يُدعى فولكينر راي، ينحدرُ من بارثورب، في ليسترشير. وقد وعدتُه بالاستفسار عنه. والآن، لديَّ أسبابٌ قوية لعدم رغبتي في الاقتراب من بارثورب — إذ إن لديَّ في بارثورب ذكرياتٍ وارتباطات غير سارة بالنسبة إليَّ، ولا أريد أن يراني أحدٌ هناك. لكن هذا الأمر يجب أن يكون تحريًا شخصيًّا — فهل ستذهب إلى هناك، من أجلي؟ سأدفع لك مقابلًا جيدًا.» وتابع قائلًا: «كلُّ ما عليك فعله هو أن تذهب إلى هناك، وتُقابل مسئولي الشرطة، ومسئولي المدينة، وأيَّ شخص يعرف المكان، وتسألهم عما إذا كان بإمكانهم إخبارُك بأي شيء عن شخصٍ يُدعى فولكينر راي، كان في وقتٍ من الأوقات، وكيلَ عقاراتٍ صغيرًا في بارثورب، وغادر المكانَ منذ نحو سبعة عشر عامًا — وربما ثمانية عشرَ عامًا — ويُعتقد أنه قد عاد مؤخرًا إلى المدينة. هذا كلُّ ما في الأمر. احصل على المعلومات التي يُمكنك الحصولُ عليها، وأرسلها لي، على عُنوان البنك الذي أتعامل معه في لندن. أعطني ورقةً وسأكتب لك فيها التفاصيل».»

توقَّف هاركر عند هذه النقطة وأومأ برأسه نحوَ مكتبٍ قديم في زاوية من غرفته.

وقال: «إن الورقة هناك.» وتابع: «ومكتوب فيها، بخط يده، مذكرة موجزة عما يُريده وعنوان البنك. وعندما أعطاها لي، وضع يده في جيبه وأخرجَ حقيبةً استطعتُ أن أرى أنه يحمل فيها الكثيرَ من المال. فأخذ منها بعض الأوراق النقدية. ثم قال: «هذه خمسة وعشرون جنيهًا تحت حساب المهمة يا هاركر.» ثم أضاف: «قد تُضطَر إلى إنفاق المزيد. لا تخَف — فسأعطيك المزيد.» ثم سأل: «هل ستبدأ المهمَّة قريبًا؟» فأجبته: «أجل، سأفعل

ذلك، يا سيد برادن.» وأردفت: «ستكون أشبهَ بنزهةٍ بالنسبة إليَّ.» قال: «رائع.» وأضاف: «أنا سعيدٌ لأنني صادفتُك.» فقلت: «حسنًا، إنها مصدرُ سعادةٍ لك ومفاجأةٍ بالنسبة إليَّ.» وتابعتُ: «فأنا لم أكن أتخيلُ قط رؤيتك في رايتشستر. ما الذي أتى بك إلى هنا، إذا جاز لي أن أسأل — هل لمشاهدة معالم المكان؟» فضحك على ذلك، وأخرج حقيبته مرةً أخرى. وقال بينما يُخرج قصاصةَ ورق مطويةً من حقيبته: «سأُريك شيئًا — سرًّا.» وأضاف: «ماذا تفهم من هذه؟» ثم تابع: «هل يمكنك قراءةُ اللاتينية؟» فقلت: «لا — باستثناء كلمةٍ أو كلمتين، لكني أعرف رجلًا يستطيع ذلك.» فقال: «آه، لا عليك.» وأردف: «فأنا أعرفُ ما يكفي من اللاتينية لِفَهم ما تحوي — وهذا سر. ومع ذلك، لن يظل سرًّا لوقتٍ طويل، وستسمع كلَّ شيء عنه.» وهنا وضع قصاصة الورق في حقيبته مرة أخرى، وبدأنا نتحدَّثُ عن أمور أخرى، وبعد قليل قال إنه وعدَ بإجراء محادثةٍ مع رجلٍ في فندق مايتر كان قد أتى معه في القطار، ومِن ثَم غادر، قائلًا إنه سيُقابلني قبل أن يُغادر المدينة.»

سأل برايس: «هل قال كم من الوقت سيظلُّ هنا؟»

أجاب هاركر: «يومَين أو ثلاثة أيام.»

سأل برايس: «هل ذكر رانسفورد؟»

قال هاركر: «على الإطلاق!»

«هل جاء على ذِكْر زوجته وطِفلَيه؟»

«مطلقًا!»

«ولا إلى التلميح الذي ذكَره محاميه أثناء المحاكمة؟»

«لم يأتِ قط على ذِكْر تلك الفترة إلا من خلال ما أخبرتُك به — أنه لم يحصل على بنس واحد من المال لنفسه، وأنه قد ردَّه إلى البنك.»

تأمَّل برايس الأمرَ للحظات. لقد كان متحيرًا إلى حدٍّ ما من نقاطٍ معيَّنة في قصة المحقِّق العجوز، وأدرك الآن أن هناك الكثيرَ من الغموض في قضية برادن، أكثرَ مما كان يَعتقد في البداية.

فسأل بعد لحظات: «حسنًا، هل رأيتَه مرةً أخرى؟»

أجاب هاركر: «ليس وهو على قيد الحياة!» وأضاف: «رأيته وهو ميت — ولم أُخبر أحدًا عما دار بيني وبينه آنذاك، وحتى الآن. لكن حدث شيءٌ ما في ذلك اليوم. فبعد أن سمعت بالحادث، ذهبت إلى حانة كراون آند كوشن — والحقيقة، أنني ذهبت لشرب بعض الويسكي؛ لأن الأخبار أزعجَتني. وعلى البار الطويل الخاص بهم، رأيت رجلًا كنتُ أعرفه

— رجلًا كنت أعرفه، في الحقيقة؛ لأنه كان سجينًا مُدانًا مع بريك. كان اسمه جلاسديل ومدانًا بجريمة التزوير. حُكم عليه بالعقوبة نفسِها التي حُكم بها على بريك، وفي الوقت نفسِه تقريبًا، وكان في السجنِ نفسِه مع بريك، وقد أُطلق سراحه هو وبريك في التاريخ نفسِه تقريبًا. لم يكن هناك شكٌّ في هُويته؛ فأنا لا أنسى أبدًا وجهًا رأيتُه، حتى ولو بعدَ ثلاثين عامًا. وقد رأيته في تلك الحانة قبل أن يَراني، وألقيتُ نظرةً فاحصة عليه. كان هو، أيضًا، مثل بريك، يرتدي ملابسَ أنيقة، ويبدو عليه الغِنى الشديد. وقد استدار وهو يضعُ كأسه، ورآني — وعرَفَني. ضع في اعتبارك أنني مَن ألقيت القبضَ عليه في الماضي! فتحرك على الفور نحو بابٍ جانبي واختفى. فخرجت ونظرتُ عبر بداية الشارع ونهايته — لكنه ذهب. واكتشفتُ بعد ذلك، من خلال بعض التحرِّي الهادئ، أنه ذهب مباشرةً إلى المحطة، وركب أول قطار — كان هناك واحدٌ يستعدُّ للمغادرة، إلى ملتقى الطرق — وغادر المدينة. لكن يمكنني التوصُّل إليه!»

سأل برايس: «أنت لم تُخبر أحدًا بهذا الأمر أيضًا، أليس كذلك؟»

أجاب هاركر: «بالضبط؛ إذ إن لديَّ لُعبتي الخاصةَ.» وتابع: «وهذا الحديث معك هو جزءٌ منها؛ لقد أصبحت على علمٍ الآن بالأمر وسأخبرك لماذا، بعد وقت قصير. لكن أولًا، كما تعلم، لقد ذهبت إلى بارثورب. إذ شعرت، على الرغم من وفاة بريك، بأنه يجب أن أذهب للسبب التالي. كنت على يقينٍ من أنه يريد هذه المعلومات لنفسه؛ فالرجل في أستراليا كان مجردَ شخصية خيالية. ذهبت، آنذاك ولم أصل إلى شيء. عدا أن فولكينر راي هذا كان، كما قال بريك، يعيش في بارثورب، منذ سنوات. وقد غادر المدينة منذ ثمانيةَ عشر عامًا، ولم يعرف أحدٌ شيئًا عنه. لذلك عُدتُ إلى هنا. والآن، إذن، يا دكتور — إنه دورك! ماذا الذي كنتَ تبحث عنه، هناك في بارثورب؟»

تأمل برايس إجابته مدة خمسِ دقائق كاملة. كان ينوي دائمًا الالتزامَ بقواعدِ اللعبة لكن دون أن يجبره أحدٌ على ذلك، لكنه سمع ورأى ما يكفي منذ دخول رَدهةِ هاركر الصغيرة ليعرفَ أنه كان بصحبة رجلٍ ذكي أكثرَ حرصًا ودَهاءً منه، وأنه سيُصبح من مصلحته أن يتشارك ما يعرفه مع الرجل الذي لديه خبرةٌ واسعة وعميقة. وهكذا أخبرَ الرجل بكلِّ ما أجراه من تحقيقات، لكن لم يُخبره مطلقًا عن دافعِه.

قال هاركر، بعد الاستماع بهدوء إلى كلِّ ما قاله برايس: «إن لديك نظريةً بخصوص هذه القضية بالطبع، أليس كذلك؟» وتابع: «بطبيعة الحال، لديك! لا يُمكن أن تعمل على تجميع كلِّ ذلك دون أن يكون لديك نظرية.»

اعترف برايس: «حسنًا، بصراحة، لا يُمكنني القول إن لديَّ نظرية. لكن يمكنني إدراكُ النظرية التي قد تكون موجودة. وهي أن رانسفورد هو الرجلُ الذي خدعَ بريك، وأنه قد هرب مع زوجة بريك، وأنها قد تُوفِّيت، وأنه ربَّى الطفلَين متجاهلًا كلَّ ذلك — ومن ثَم ...»

قاطعه هاركر بابتسامة: «ومن ثَم، عندما التقى هو وبريك — كما يبدو أنك تعتقدُ أنهما فعلًا — ألقى رانسفورد بريك من خلال ذلك البابِ المفتوح؛ وقد شاهد كوليشو تلك الواقعةَ، ثم علم رانسفورد بما يُشيعه كوليشو، فوضع رانسفورد السمَّ لكوليشو. أليس كذلك؟»

قال برايس: «إنها تبدو نظريةً تدعمها الوقائع.»

قال المحقِّق العجوز بابتسامة أخرى: «إنها نظرية تُناسب بلا شك رجالًا مثل ميتشينجتون.» وتابع: «لكنها لا تُناسبني أنا، يا سيدي! ضع في اعتبارك أنني لا أقول إنه لا يوجد شيءٌ مريب في الأمر — لأن هناك الكثيرَ بلا شك. لكن اللغز أكثرُ عمقًا من مجرد ذلك. فبريك لم يأتِ إلى هنا للعثور على رانسفورد. لقد جاء بسبب السرِّ الموجود في قُصاصة الورق تلك. وبما أنك قد حصلت عليها، يا دكتور فاعرِضْها عليَّ!»

لم يجد برايس أيَّ سبب لإخفاء قصاصة الورق؛ لذا أخرجها ووضعها على الطاولة بينه وبين مضيِّفه. فتفحَّصها هاركر بعناية.

وقال: «إنها مكتوبةٌ باللغة اللاتينية!» ثم أضاف: «أنت يمكنك قراءتها بالطبع. ماذا تقول؟»

ذكر برايس ترجمةَ الكلمات المكتوبة في القصاصة.

وأضاف: «لقد وجدتُ المكان.» وأردف: «وجدته هذا الصباح. والآن، ماذا تظن أن هذا يعني؟»

كان هاركر ينظر بجدِّية إلى سطرَيِ الكتابة.

وأجاب: «هذا سؤال صعبٌ يا دكتور.» وأضاف: «لكنني أظن أننا عندما نكتشف ما يَعنيه، سنعرف أكثرَ بكثير مما نعرفه الآن!»

الفصل الخامس عشر

العرض المزدوج

ابتسم برايس، الذي كان يستمدُّ متعةً كبيرة وغريبة من مقابلته السرية مع المحقق العجوز، على ملاحظة هاركر الأخيرة.

وقال: «هذا أشبهُ بأمرٍ بديهي، أليس كذلك؟» وتابع: «بالطبع ستتكشَّف الأمور أكثرَ عندما نعرف أكثر!»

رد هاركر: «أنا أُولي اهتمامًا للبديهيات، يا سيدي.» وأضاف: «لا يُمكنك تَكْرار بديهيةٍ معروفة كثيرًا — فهي تحمل في طيَّاتها السِّمةَ المميزة للاستخدام الجيد. ولكن الآن، إلى أن نعرف المزيد — لا شك أنك كنتَ تُفكر كثيرًا في هذا الأمر، يا دكتور برايس — ألم يَلفِت انتباهَك أن هناك ملمحًا واحدًا له صلةٌ بزيارة بريك أو برادن إلى رايتشستر الذي لم يُعطِ أحدٌ أيَّ اهتمام خاص له حتى الآن — على حد علمنا، بأي حال من الأحوال؟»

سأل برايس: «ما هو؟»

أجاب هاركر: «الأمر هو ما يلي.» وتابع: «لماذا رغب في مقابلة الدوق ساكسونستيد؟ لقد أراد بالتأكيد مقابلتَه — وفي أسرع وقت ممكن. لعلك تتذكَّر أن سموه قد سُئل عن ذلك في جلسة التحقيق ولم يكن بإمكانه تقديمُ أي تفسير — لم يكن يعرف شيئًا عن بريك، ولم يستطِع اقتراح أي سبب يجعل بريك يرغب في مقابلته. لكنني أستطيع!»

صاح برايس: «أنت؟»

أجاب هاركر: «أجل أنا.» وأردف: «والسبب هو الآتي: لقد تحدَّثت للتوِّ عن ذلك الرجل جلاسديل. والآن أنت، بالطبع، ليس لديك أيُّ معرفة به، ولأنك لستَ على اطلاعٍ بعالم الإجرام، فأنت لا تعرف ما هي جريمته، أليس كذلك؟»

أجاب برايس: «أنت قلت التزوير؟»

قال هاركر موافقًا: «بالضبط؛ التزوير.» وأضاف: «وكان التوقيع الذي زوَّره هو توقيع الدوق ساكسونستيد! في الواقع، لقد كان وكيل الدوق العقاري في لندن. وقد

أساء تقدير الأمور، بطريقةٍ ما، وزوَّر توقيع الدوق على شيك. والآن، بالنظر إلى مَن هو جلاسديل، وأنه بالتأكيد كان سجينًا مدانًا مع بريك، وأنني رأيته بنفسي هنا في رايتشستر في يوم وفاة بريك — فما هي النتيجة التي يمكن استخلاصها؟ أن بريك أراد أن يُقابل الدوق في شأنٍ خاصٍّ بجلاسديل! هذا لا شك فيه! وربما أراد هو وجلاسديل زيارة الدوق معًا.»

فكَّر برايس بصمتٍ في هذا الاقتراح برهةً.

ثم قال في النهاية: «لقد قلت، للتو، إنه يمكن تتبُّعُ جلاسديل، أليس كذلك؟»

أجاب هاركر: «يمكن تتبعه — بلى.» وأردف: «ما دام أنه داخل إنجلترا.»

قال برايس: «لماذا لا نبدأ في ذلك؟»

قال هاركر: «ليس بعد.» وتابع: «هناك أشياءُ يجب القيام بها قبل ذلك. وأول شيء هو أن علينا كشْفَ غموض تلك القصاصة من الورق. أنت تقول إنك وجدتَ مقبرة ريتشارد جينكينز، أليس كذلك؟ جيد جدًّا — فالشيء الذي يجب فعله إذن هو اكتشافُ ما إذا كان هناك شيءٌ مخفي هناك. حاول فعل ذلك في ليلة الغد. ومن الأفضل أن تذهب وحدك — بعد حلول الظلام. فإذا وجدت أيَّ شيء، أبلِغْني. وبعد ذلك — يُمكننا اتخاذ قرار بشأن الخطوة التالية. لكن في أقرب وقت، ستكون هناك جلسةُ تحقيق حول أسباب وفاة هذا الرجل الذي يُدعى كوليشو. وبخصوص ذلك — دعني أهمس لك بكلمة في أذنك! قُل أقلَّ قدر ممكن من الكلام — ففي واقع الأمر، أنت لا تعرف شيئًا بخلاف ما رأيته. ويجب ألا نلتقي ونتحدَّث علنًا — بعد أن تقوم بهذا الجزء من الاستكشاف في بارادايس ليلةَ الغد، تعالَ إلى هنا وسنتباحث في الأمر.»

كان هناك القليلُ مما يمكن أن يقوله برايس أو يُطلَب منه قولُه في جلسة التحقيق حول حادث وفاة عامل البناء المساعد في صباح اليوم التالي. كان الاهتمام العامُّ والانفعال بخصوص الموت الغامض لكوليشو مشابِهَين لنظيرَيهما فيما يتعلق بموت برادن؛ لأنه قد انتشرَت بالفعل شائعات في جميع أنحاء المدينة تقول إنه لو لم يَمُت برادن عندما جاء إلى رايتشستر، لظل كوليشو على قيد الحياة. ومن ثَم امتلأت قاعةُ المحكمة مرةً أخرى، وساد جوُّ الغموضِ نفسُه مرةً أخرى. لكن الإجراءات كانت ذات طبيعة مختلفة تمامًا عن تلك التي جرَت خلال جلسة التحقيق الخاصة بقضية برادن. حيث أوضح رئيسُ العمال الذي كان كوليشو يعمل تحت إمرته تفاصيلَ عمل الرجل الميت صباحَ يوم وفاته. فقد طُلب منه إزالة تراكم الأنقاض المتجمِّع أسفل الجدار الجنوبي للصحن نتيجةً لبعض الإصلاحات الأخيرة في البناء — وكان أمامَه يومٌ كامل من العمل. حيث كان سيدخل إلى بارادايس

ويخرج منها طوالَ اليوم مع عربة اليد، وينقل بها الأنقاضَ التي يجمعها بعيدًا. وقد فتَّش عنه رئيسُ العمال مرةً أو مرتين؛ حيث رآه قبل الظهر بقليل، وبدا أنه في حالته الصحية المعتادة — ولم يتقدَّم بأيِّ شكوى، على الإطلاق. وعندما سُئل عما إذا كان قد لاحظ المكان الذي وضع فيه كوليشو سلةَ غدائه وقارورته المعدنية أثناء عمله، أجاب بأنه قد لاحظ ذلك مصادفةً — وتذكَّر رؤيةَ كلٍّ من القارورة والسلة وسُترة الرجل موضوعة على إحدى المقابر المبنيَّة فوق الأرض تحت شجرة صنوبر معيَّنة، يمكن أن يُرشد إليها، إذا لزم الأمر.

لم يكن وصفُ برايس لعثوره على كوليشو أكثرَ من سردٍ للوقائع. ولم يُقضَ الكثير من الوقت في استجواب الطبيبَين اللذين أجرَيا تشريح الجثة. حيث أشارت شهادتهما، المقتضَبة والمحددة، فقط إلى سبب الوفاة. لقد سُمِّم الرجلُ بجرعةٍ من حمض الهيدروسيانيك، التي، في رأيهما، أُخِذت قبل دقائق قليلة فقط من عُثور دكتور برايس على جثته. وقد كانت على الأرجح جرعة من شأنها أن تُسبب الموت الفوري. لم تكن هناك آثارٌ للسُّم في بقايا غدائه، ولا في السائل الموجود في القارورة المعدنية، وهو الشاي القديم. لكن سبب موته المفاجئ هو بلا شكٍّ تأثير السم. وقد كان رانسفورد في القاعة منذ بداية الإجراءات، وبعد أن قُدمت الشهادة الطبية، استدُعي. وأدرك برايس، الذي كان يُراقبه عن كثب، أنه يُعاني انفعالًا مكبوتًا — وأن هذا الانفعال كان بسبب الغضب بقدرِ ما هو بسبب أيِّ شيء آخر. كان وجهه صارمًا ومتجهمًا، ونظر إلى قاضي التحقيق بتعبيرٍ يُنذر بشيء غير واضح تمامًا في تلك اللحظة. فقال برايس لنفسه، وهو يُحاول تحليله، إنه لا ينبغي أن يُفاجَأ إذا تبِع ذلك مشهدٌ ما — بدا رانسفورد وكأنه رجل يتلهَّف بشدةٍ لقول شيءٍ بطريقةٍ لا لَبْس فيها. لكنه في البداية أجاب عن الأسئلة المطروحة عليه بهدوءٍ وحزم.

قال قاضي التحقيق: «عندما فُتِّشَت ملابسُ هذا الرجل، عُثر على علبة دواء، يا دكتور رانسفورد، يظهر عليها خط يدك. هل كنت تُتابعه — صحيًّا؟»

أجاب رانسفورد: «أجل.» وأردف: «كوليشو وزوجته. أو على وجه الدقة، والتحديد، كنت أُعالج الزوجة، على مدار بضعة أسابيع. وقبل يومٍ أو يومَين من وفاته، اشتكى لي كوليشو من أنه يُعاني عسرَ الهضم، بعد تناوُل وجباتِه. فأعطيتُه بعض حبوب الهضم — الحبوب التي تتحدَّث عنها، بلا شك.»

سأله القاضي، وهو يُخرِج العلبة التي وجدها ميتشينجتون: «هذه؟»

قال رانسفورد موافقًا: «بالضبط!» وأردف: «هذه، على أي حال، هي العلبة، وأفترض أن هذه هي الحبوب.»

سأله القاضي: «هل حضَّرتها بنفسك؟»

«أجل — فأنا أحضِّر كلَّ الأدوية الخاصة بي.»

«هل من الممكن أن يُدخل السمُّ الذي تحدَّثنا عنه الآن، في إحدى تلك الحبوب — عن طريق الخطأ؟»

أجاب رانسفورد: «مستحيل تمامًا! — لا يمكن أن يحدث هذا خلال عملي، بأي حال من الأحوال.»

قال القاضي: «ومع ذلك، أفترض أنه من الممكن أن يُوضع في حبة دواء، أليس كذلك؟»

وافق رانسفورد على ذلك قائلًا: «من الممكن.» ثم أضاف، مع نظرةٍ فاحصة على الطبيبَين اللذَين قدَّما شهادتهما للتو: «لكن ...» وتابع: «لم يُوضع السمُّ هكذا في هذه القضية، مثلما يعلم الشاهدان السابقان جيدًا!»

نظر القاضي حوله وانتظر لحظة.

ثم قال في النهاية: «لديك الحرية كي تشرحَ — تلك الملاحظة الأخيرة.» وأردف: «هذا إذا كنت ترغب في فعل ذلك.» أجاب رانسفورد بلطفٍ: «بالتأكيد!» وأضاف: «إن هذه الحبوب، كما ستُلاحظ، مغلَّفة، ويبتلعها المريض كاملة — مباشرة بعد طعامه. والآن، سوف يستغرقُ الأمر بعض الوقت حتى تذوب الحبة، وتتفكَّك، وتُهضم. وإذا كان كوليشو قد تناول إحدى حباتي بعد تناوله للغداء مباشرة، وفقًا للتعليمات، وإذا كان هناك سمٌّ في تلك الحبة، فما كان سيموت في الحال — مثلما حدث بالفعل. سيتأخر الموت بلا شكٍّ بعض الوقت حتى تذوب الحبة. ولكن، وفقًا للشهادتَين اللتين أُدليَتا للتو، فقد مات فجأةً أثناء تناول غدائه — أو بعده مباشرة. أنا لستُ ممثلًا بنحوٍ قانوني هنا — ولا أعتبر ذلك ضروريًّا على الإطلاق — لكنني أطلب منك استدعاءَ دكتور كوتس وطرح هذا السؤال عليه: هل وجد إحدى تلك الحبوب المهضمة في معدة هذا الرجل؟»

التفتَ القاضي، بترددٍ إلى حدٍّ ما، إلى الطبيبين اللذين أجرَيا عملية التشريح. لكن قبل أن يتمكَّن من الكلام، نهض رئيسُ الشرطة وبدأ في الهمس له، وبعد محادثةٍ بينهما، نظر حوله إلى هيئة المحلَّفين، التي من الواضح أن كلَّ عضو فيها قد اندهش كثيرًا من اقتراح رانسفورد.

وقال: «في هذه المرحلة، سيُصبح من الضروريِّ تأجيلُ الجلسة. وسأقوم بتأجيلها لمدةِ أسبوع، أيها السادة. أنتم سوف ...» فقدَ رانسفورد، الذي كان لا يزال واقفًا في منصة الشهود، السيطرةَ على نفسه فجأةً. وأطلق صيحةَ تعجبٍ حادةً وضرب الحافةَ أمامه بقوة بيده المفرودة.

وقال بصرامة: «أنا أحتجُّ على ذلك!» وأضاف: «بالتأكيد، أنا أحتج! لقد تحدَّثتَ في البداية عن أمرٍ يُثير الشبهات ضدي — ثم عندما طالبت بطرح سؤالٍ له أهمية كبيرة لدرءِ تلك الشبهات، رُفعت الجلسة — حتى لو كان ذلك في الوقت الحاليِّ فقط. هذا تصرفٌ غير منصِف وغير عادل للغاية!»

قال القاضي: «أنت مخطئ.» وأردف: «في جلسة التحقيق القادمة، يمكن استدعاءُ الطبيبَين، وستُتاح لك الفرصة — أو لمحاميك — لطرح أيِّ أسئلة تريدها في الوقت الحاضر ...»

قاطعه رانسفورد بحدَّة: «في الوقت الحاضر أنت أثَرت الشبهات ضدي!» وتابع: «أنت تعرف ذلك — أقول هذا مع الاحترام الواجب لمنصبك — مثلما أعرفه أنا كذلك. إن الشك منتشرٌ ضدي في المدينة. كما تنتشر الشائعاتُ — سرًّا — وهناك شكوكٌ ضدي، أنا متأكد من ذلك — من جانب الشرطة، التي من المفترض أنها تعرف الأمورَ بشكلٍ أفضل. وأنا لن أصمتَ يا سيادة القاضي وسأغتنم هذه الفرصة العلَنية، وأنا تحت القسَم، لأقول إنني لا أعرف شيئًا على الإطلاق عن أسباب وفاة كوليشو أو برادن!»

قال المُحقق بهدوء: «تقرَّر تأجيل جلسة التحقيق إلى مثل هذا اليوم من الأسبوع القادم.»

تنحَّى رانسفورد فجأةً من منصة الشهود ودون أن ينبس ببنتِ شَفة أو يُلقيَ نظرةً على أي شخص هناك، سار بوجه صارم ونظرة حازمة إلى خارج القاعة، وتجمَّع الحضور المتحمِّسون في مجموعات، وبدَءوا على الفور في مناقشةِ غضبِه الشديد والانحياز إلى جانبه أو ضده.

وقد غادر برايس، الذي قرَّر أنه من المستحسن الابتعادُ عن ميتشينجتون في هذا الوقت، ولأسبابٍ مماثلة، عن هاركر أيضًا، المبنى المزدحِم بمفرده — لينضمَّ إليه في الشارع خارج المبنى ساكفيل بونهام، الذي رآه في المحكمة، بصحبة زوج والدته، السيد فوليوت.

لاحظ برايس أن فوليوت قد توقَّف في الخلف، وتبادل بعض الكلمات مع القاضي. وجاء ساكفيل إلى برايس وصافحه على نحوٍ واثق. لقد كان واحدًا من هؤلاء الشباب الذين اعتادوا الإيحاء بأن معرفتهم كبيرةٌ وفريدة، وانتظر برايس ما سيقوله.

قال ساكفيل بثقة: «تصرفٌ غريب، كل ذلك، يا برايس!» وأضاف: «بالطبع، إن رانسفورد مغفلٌ للغاية!»

قال برايس، مع تغيُّر في الصوت يشير إلى أن رأي ساكفيل في أي شيء كان ذا قيمة مثل رأي المدَّعي العام: «هل تعتقد ذلك؟» وأردف: «أهكذا ترى الأمر؟»

أجاب ساكفيل بتعالٍ وغطرسة: «من المستحيل أن يراه أحدٌ بأي طريقة أخرى، بالتأكيد.» وتابع: «كان ينبغي على رانسفورد أن يتخذَ خطواتٍ فوريةً ليُبرئ نفسه من أي شبهات. إنه لأمرٌ سخيف — بالنظر إلى مسئوليته كوصيٍّ على الآنسة بيوري — أن يسمح لمثل هذه الشائعات بالانتشار. أقسم بالله، يا سيدي، إنني لو كنت مكانه، لكنت قد أوقفتها — قبل أن تستفحلَ وتنتشر هكذا!»

قال برايس: «آه؟» وأردف: «ولكن كيف ذلك؟»

أجاب ساكفيل مع التأكيد: «أصنع عبرةً من شخصٍ ما.» وتابع: «أعتقد أن هناك قانونًا في هذا البلد، أليس كذلك؟ — قانونًا ضد القذف والتشهير، وهذا النوع من التجاوزات، أليس كذلك؟ أجل، بالتأكيد!»

قال برايس: «لم يكن هناك الكثيرُ من الوقت لذلك — حتى الآن.»

رد ساكفيل بسرعة، وهو يُؤرجح عصاه بقوة: «بل كان هناك الكثيرُ من الوقت.» وأضاف: «كلا، يا سيدي، رانسفورد مغفَّل! ومع ذلك، إذا لم يفعل الإنسان أمورَه بنفسه، حسنًا، فيجب على أصدقائه أن يفعَلوا شيئًا من أجله. إن رانسفورد، بالطبع، يجب أن يُسحب — يُشَد! — من هذه الحفرة الجهنمية. بالطبع هو مشتبَهٌ به! لكن زوج أمي سيُقدم له يدَ العون. وزوج أمي، يا برايس، لاعبٌ عجوز ماكر في مثل هذا النوع من الألعاب!»

قال برايس: «لا أحد يشكُّ في قدرات السيد فوليوت، أنا متأكد من ذلك.» وتابع: «لكن — أنت لا تُمانع في أن تقول — كيف سيقدِّم له يدَ العون، أليس كذلك؟»

رد ساكفيل على الفور: «يُحرِّك الأمور نحو كشف الغموض.» وأضاف: «يجعل الأمر برُمَّته يُفحص — يُتحرى فيه بالكامل. هناك أمورٌ لم يُتطرَّق إليها بعد. سترى، يا بني!»

قال برايس: «أنا سعيدٌ لسماع ذلك.» وتابع: «لكن لماذا يهتمُّ السيد فوليوت هكذا بشأن تبرئة ساحة رانسفورد؟»

أرجح ساكفيل عصاه، ورفع ياقته، ورفع أنفه قليلًا.

وقال: «أوه، حسنًا.» وتابع: «بالطبع، إنه ... إنه أمرٌ واضح للغاية، ألا تعلم ما بيني وبين الآنسة بيوري — وأنه بالطبع، لا يمكن أن يكون لدينا أيُّ شبهات تمسُّ وصيَّها؟ إنها مصلحة العائلة — زوجة قيصر، وكل هذا النوع من الأشياء — ألا تعي ذلك؟»

أجاب برايس بهدوء: «فهمت ... نوعٌ من الترتيب العائلي. سيتم هذا بموافقة ومعرفة رانسفورد، بالطبع، أليس كذلك؟»

قال ساكفيل بتعالٍ: «لن يُؤخَذ حتى رأي رانسفورد.» ثم أضاف: «إن زوج أمي — إنه رجلٌ ثاقب الفكر، كما تعرف، يا برايس — سيفعل الأشياءَ بطريقته الخاصة. لذا ترقَّبِ اكتشافاتٍ مفاجئةً!»

أجاب برايس: «سأفعل.» وأضاف: «إلى اللقاء!»

ومن ثم عاد إلى شقتِه، متسائلًا عن مقدار الحقيقة في ملاحظات ساكفيل السخيفة. فهل ما زال هناك بعض الأمور الغامضة التي لم يُفكر فيها هو وهاركر؟ قد تكون هناك — كان لا يزال تحت تأثير تأكيدِ رانسفورد الساخط والدراميِّ لبراءته. هل كان رانسفورد سيسمح لنفسه بانفعالٍ من هذا النوع لو لم يكن، كما قال، جاهلًا تمامًا بالسبب المباشر لوفاة برادن؟ إن برايس، طوال الوقت، كان يبني نظريته، لأغراضه الخاصة، على مشاركة رانسفورد، الكاملة أو الجزئية، في تلك الوفاة — فإذا كان رانسفورد لا يعرف شيئًا عن ذلك حقًّا، فإلى أين ستؤدي نظرية برايس هذه — وماذا ستكون نتيجةُ مخطَّطاته الحاليَّة؟ وبالإضافة إلى ذلك، إذا كان تأكيد رانسفورد صحيحًا، وإذا كانت قصة فارنر عن اليد، التي شُوهدت للحظةٍ في المدخل، صحيحة أيضًا — وكان فارنر مُصرًّا عليها — إذن، مَن هو الرجل الذي دفع برادن لِيَلقى حتفه في ذلك الصباح؟ لقد أدرك أنَّ الأمور، بدلًا من أن تتكشَّف له، أصبحَت أكثرَ تعقيدًا.

لكنه أدرك شيئًا آخر. ظاهريًّا، كانت هناك حالةُ اشتباهٍ قويةٌ في رانسفورد. ولقد أعلن عنها هذا الصباحَ أمام قاضي التحقيق وهيئة المحلَّفين الخاصة به؛ وسوف تتزايد، وقد تعمَّق الشعور بالرِّيبة والاشتباه تجاه رانسفورد بالفعل لدى الشرطة. ألن يدفع ذلك برايس لتشجيع تلك الحالة، وتنميَتِها؟ لقد كان يحمل ضغينةً ضدَّ رانسفورد، كما كانت لديه مُخططاتُه بخصوص ماري بيوري. على أي حال، هو لن يُشارك في أي محاولات لتبرئة ساحة الرجل الذي طرَده من منزله بوقاحة — سوف ينتظر المزيد من التطورات. وفي غضون ذلك، كانت هناك أشياءُ أخرى يجب القيام بها — أحدها في هذه الليلة تحديدًا.

ولكن قبل أن ينخرطَ برايس في مهمته السرية المتمثِّلة في حفر جزء صغير من بارادايس خلف مقبرة ريتشارد جينكينز، حدث تطورٌ غريب آخر. إذ عندما حلَّ الظلام على المدينة العتيقة في تلك الليلة وبينما هو يُفكر في الانطلاق للقيام بمهمته، جاء إليه ميتشينجتون، وهو يحمل ورقتَين في يده، من الواضح أن حبر طباعتهما لم يجفَّ بعد. ونظر إلى برايس بتعبيرٍ يدل على الدهشة.

وقال: «هذا أمرٌ غريب!» وتابع: «ولا يُمكنني تفسيره على الإطلاق! انظر إلى هذَين المنشورين الكبيرين — لكن ربما تكون قد رأيتهما بالفعل، أليس كذلك؟ إنهما يُوزَّعان باليد في جميع أنحاء المدينة — لقد أُدخلت مجموعةٌ منهما إلى مكتبنا.»

قال برايس: «لم أخرج منذ وقت الغداء.» وأضاف: «ما هاتان الورقتان؟»

فرد ميتشينجتون الورقتين على الطاولة، وأخذ يُشير من واحدة إلى أخرى.

وقال: «هل ترى؟» وأردف: «مكافأة خَمسمائة جنيه! مكافأة ألف جنيه! وكلتاهما معلَنٌ عنهما في الوقت نفسِه، لكن من مصدرَين مختلفين!»

سأله برايس، وهو ينظر إلى المنشورَين: «ما هما المصدران؟» وأضاف: «آه — لقد فهمت. أحدها موقع من فيبس وماينارد، والآخر من بيتشكروفت. إنه أمر غريب، بالتأكيد!»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «أمر غريب؟» وأردف: «ينبغي أن أظن ذلك! لكن انظر معي يا دكتور في البداية إلى هذا المنشور المكتوب به إنَّ هناك مكافأةً قدرها خَمسُمائة جنيه مقدَّمة للحصول على معلوماتٍ من أيِّ نوع ذات صلةٍ بوفاة جون برادن وجيمس كوليشو، سواءٌ أحدهما أو كلاهما. سيدفع فيبس وماينارد هذا المبلغ للحصول على معلوماتٍ مُرضية. وفيبس وماينارد هما محاميا برانسفورد! إن هذا المنشور، يا سيدي، صادرٌ عنه! لننتقل الآنَ إلى المنشور الآخَر، ذي المكافأة التي قدْرها ألف جنيه، التي ستُقدَّم لأي شخص يمكنه تقديمُ معلومات محدَّدة عن ملابسات وفاة جون برادن — والتي سيدفعها السيد بيتشكروفت. وهو محامي السيد فوليوت! إذن، هذا صادرٌ عن السيد فوليوت. ما علاقته بالأمر؟ وهل هذان الشخصان شريكان في الأمر، أم إن هذَين المنشورَين منفصلان تمامًا كلٌّ منهما عن الآخر؟ أنا غير قادر على فهم ذلك!»

قرأ برايس وأعاد قراءة محتويات المنشورَين. ثم فكَّر بعضَ الوقت قبل أن يتكلم.

ثم قال في النهاية: «حسنًا، هذا هو السبب بلا شك؛ إن عائلة فوليوت أناسٌ أثرياءُ جدًّا. والسيدة فوليوت، وهي شخصية معروفة للغاية، تريد أن يتزوجَ ابنُها الآنسةَ بيوري — ربيبة الطبيب رانسفورد. وهي لا ترغب على الأرجح في أن يشوبَ العائلةَ أيُّ شائبة. هذا كلُّ ما يُمكنني اقتراحه. وفي الحالة الأخرى، يريد رانسفورد تبرئةَ نفسِه. لا تنسَ، يا ميتشينجتون أنه في مكانٍ ما، قد يعرف شخصٌ ما شيئًا ما! فقط شيئًا ما. لكن هذا الشيء قد يُبرئ سُمعة رانسفورد من الشبهات التي تحوم حوله بلا شك. إذا كنتَ تُفكر في الحصول على حُجة قوية ضد رانسفورد، فلديك مجموعةُ عملِك. لقد وجَّه لنظريتك

ضربةً قوية هذا الصباحَ بكلماته القليلة حول تلك الحبَّة. هل عثر كوتس وإيفرست على إحدى هذه الحبات في معدة القتيل؟»

أجاب ميتشينجتون: «ليس لديَّ أوامرُ للتصريح بذلك، يا سيدي.» وأضاف: «في الوقت الحاضر، على أيِّ حال. إم! أنا لا أحب مثل هذه العروضِ الخاصة بالمكافآت — فهذا يعني أن أولئك الذين يُقدمونها سيحصلون على المعلومات التي ستُحجب عنا، كما ترى! إنها غيرُ ملائمة.»

ثم غادر، أما برايس، الذي انتظر قليلًا، حتى حلَّ الليل، فقد تسلَّل خارج المنزل بهدوء وانطلق إلى فِناء بارادايس المظلم.

الفصل السادس عشر

السبق

وفقًا لقدرته التي لا يمكن إنكارها على التدبير والتخطيط، أجرى برايس استعداداتٍ مناسبةً وحريصةً من أجل زيارته لمقبرة ريتشارد جينكينز. وحتى في ظل حالة الارتباك المؤقَّت التي أعقبَت عثوره على جثة كوليشو، كان منتبهًا بما يكفي لتحقيق أغراضه المباشرة بحيث لاحظ أن المقبرة — وهي بناءٌ قديم جدًّا ومتهدم — توجد في وسط مساحةٍ صغيرة من الرصيف الحجري بين أشجار الصنوبر وحائط صحن الكاتدرائية؛ كما لاحظ أن الرصيف يتألف من بلاطات صغيرة مربعة الشكل من الحجر، التي بعضها يحمل أحرفًا أُولى وتواريخَ. إن إلقاء نظرة فاحصة على المكان المفترض للنقطة المحددة التي كان يريدها، كما هو موضَّح في قصاصة الورق المأخوذةِ من حقيبة برادن، أظهر له أنه كان سيتعيَّن عليه رفعُ واحدة من تلك البلاطات الصغيرة — وربما اثنتَين أو ثلاثٍ منها. ولذا فقد جهَّز نفسه بعَتلة قصيرة من الفولاذ المقسى، اشتراها خِصِّيصى من تاجر الأدوات المعدنية، وبمصباح صغير. ولو قُبض عليه وفُتش وهو يشق طريقه نحو محيط الكاتدرائية فربَّما كان من المعقول أن يُشتبه به لتخطيطه لاقتحام المتحف والاستيلاءِ على الكنوز المتنوِّعة التي تشتهر بها رايتشستر. لكن برايس لم يخشَ الاعتقال ولا الاشتباه. إذ إنه أثناء إقامته في رايتشستر، تجوَّل كثيرًا حول المدينة العتيقة في الليل، وكان يعلم أن بارادايس، في أي وقتٍ بعد حلول الظلام، تُصبح مكانًا مهجورًا. قد يعبر الناسُ الممرَّ القريب إلى البوابة الصغيرة عن طريق المسار الخارجي، لكن لن يخترقَ أحدٌ الحاجزَ السميك من الصنوبر والسرو عندما يحُلُّ الليل. والآن، في أوائل الصيف، يصبح حاجز الأشجار والشجيرات سميكًا للغاية وكثيفَ الأوراق، بحيث إنه بمجرد الدخول إلى الفِناء، ومع وجود أوراق الشجر على جانب، والجدران العظيمة للصَّحن على الجانب الآخر، يُصبح هناك احتمالٌ ضئيل بأن يكتشف أيُّ شخصٍ ما يفعله أثناء مهمة البحث

التي يُجريها. ومن ثَم لقد توقَّع القيام بمهمة سريعة وهادئة، تُنجَز في غضون دقائق قليلة.

ولكن كان هناك شخصٌ آخر في رايتشستر يعرف قدرًا كبيرًا من جغرافيا فِناء بارادايس مثلَما يعرفها بيمبرتون برايس. إذ إن علاقة ديك بيوري وبيتي كامباني قد تطورت مؤخرًا من مرحلةِ زمالة الدراسة إلى بدايات فجرِ الحب الأولى، وعلى الرغم من أن لقاءاتهما المتكررةَ قد بدأت بالمراسلات الرومانسية فيما بينهما، فإن بهجةَ وغموض تلك المراسلات قد تضاعفَت مائة ضعفٍ عبر طريقةٍ سرية لتبادلها. ففي داخل البوابة الصغيرة لبارادايس، يوجد نصبٌ تذكاري عتيق به تجويف مناسب — حوَّله ذكاء ديك بيوري إلى مكتبِ بريدٍ للحب. لقد كان يضع فيه بانتظامٍ رسائلَ لبيتي، كما كانت تضع فيه بيتي رسائلَ له. وفي هذا المساء بالذات، ذهب ديك إلى بارادايس ليحصلَ على رسالةٍ محتملة، وبينما كان برايس يسير على مهلٍ عبر المسار الضيق، المحاط بالأشجار والمباني العتيقة الذي يؤدي من فرايري لين إلى الفِناء العتيق، انعطف ديك عند إحدى الزوايا وهو يَعْدو فاصطدم به. وعلى ضوء المصباح الوحيد الذي أضاء المسار، تمالكَ الاثنان نفسَيهما ونظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

فقال برايس: «مرحبًا!» وتابع: «لماذا أنت مسرعٌ هكذا، يا صغيري؟»

تراجع ديك، الذي كان يلهث، بسبب الانفعال أكثرَ من الجري، ونظر إلى برايس. حتى تلك اللحظة، لم يكن يعرف ما يجعله يتخذُ موقفًا مُعاديًا ضد برايس، الذي كان يعجبه نوعًا ما بالطريقة التي يُعجب فيها الأولاد أحيانًا بمن يَكبُرونهم في السن، كما كان يثق به.

فردَّ عليه قائلًا: «مرحبًا!» وتابع: «عجبًا! إلى أين أنت ذاهب؟»

أجابه برايس: «ليس إلى مكانٍ محدد! — فقط أتجوَّل.» وأردف: «لا يوجد غرضٌ معيَّن.»

سأله ديك، وهو يُشير بإبهامه نحو بارادايس: «ألم تكن ذاهبًا إلى هناك؟»

صاح برايس متعجبًا: «إلى هناك!» وتابع: «يا إلهي، كلا! إنه كئيبٌ بما فيه الكفاية في النهار! ولماذا ينبغي أن أذهب إلى هناك؟»

أمسك ديك بكمِّ معطف برايس وجذبه جانبًا.

وقال هامسًا: «اسمع!» ثم أردف: «يوجد شيءٌ ما هناك — بحثٌ من نوعٍ ما!»

جفَل برايس على الرغم من محاولته إبداءَ عدم الاكتراث.

وقال: «بحث؟ هناك؟» وأضاف: «ماذا تقصد بذلك؟»

أشار ديك نحو الأشجار، فرأى برايس بصيصَ ضوءٍ خافت.

وقال ديك: «لقد كنتُ هناك — للتو.» وتابع: «وظهر بعضُ الرجال — ثلاثة أو أربعة. إنهم هناك، بالقرب من صحن الكنيسة، حيث وجدتُ ذلك الرجلَ الذي يُدعى كوليشو. إنهم ... يحفرون — أو شيء من هذا القبيل!»

تمتم برايس: «يحفرون!» وأضاف: «هل يحفرون؟»

أجاب ديك: «شيء من هذا القبيل، على أي حال.» وتابع: «استمع.»

سمع برايس رنةَ المعدن على الحجر. واستولت عليه قناعةٌ غيرُ سارة بأنَّ سعيه سيبوءُ بالفشل، وأن هناك شخصًا ما قد سبقه، ولعن نفسَه لأنه لم يُنجز الليلةَ الماضية ما تركه دون إنجاز حتى هذه الليلة.

ومِن ثَم سأل: «مَن هؤلاء؟» وأضاف: «هل رأيتهم — أعني وجوههم؟»

أجاب ديك: «لم أرَ وجوههم.» وأردف: «فقط هيئاتهم في الظلام. لكنني سمعتُ صوت ميتشينجتون.»

قال برايس: «إنهم من رجال الشرطة، إذن!» وتابع: «عجبًا، ما الذي يسعَون خلفه؟»

قال ديك في همس، وهو يجذب ذراع برايس مرة أخرى: «انظر هنا!» وأردف: «تعالَ! أعرف كيف أصلُ إلى هناك دون أن يرَونا. اتبَعني.»

تبِعه برايس على الفور، وبمجرد دخولِ ديك عبر البوابة الصغيرة، أمسك بمعصم رفيقه وقاده بين الشجيرات في اتجاه البقعة التي أتت منها الأصواتُ المعدنية. كان يسير بخُطًى خفيفة مثل قط، وبذل برايس كلَّ جهده ليحذوَ حذوه. وبعد لحظات من خلف حاجز من أشجار السرو نظرَا عبر امتداد من البلاطات الحجرية تقع في وسطها مقبرةُ ريتشارد جينكينز.

حول تلك المقبرة كان هناك خمسةُ رجال وجوههم مرئيةٌ بدرجةٍ كافية في الضوء الذي ألقاه اثنان من المصابيح القوية، وُضع أحدهما على المقبرة نفسها، والآخر على الأرض. عرَف المراقبان أربعةً من أصل خمسة في الحال. كان الأول، الذي كان راكعًا على البلاطات، ومشغولًا باستخدامِ عتلةٍ صغيرة تُشبه تلك التي يحملها برايس داخل معطفه، هو رئيسَ عمال البناء في الكاتدرائية. أما الثاني، الذي كان يقف بالقرب منه، فهو ميتشينجتون. وأما الثالث، فكان رجلَ دين — وهو من ذَوي الرتب القليلة في المجلس. أما الرابع — وهو مَن جعل حضوره برايس يجفل للمرة الثانية في ذلك المساء — فكان الدوق ساكسونستيد. لكنَّ الخامسَ كان غريبًا — وهو رجل طويل كان يقف بين ميتشينجتون والدوق، ومن

الواضح أنه يُولِي اهتمامًا قلِقًا بعمل رئيس عمال البناء. وكان برايس مقتنعًا بأنه ليس من أهل رايتشستر.

وبعد لحظةٍ اقتنع بحقيقةٍ أخرى مؤكَّدة بالقَدْر نفسِه. أيًّا كان ما يبحث عنه هؤلاء الرجال الخمسة، فهم ليس لديهم فكرةٌ واضحة أو دقيقة عن مكان وجوده بالضبط. كان رئيس العمال يخلع البلاطات الصغيرة بعتلته الواحدةَ تلوَ الأخرى، من الحافة الخارجية لسفح المقبرة العتيقة المبنية فوق الأرض، وعندما كان يُزيل كلًّا منها، كان يبحث في الأرض تحتها. وقدَّر برايس، الذي أدرك بديهيًّا ما كان يحدث، وعرَف أن شخصًا آخر غيره يمتلك سرَّ القصاصة الورقية، أن الأمر سيستغرقُ بعض الوقت قبل أن يصلوا إلى المكان المحدَّدِ المشارِ إليه في التعليمات المكتوبة باللاتينية. فتراجع بهدوء وجذب ديك بيوري.

ثم همس عندما انسحبا بعيدًا مخافةَ أن يسمعهما أحد: «قف هنا، والتزِم الصمت!» وأضاف: «وراقبهم! فأنا أريد أن أُحضر شخصًا ما — أريد أن أعرف مَن هو هذا الغريب. أنت لا تعرفه، أليس كذلك؟»

أجاب ديك: «لم أرَه من قبل.» وأردف: «اسمع! عُد بهدوء، ولا تَشِي بالأمر لأحد. أريد أن أعرف ما وراء كل هذا.»

ضغط برايس على ذراع الفتى ليُطمئِنَه وشقَّ طريقه عائدًا عبر الشجيرات. لقد أراد أن يُحضِر هاركر، وفي الحال؛ لذا سارع إلى منزل الرجل العجوز ودخل دون استئذان إلى رَدهة منزله. إن هاركر، الذي من الواضح أنه كان ينتظره، والذي كان في تلك الأثناء يُسلِّي نفسه بغليونه وكتابه، نهض من كرسيِّه عندما دخل الشاب.

وسأله: «هل عثرتَ على أي شيء؟»

فأجابه برايس: «لقد فشلنا!» وتابع: «أنا أحمقُ لأني لم أذهب في الليلة الماضية! لقد سبَقونا، يا صديقي! — هذا كل شيء!»

قال هاركر مستفسرًا: «مَن هم الذين سبقونا؟»

أجاب برايس: «خمسة أشخاص.» وأضاف: «ميتشينجتون، وعامل بناء، وأحد رجال الدين في الكاتدرائية، ورجل غريب، ودوق ساكسونستيد! ما رأيك في ذلك؟»

جفل هاركر فجأةً كما لو أنه قد أدرك شيئًا فجأة.

وصاح متعجبًا: «الدوق!» وتابع: «هذا مستحيل! يا للعجب! — هل ذلك ممكن حقًّا؟ صدِّقني، أنا لم أفكِّر فيه قط!»

سأله برايس: «تُفكِّر في ماذا؟»

قال هاركر: «لا عليك! سأخبرك لاحقًا.» وتابع: «في الوقت الحالي، هل هناك أيُّ فرصة لإلقاء نظرة عليهم؟»

أجاب برايس بسرعة: «هذا ما جئتُ من أجله.» وأردف: «لقد كنت أراقبهم مع بيوري الصغير. هو مَن أخبرني عنهم. هيا! أريد أن أرى ما إذا كنت تعرف الرجل الغريب.»

توجَّه هاركر نحوَ خِزانةٍ ذاتِ أدراج في الرَّدهة، وبعد بعض البحث أخرج منها شيئًا ما.

ثم قال، وهو يُناول برايس بعض الأشياء: «خذ!» وتابع: «ارتدِ هذا فوق حذائك. إنه جرموق من اللباد السميك — يمكنك المشي داخل غرفة نومِ والدتك وأنت ترتديها ولن تسمعَك أبدًا. وسأفعل الشيء نفسَه. أنت تقول إنك قد شاهدت رجلًا غريبًا، أليس كذلك؟ حسنًا، هذا دليلٌ على أن شخصًا ما يعرف سرَّ تلك القصاصة من الورق مثلنا، يا دكتور!»

قال برايس، الذي كان غاضبًا من فقدان اكتشافه: «إنهم لا يعرفون المكان المراد.» ثم أضاف: «لكنهم سيعثرون عليه، أيًّا كان ما قد يوجد هناك.»

ومن ثَم قاد هاركر عائدًا نحو بارادايس وإلى المكان الذي ترَك فيه ديك بيوري، الذي اقتربا منه بهدوءٍ شديد لدرجة أن برايس أصبح بجانب الفتى قبل أن يعلمَ ديك بوجوده هناك. وجذب هاركر، بعد نظرةٍ واحدة على مجموعة الوجوه، برايس إلى الوراء ووضع شفتَيه بالقرب من أذنه ونطق اسمًا في همسةٍ غير محسوسة تقريبًا لكنها واضحة.

«إنه جلاسديل!»

جفل برايس للمرة الثالثة. إن جلاسديل هو الرجل الذي رآه هاركر في رايتشستر بعد ساعةٍ أو نحوِ ذلك من موت برادن؛ المجرم المدان السابق، المزوِّر، الذي زوَّر توقيعَ الدوق ساكسونستيد! وهناك ها هو ذا يقف، دون أيِّ خوفٍ على ما يبدو، إلى جانب الدوق. ماذا كان يعني كلُّ هذا؟

لم يكن هناك تفسيرٌ لما يَعنيه التعرضُ للخداع على يد الرجل الذي كان يُراقبه برايس وهاركر وديك بيوري سرًّا من خلف حاجز أشجار السرو. لقد كان الرجال الأربعة يشاهدون في صمت، أو كانوا يتهامَسون بين الحين والآخر، بينما كان الخامس يعمل. كان هذا الرجل يعمل بنحوٍ منظَّم، حيث كان يُعيد كل حجر إلى موضعه بعد أن يخلعه ويفحص الأرض تحته. ولم ينتج عن هذا أيُّ شيء حتى الآن، لكنه أصبح في ذلك الوقت يعمل على مبعدةٍ من المقبرة، وبرايس، الذي كانت لديه فكرةٌ دقيقة للغاية عن مكان

البقعة المرادة، كما هو موضَّح في الإرشادات الموضحة في قصاصة الورق، وكز هاركر عندما بدأ رئيس العمال في خلع آخر البلاطات الصغيرة. وفجأةً حدثَت حركةٌ بين المراقبين، ونظر رئيس العمال إلى أعلى وطلبَ من ميتشينجتون أن يُمرِّر له مجرفة مُلقاة على بُعد مسافة قصيرة.

وقال بصوتٍ عالٍ وصل إلى أذنَيْ برايس ورفيقَيه: «هناك شيءٌ هنا!» وأردف: «كما أنه ليس على عمق كبير، أيها السادة!»

بعد توجيه بعض الضربات القوية بالمجرفة، جرى إخراج بعض كُتَل التراب من الحفرة، ووضع رئيس العمال يده وأخرج طردًا صغيرًا، بدا في ضوء المصباح الذي يحمله ميتشينجتون بالقرب منه ملفوفًا في كيسِ خيشٍ خشن، ومغلقًا ببقع كبيرة من شمع الخَتْم الأسود. والآن، كان هاركر هو مَن وكز برايس، لِيَلفت انتباهَه إلى حقيقةِ أن الطرد، الذي سلَّمه رئيس العمال إلى ميتشينجتون، سُلِّم على الفور من قبل ميتشينجتون إلى الدوق ساكسونستيد، الذي، بدا واضحًا جدًّا أنه سعيدٌ بقدْر ما هو متفاجئ بالحصول عليه.

وقال: «دعونا نذهبْ إلى مكتبك، أيها المفتش.» وتابع: «سوف نفحص المحتويات هناك. دعونا نذهب جميعًا في الحال!»

ظل الأشخاص الثلاثة خلف أشجار السرو ثابتين وصامتين حتى غادرَ الباحثون الخمسة بمِصباحَيهم وأدواتهم وتلاشى صوتُ خطواتهم المبتعدة في فرايري لين. ثم تحرَّك ديك بيوري لينسلَّ مبتعدًا، فمدَّ برايس يده وأمسكه من كتفه.

وقال: «اسمع، يا بيوري!» وتابع: «هل ستُخبر أحدًا بكل هذا؟»

فتدخَّل هاركر في الحوار قبل أن يتمكَّن ديك من الإجابة.

وقال بهدوء: «لا يُهم إن فعل، يا دكتور.» وتابع: «أيًّا كان الأمر، ستعرفه المدينةُ بأكملها غدًا. إنهم لن يتكتَّموا عليه.»

ترك برايس ديك يذهب، فانطلق الفتى على الفور في اتجاه كلوس، بينما اتجه الرجلان نحو منزل هاركر. ولم يتحدَّث أيٌّ منهما حتى أصبحا بأمانٍ داخل الرَّدهة الصغيرة لمنزل المحقق العجوز، وهناك أضاء هاركر مصباحه ونظر إلى برايس وهز رأسه.

وقال بنبرةٍ شبهِ حزينة: «من الجيد أنني قد تقاعدت!» وأردف: «لقد أصبحتُ عجوزًا جدًّا بحيث أصبح من الصعب عليَّ القيامُ بمهامِّ عملي بكفاءة، يا دكتور. فيما مضى كنتُ لائقًا بما يكفي لأن ألوم نفسي لأنني لم أُسبِر أغوارَ هذا الأمر في وقتٍ أسرعَ مما فعلت!»

سأله برايس، على نحوٍ شبهِ متهكِّم: «هل استطعتَ سَبْر أغوارِه؟» وتابع: «ستكون أمهرَ مني بكثيرٍ إن كنتَ قد فعلت. إذ إنني للأسف لم أستطِع ذلك!»

أجابه هاركر: «لقد فعلتُ.» ثم فتح درجًا في مكتبه وسحب دفتر قصاصات، ممتلئًا، مثلما رآه برايس بعد لحظات، بقصاصاتٍ من الصحف، وكلها مرتَّبة ومفهرَسة على نحوٍ جيد. وبحث الرجل العجوزُ في الفهرِس، واتجه إلى صفحةٍ معينة، ووضع إصبعه على إحدى القصاصات. ثم قال: «ها هي ذي!» ثم تابع: «وهذه واحدة فقط — وهناك المزيد. إنها ستوضِّح لك بالتفصيل ما يمكنني أن أخبرك به في بضعِ كلمات وما كان ينبغي أن أتذكَّره. لقد مرت خمسةَ عشر عامًا على السرقة الشهيرة في ساكسونستيد التي لم يُعرَف فاعلها مطلقًا — سرقة ماسات الدوقة — التي تُعَد واحدة من أذكى عمليات السرقة التي وقعت، يا دكتور. لقد سُرقت في إحدى الليالي بعد حفلة رقص كبيرة أُقيمت هناك؛ لم يستطِع أحدٌ إلقاء القبض على الفاعل مطلقًا، ولم يُعثر للماسات على أثرٍ مطلقًا. وسأدفع كلَّ ما أملك إن لم يكن الدوق وهؤلاء الرجال يُمتعون أعينَهم برؤيتها الآن! — في مكتب ميتشينجتون — وأنَّ مَن أبلغ الدوق بالمعلومات التي أرشدتهم إلى مكان وجودها هو جلاسديل!»

تعجَّب برايس، الذي كان يُجيل عقله في التطورات المحتملة، وقال: «جلاسديل! ذلك الرجل!»

قال هاركر: «ذلك الرجل، يا سيدي!» وأضاف: «لهذا السبب كان جلاسديل في رايتشستر يوم موت برادن. وهذا هو السبب وراء قدوم برادن، أو بريك، إلى رايتشستر من الأساس. بالطبع، كان هو وجلاسديل قد توصَّلا بطريقةٍ ما إلى السر، ولا شك أنهما كانا ينويان إخبارَ الدوق معًا، والحصول على المكافأة — التي كانت تبلغ ٩٥ ألف جنيه! ونظرًا إلى أن بريك قد مات، فقد تحدَّث جلاسديل إلى الدوق، لكن ...» هنا توقَّف الرجل العجوز ونظر إلى رفيقه نظرةً ماكرة وأضاف: «لا يزال السؤالُ التالي مطروحًا: كيف مات بريك؟»

الفصل السابع عشر

المراقبة

اندفع ديك بيوري داخل الغرفة التي تجلس فيها أختُه ورانسفورد ليُخبرهما بكمٍّ من الأخبار التي من النادر أن تُصادف مَن هم في السابعة عشرة المحبين للرومانسية. إذ إن التنقيبَ السريَّ والغامض في ساحات المقابر ليلًا، واكتشاف الحِزَم المختومة، التي يمكن فقط تخمينُ محتوياتها، وكلَّ ما لاحظه المراقبون المختبئون؛ هي أشياءُ كان يقرأ عنها في علم الأدب، ولكن لم يكن من المتوقَّع أن يُحالفه الحظُّ ويراها في الحياة الحقيقية. ولأنه موهوبٌ ببعض قدرات التخيُّل والسرد، فقد استطاع توصيل قصته على أفضلِ نحوٍ لاثنين من المستمعين منتبِهَيْن للغاية، كان لكلٍّ منهما أسبابُه للاهتمام الخاصِّ بها.

قالت ماري عندما انتهت قصةُ ديك: «المزيد من الغموض!» ثم أردفت: «يا له من أمرٍ مؤسف أنهم لم يفتَحوا الطرد!» ونظرَت إلى رانسفورد، الذي كان من الواضح أنه في حالةِ تفكير عميق. وقالت: «أعتقد أن كل شيء سينكشف، أليس كذلك؟»

أجاب وهو يلتفتُ إلى ديك: «بكل تأكيد!» ثم أضاف: «أنت تقول إن برايس قد أحضر هاركر العجوز — بعد أن شاهدتَ أنت وبرايس هذه الأحداث لمُدَّة؟ فهل قال لماذا أحضَرَه؟»

أجاب ديك: «لم يقُل أيَّ شيء عن أسبابه.» وتابع: «لكنني، اعتقدت، في النهاية، أن برايس أرادني أن ألتزمَ الصمت حيال الأمر، إلا أن هاركر العجوز قال إنه لا داعي لذلك.»

لم يُعلِّق رانسفورد على هذا، أما ديك، فبعد أن استنفدَ مخزونه من الأخبار، ذهب على الفور إلى الفراش.

قال رانسفورد بعد وقتٍ من الصمت: «إن السيد برايس يلعب لعبةً ما! أنا لا أعرف ما هي — لكنني متأكد من ذلك. حسنًا، سنرى!» وتابع بعد فترةٍ أخرى من الصمت: «لقد انزعجتِ كثيرًا من كل هذا ومعرفةُ أنكِ كذلك قد أحزنَتني للغاية! لكن عليكِ فقط أن

تتحلَّي بقليل — بقليل جدًّا — من الصبر، وستتضح الأمور — لا أستطيع أن أُفصح عن كلِّ ما في ذهني، حتى لكِ.»

واصلَت ماري عملَها في الحياكة، الذي كانت تقوم به بينما كان يقرأ عليها رانسفورد، كما كان معتادًا في الأمسيات، صحيفةَ «ذا تايمز».

وقالت: «لن أهتمَّ بشيء، فقط لو كان في الإمكان القضاء على تلك الشائعات المنتشرة في المدينة عنك!» وأردفَت: «إنه أمرٌ قاسٍ جدًّا، وحقير للغاية، أن مثل هذه الأشياء …»

طرقع رانسفورد أصابعه ليجذب انتباهها.

وردَّ بازدراء: «أنا لا أهتم بالشائعات!» وتابع: «إنها ستختفي فجأةً مثلما ظهرت فجأةً، وحينها — ربما، سأدع أشخاصًا معيَّنين في رايتشستر يعرفون رأيي فيهم. وبخصوص الشبهات المُثارة ضدي، فأنا أعلم بالفعل أن الأشخاص الوحيدين في المدينة الذين أهتمُّ برأيهم يؤمنون تمامًا بصحةِ ما قلتُه أمام القاضي. أما الآخرون، فلْيتكلَّموا كما يشاءون! وإذا وصل الأمر إلى نقطةٍ يجب معها التدخلُ قبل الوقت المناسب …»

قاطعَته ماري: «أنت تجعلني أعتقد أنك تعرف أكثر — أكثرَ بكثير! — مما قلتَه لي من قبل!»

رد: «هذا صحيح!» وأضاف: «وستُدركين في النهاية لماذا التزمتُ الصمت. بالطبع، إذا تدخَّل الأشخاص الذين لا يعرفون الكثير …»

قاطعه عندئذٍ صوتُ جرس الباب الأمامي، وهو ما جعله هو وماري ينظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

قالت ماري: «مَن عساه يكون الطارق؟» وتابعت: «لقد تجاوزت الساعة العاشرة.»

لم يُقدِّم رانسفورد أيَّ اقتراح. وجلس في صمتٍ ينتظر، حتى دخلَت الخادمة.

وقالت: «إن المفتش ميتشينجتون يود مقابلتَك لبضع دقائق، يا سيدي.»

فنهض رانسفورد من كرسيِّه.

وقال: «أدخِلي المفتش ميتشينجتون إلى غرفة المكتب.» وأردف: «هل هو بمفرده؟»

أجابت الفتاة: «كلا يا سيدي، هناك رجل بصحبته.»

أجاب رانسفورد: «حسنًا، سأقابلهما على الفور.» وأضاف: «أدخِليهما إلى هناك وأشعِلي المدفأة.» وتابع عندما انصرفت الخادمة: «عجبًا لأمر الشرطة! إنهم يتمسَّكون بالفكرة الأولى التي تسترعي انتباهَهم، ولا يبحثون عن فكرةٍ أخرى أبدًا، أنتِ لستِ خائفة، أليس كذلك؟»

أجابت ماري: «خائفة؟ كلا! غير مرتاحة؟ أجل!» وأضافت: «ما الذي قد يُريدونه، في هذا الوقت من الليل؟»

أجاب رانسفورد، وهو يُغادر الغرفة: «ربما ليُخبروني بشيء عن قصة ديك الرومانسية هذه.» ثم أردف: «أؤكد لكِ أنه لن يكون الأمر أكثرَ من هذا.»

لكنه لم يكن متأكدًا من ذلك. إذ كان يُدرك جيدًا أن سلطات شرطة رايتشستر لديها اشتباهٌ واضح في أنه مذنِب في قضيتَي برادن وكوليشو، وهو يعلم من التجرِبة أن اشتباه الشرطة أمرٌ يصعب تبديده. وقبل أن يفتح بابَ الغرفة الصغيرة التي اعتاد استخدامها مكتبًا، نبَّه نفسه بأن يتوخَّى الحذرَ والصمت.

وقف الزائران بالقرب من المدفأة، وألقى رانسفورد نظرةً فاحصة عليهما وهو يُغلق الباب خلفه. كان يعرف ميتشينجتون جيدًا؛ ولذا كان مهتمًّا أكثر بالرجل الآخر، الغريب. لقد كان هذا الشخصُ شخصًا هادئ الطباع، وذا مظهر عادي للغاية، وكان من الصعب تخمينُ وظيفته — لكن رانسفورد اعتبره على الفور محقِّقًا. والتفت بعد تفحُّص الرجل نحو المفتش.

وقال على نحوٍ فظٍّ بعض الشيء: «حسنًا.» وأردف: «ما الأمر؟»

أجاب ميتشينجتون: «آسفٌ لإزعاجك في وقتٍ متأخر كهذا، يا دكتور رانسفورد»، وأضاف، مع ابتسامةٍ أرادها أن تكون مطمئنةً: «لكنني سأصبح ممتنًّا للغاية إذا أعطيتنا بعض المعلومات — المطلوبة بشدة، يا دكتور، في ضوء الأحداث الأخيرة.» وتابع: «أنا متأكد من أنك تستطيع — إذا أردت.»

قال رانسفورد، مشيرًا إلى الكراسي: «اجلسا.» ثم جلس ونظر مرةً أخرى إلى الغريب. وسأل: «إلى مَن أتحدَّث، بالإضافة إليك، أيها المفتش؟» وتابع: «أنا لن أتحدَّث مع غرباء.»

قال ميتشينجتون، ببعض الحرج: «أوه، حسنًا.» وأضاف: «بالطبع، يا دكتور، كان علينا الحصولُ على بعض المساعدة المهنية في هاتين القضيتَين الصعبتين. إن هذا هو المحقِّق الرقيب جيتيسون، من نيو سكوتلاند يارد.»

سأل رانسفورد: «ما المعلومات التي تريدها؟»

نظر ميتشينجتون إلى الباب وخَفض صوتَه. ثم قال في تكتُّم: «ربما عليَّ أن أُخبرك أنا بمعلومةٍ أيضًا، يا دكتور، بأنه قد حدث اكتشاف استثنائي للغاية الليلة، له علاقة بقضية برادن. لقد سمعت بالقطع عن عملية السرقة الكبيرة للجواهر التي حدثَت في قصر الدوق ساكسونستيد قبل بضع سنوات، والتي ظلَّت لغزًا حتى يومنا هذا، أليس كذلك؟»

أجاب رانسفورد: «لقد سمعتُ عنها.»

فتابع ميتشينجتون: «رائعٌ جدًّا، في هذه الليلة هذه الجواهر — جميعها — عُثر عليها في بارادايس، حيث دُفنت، في وقت السرقة، من قِبَل اللص.» ثم أضاف: «وقد فُحصت للتو، وهي الآن في حوزةِ الدوق مرةً أخرى — بعد كلِّ هذه السنوات! ويمكن أن أُخبرك أيضًا أننا نعلم الآن أن الهدف من زيارة برادن إلى رايتشستر كان إخبار الدوق بمكان إخفاءِ تلك الجواهر. لقد علم برادن — هو ورجل آخر — بالسِّر، من اللص الحقيقي، الذي مات في أستراليا. يمكنني أن أُخبرك بكل هذا، يا دكتور — لأنه سيُصبح معلومًا للجميع غدًا.»

قال رانسفورد: «حسنًا؟»

تردَّد ميتشينجتون للحظة، وكأنه يبحث عن كلماته التالية. فنظر إلى المحقِّق، الذي ظل ساكنًا، ثم نظر إلى رانسفورد، فلم يشجِّعه رانسفورد.

ثم قال فجأةً: «الآن انتبِهْ لما سأقوله لك، يا دكتور!» وأردف: «لماذا لا تُخبرنا بشيء؟ نحن نعرف الآن مَن كان برادن بالفعل! إنه أمرٌ منتهٍ. هل تفهم ذلك؟»

سأل رانسفورد، بهدوء: «مَن كان، إذن؟»

أجاب ميتشينجتون وهو يُراقب رانسفورد بثباتٍ: «لقد كان جون بريك، المديرَ السابق لفرع أحد البنوك في لندن، الذي، قبل سبعة عشر عامًا، حُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقةِ بتهمة الاختلاس.» ثم أردف: «هذا أمر مؤكَّد؛ نحن نعرف ذلك! أخبرَنا الرجلُ الذي شاركه هذا السرَّ حول جواهر سكسونستيد بهذا القدْر من المعلومات، اليوم. إنه جون بريك!»

سأله رانسفورد: «لماذا أتيتَ إلى هنا؟»

أجاب ميتشينجتون: «لكي أسألك — بيني وبينك — إذا كان بإمكانك إخبارُنا بأي شيء عن سنوات بريك السابقة؛ ماضيه، الذي يُمكن أن يساعدنا.» وأضاف: «ربما — كما يظنُّ جيتيسون وهو رجل صاحب خبرة كبيرة — سيتَّضح أن بريك — أو برادن كما نُسميه — قد قُتل بسبب حيازته لهذا السر الخاصِّ بالجواهر. لقد أخبرنا مصدرُ معلوماتنا بأن برادن كان لديه بالتأكيد، عندما جاء إلى رايتشستر، نوعٌ من الرسم التخطيطيِّ يوضح الموقعَ الدقيق للمكان الذي أُخفيت فيه الجواهر؛ هذا الرسم التخطيطي لم يُعثر عليه بالتأكيد مع برادن عندما فتَّشنا ملابسه ومتعلقاته. ربما يكون قد انتُزع منه في مقصورة نوافذ الإضاءة العلوية في ذلك الصباح، وربما يكون قد ألقاه مهاجمه، أو مُهاجماه — إذ ربما كان هناك رجلان في هذه المهمة — بعد ذلك من خلال المدخل المفتوح، بعد محاولة

خنقِه. وإذا كانت هذه النظرية صحيحة — وأنا شخصيًّا أميلُ إليها تمامًا — فسيُصبح من المفيد جدًّا أن تُخبرنا بما تعرفه عن السنوات السابقة في حياة برادن — أو بريك. هيا، يا دكتور، أنت تعلم جيدًا أن برادن، أو بريك، قد أتى إلى عيادتك في ذلك الصباح وأخبر مساعدك أنه كان يعرف طبيبًا يُدعى رانسفورد في الماضي! لماذا لا تتكلَّم؟»

نظر رانسفورد، بدلًا من الردِّ على مُناشدة ميتشينجتون الصادقة بوضوح، إلى رجل نيو سكوتلاند يارد.

وسأله: «هل هذه نظريتك؟»

أومأ جيتيسون برأسه، بحركةٍ تدل على الاقتناع.

وأجاب: «أجل، يا سيدي!» وأضاف: «بالنظر لجميع ملابسات القضية، التي عُرضت عليَّ منذ أن جئتُ إلى هنا، وبالنظر على نحوٍ خاصٍّ للأمور التي أدَّت إلى العثور على تلك الجواهر، فإن هذه هي نظريتي! بالطبع، لقد غيرَت أحداثُ اليوم كلَّ شيء. ولولا مصدر معلوماتنا ...»

استفسر رانسفورد: «مَن هو مصدر معلوماتك؟»

نظر الزائران أحدهما إلى الآخر، ثم أومأ المحققُ برأسه للمفتش.

قال ميتشينجتون: «أوه، حسنًا!» وأضاف: «لا ضرر من إخبارك يا دكتور. إنه رجلٌ يُدعى جلاسديل، كان في السابق مجرمًا مدانًا مع بريك. ويبدو أنهما قد غادرا إنجلترا معًا بعد انتهاء مدة سجنهم، وهاجرا معًا، وازدهرَت أحوالهما المادية، حتى قرَّرا — كلاهما — أن يُعيدا الأموال التي استولَيا عليها، وعادا معًا في النهاية — وبحوزتهما هذا السِّر. وقد جاء بريك خصِّيصى إلى رايتشستر لإخبار الدوق — وكان من المقرَّر أن ينضم جلاسديل إليه في صباح اليوم الذي لاقى فيه بريك حتفَه. وقد جاء جلاسديل إلى المدينة في ذلك الصباح، وبمجرد وصوله إلى هنا، سمِع بالموت الغريب لبريك. فأزعجه ذلك، وغادر المدينة؛ فقط ليعود اليوم، ويذهب إلى ساكسونستيد، ويخبِر الدوق بكل شيء، وكانت النتيجة هي التي أخبرناك بها.»

قال رانسفورد، وهو ينظر بثباتٍ نحو ميتشينجتون: «وهي النتيجة التي يبدو أنها غيَّرَت كلَّ أفكارك عني!»

ضحِك ميتشينجتون ببعض الإحراج.

وقال: «أوه، دعك من هذا، يا دكتور!» وأردف: «في الواقعِ، أنا بصراحةٍ أنا أميل إلى نظرية جيتيسون — في الواقع، أنا متأكد من أن هذه هي الحقيقة.»

تساءل رانسفورد، وهو يلتفتُ إلى المحقق: «لخِّص لي نظريتك في بضع كلمات.»

أجاب جيتيسون: «إن نظريتي — وأنا واثق تمامًا من أنها النظرية الصحيحة — هي ما يلي.» وتابع: «لقد جاء بريك إلى رايتشستر حاملًا سرَّه. ولم تقتصر معرفةُ هذا السر عليه وعلى جلاسديل؛ فإما أنه قد باح به لشخصٍ ما، أو أنه كان معروفًا لشخصٍ ما. وأنا فهمت من المفتش ميتشينجتون أنه في مساء يوم وصوله، خرج بريك من فندق مايتر وغاب لمدة ساعتين. خلال ذلك الوقت، كان في مكانٍ ما؛ مع مَن؟ ربما مع شخصٍ استخلص منه السرَّ أو هو أبلغه به. لأنه، فكِّر معي! وفقًا لجلاسديل، الذي، نحن متأكدون تمامًا من أنه قد قال الحقيقة الدقيقة عن كل شيء، كان بريك يحمل معه قصاصةً من الورق، بها تعليمات، باللغة اللاتينية، للعثورِ على المكان المحدَّد الذي خُبِّئت فيه جواهر ساكسونستيد المفقودة، قبل سنوات، من قِبَل اللص الفعلي — الذي، يُمكنني أن أقول لك، يا سيدي، إنه لم تُتَح له الفرصة قط للعودة كي يستحوذَ عليها مرة أخرى. وبعد وفاة بريك، فحص رجال الشرطة ملابسه وأمتعته — فلم يعثروا على قصاصة الورق هذه قط! وأنا أُفسِّر الأمور بهذه الطريقة. لقد جرى تتبُّع بريك إلى تلك المقصورة — وهو مكانٌ هادئ لا يوجد به أحد — من قِبَل الرجل — أو الرجلَين — الذي يعلم السر، وكان هو، مثلما أخبروني، رجلًا ضعيفَ البِنية، وليس قويًّا جدًّا؛ لذا حُوصر وسُرقت منه تلك الورقة وأُلقي به لِيَلقى حتفه. وكل هذا يتناسب مع اللغز الثاني الخاص بكوليشو — الذي ربما كان يعرف إذن شيئًا ما، إن لم يكن كل شيء، عن المُلابسات الفعلية لموت بريك، وترك أخبار معرفته بالأمر تصل إلى أذنَيْ قاتلِ بريك — الذي تخلص منه بذكاء. هذه هي نظريتي.» ثم أضاف: «وسأُفاجأ إذا لم تكن نظرية صحيحة!»

قال ميتشينجتون مقاطعًا: «وكما قلت، يا دكتور، ألا يُمكنك أن تُعطيَنا القليل من المعلومات، الآن؟ هل ترى الخطَّ الذي نتتبَّعه؟ والآن، بما أنه من الواضح أنك كنت تعرف برادن، أو بريك ...»

قاطعه رانسفورد بحِدَّة: «أنا لم أقل ذلك قط!»

قال ميتشينجتون: «حسنًا، نحن مَن استنتجنا ذلك من الحقيقة التي لا شكَّ فيها أنه قد جاء هنا لمقابلتك.» وأردف: «وإذا ...»

قال رانسفورد: «انتظر!» لقد كان يستمع باهتمام شديد إلى نظرية جيتيسون، ثم نهض الآن من كرسيِّه وبدأ في ذرع الغرفة، ويداه في جيبيه، كما لو كان يُفكر تفكيرًا

عميقًا. وفجأةً توقَّف ونظر إلى ميتشينجتون. وقال: «هذا يحتاج إلى بعض التفكير. هل لديك ما يكفي من الوقت؟»

أجاب ميتشينجتون، بلا تردُّد: «بكل تأكيد.» ثم أردف: «وقتُنا تحت أمرك، يا سيدي. خذ ما تريده من الوقت.»

دقَّ رانسفورد الجرس لاستدعاء الخادمة وطلب منها إحضارَ الويسكي، والصودا، والسيجار. ومن ثَم قدَّم هذه الأشياءَ للرجلَين، وأشعل سيجارًا، واستمر مدةً طويلة في السير ذَهابًا وإيابًا في جزء الغرفة الذي كان يجلس فيه، وهو يُدخن ويُفكِّر بعمقٍ كما كان من الواضح. ولم يُقاطعه الزائران، لكنهما ظلا يُراقبانه بفضولٍ بين الحين والآخر — إلى أن سحب، بعد مرور عشر دقائق، كرسيًّا فجأةً بالقرب منهما وجلس مرة أخرى.

وقال: «الآن، استمِعا إليَّ!» وأردف: «إذا كشفتُ لكما عما أعرفه، كرجلَي شرطة، هل ستَعِدانني بأنكما لن تستخدما معلوماتي حتى أُعطيَكما الإذن — أو حتى تستشيراني في الأمر أكثر؟ سأثق في وعدكما، تذكَّرا هذا!»

أجاب ميتشينجتون: «أعدك، يا دكتور.»

وقال المحقِّق: «وأنا كذلك، يا سيدي.»

تابع رانسفورد: «جيدٌ للغاية.» وأردف: «إذن ما سأُخبركما به هو سرٌّ بيننا، حتى يحينَ الوقت الذي أقول فيه المزيد عن ذلك. أولًا: لن أقول أيَّ شيء على الإطلاق عن ماضي برادن — في الوقت الحاليِّ! ثانيًا: أنا لستُ متأكدًا من أن نظريتك، يا سيد جيتيسون، صحيحة تمامًا، على الرغم من أنني أعتقد أنها تقترب جدًّا من النظرية الصحيحة — التي من المؤكد أنها ستظهر في وقتٍ قريب. لكن بِناءً على اتفاقنا بالحفاظ على السرِّية في الوقت الحاضر، يمكنني أن أُخبِرَكما بشيءٍ لم يكن من المفترض أن أصبح قادرًا على إخباركما به لولا أحداثُ الليلة، التي جعلَتني أستنتجُ حقائقَ معينة. والآن انتبِها! في البداية، أنا أعرف أين كان برادن على أيِّ حال في وقتٍ ما في مساء اليوم الذي جاء فيه إلى رايتشستر. لقد كان مع الرجل العجوز الذي نعرفه جميعًا باسم سيمبسون هاركر.»

أطلق ميتشينجتون صفيرًا، بينما نظر إليه المحقِّق، الذي لم يكن يعرف شيئًا عن سيمبسون هاركر، كما لو كان يطلب منه معلوماتٍ عنه. لكن ميتشينجتون أومأ برأسه لرانسفورد، فواصل رانسفورد كلامه.

وقال: «سبب معرفتي بذلك هو ما يلي.» وأردف: «أنت تعرف أين يعيش هاركر. وأنا كنتُ أعالج مريضًا يسكن في المنزل المقابل لمنزله مدةَ ساعتين تقريبًا في ذلك المساء

— وأمضيت وقتًا طويلًا في النظر من النافذة. ومن ثَم رأيت هاركر يصحب رجلًا إلى منزله، ورأيت الرجل يُغادر المنزل بعد نحوِ ساعة، وتعرَّفت على ذلك الرجل في اليوم التالي باعتباره الرجلَ الذي لقي حتفه عند الكاتدرائية. هذا كلُّ ما يخصُّ هذا الأمر.»

تمتمَ ميتشينجتون قائلًا: «جيد!» وأضاف: «جيد! هذا يوضح الكثير.»

وتابع رانسفورد: «لكن ما يجب أن أُخبركما به الآن هو أكثرُ أهمية — وسريةً بكثير. الآن، هل تعلمان — لكن، بالطبع، أنتما لا تعلمان — أن إجراءاتكما الليلة رُوقبت؟»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «رُوقبت!» وأضاف: «مَن الذي راقبنا؟»

أجاب رانسفورد: «هاركر، من ناحية.» وتابع: «ومن الناحية الأخرى، مساعدي السابق، السيد بيمبرتون برايس.»

فغرَ ميتشينجتون فمَه.

وقال: «يا إلهي!» وتابع: «أنت لا تعني ذلك يا دكتور! عجبًا، كيف ...»

قاطعه رانسفورد قائلًا: «انتظر لحظة.» ثم غادر الغرفة، فنظر الزائران كلٌّ منهما إلى الآخَر.

وقال جيتيسون على نحوٍ هامس: «هذا الرجل يعرف أكثرَ مما تعتقد.» وأردف: «وأكثرَ مما يقوله الآن!»

قال ميتشينجتون، الذي فُوجئ كثيرًا بالمعلومة الأخيرة التي قالها رانسفورد: «دَعْنا نحصل على كلِّ ما في وُسعنا، إذن.» وتابع: «لنحصل عليه بينما هو في مِزاجٍ يدعوه للحكي.»

نصحه جيتيسون قائلًا: «دَعْه يأخذْ وقته.» وأضاف: «لكن تذكَّرْ ما قلته لك — إنه يعرف الكثير! وهذا مجرد جزء بسيط.»

عاد رانسفورد ومعه ديك بيوري، الذي كان يرتدي مَنامةً منقوشة بألوان مرحة.

وقال رانسفورد: «والآن، يا ديك.» وأضاف: «أخبِرِ المفتش ميتشينجتون بالضبط بما حدث هذا المساء، بحسب معرفتك.»

لم يتردَّد ديك في سرد قصته للمرة الثانية — خاصةً إلى اثنين من المستمعين المحترفين. وقد رواها بالتفصيل، من لحظةِ لقائه المفاجئ ببرايس إلى تلك التي ترك فيها برايس وهاركر. أدركَ رانسفورد، وهو يُراقب وجهَي الرجلَين، ما في القصة من عناصرَ جذبت انتباهَهما وأثارت اهتمامَها.

سأل ميتشينجتون، عندما انتهى ديك من سرد قصته: «لقد ذهب دكتور برايس على الفور لجلب هاركر، أليس كذلك؟»

أجاب ديك: «على الفور.» وأضاف: «وسرعان ما عاد معه!»

تابع ميتشينجتون: «وقال هاركر إنه لا يُهم إذا كنت ستُخبر أحدًا أم لا؛ لأن الأمر سيُصبح من الأخبار العامة قريبًا جدًّا؟»

قال ديك: «بالضبط.»

نظر ميتشينجتون إلى رانسفورد، فأومأ رانسفورد برأسه إلى رَبيبه.

وقال: «حسنًا، يا ديك.» وأضاف: «هذا يكفي.»

فغادر الفتى مرةً أخرى، وهزَّ ميتشينجتون رأسه.

وقال: «أمرٌ غريب!» وأردف: «الآن ما الذي كان هذان الاثنان يُخطِّطان له؟ — من المؤكد، أنهما كانا يُخططان لشيءٍ ما. هل يمكنك إخبارنا بالمزيد، يا دكتور؟»

أجاب رانسفورد، وهو يجلس على كرسيِّه مرة أخرى: «في ظل الشروط نفسها، أجل.» وتابع: «الحقيقة هي أن الأمور قد وصلت إلى مرحلةٍ حيث أعتبر أنه من واجبي أن أُخبركما بالمزيد. بعضُ ما سأخبركما به هو معلومة غير مؤكَّدة — لكنها معلومة يُمكنكما بسهولة التحقُّقُ منها بنفسَيكما عندما يحينُ الوقت المناسب. أخبرني السيد كامباني، أمين المكتبة، مؤخرًا أن مساعدي السابق، السيد برايس، يبدو أنه يهتمُّ بنحوٍ غيرِ عادي بالأمور الأثرية منذ أن ترك العمل لديَّ — وهو الآن، كما قال كامباني، يفحص دائمًا الوثائق ذات الصلة بالمقابر والآثار القديمة الخاصة بالكاتدرائية ومحيطها.»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «آه، هكذا إذن!» وأضاف: «بلا شك، لقد بدأتُ أفهم!»

وتابع رانسفورد: «وذكر كامباني كذلك، كتعليق طريف، أن برايس كان يقضي أيضًا الكثيرَ من الوقت في البحث حول مقابرنا القديمة. والآن أنتم قمتم بهذا الاكتشاف بالقرب من مقبرة قديمة، حسَبما فهمت، أليس كذلك؟»

قال المفتش موافقًا: «بالقرب بشدةٍ من واحدة — بلى.»

فتابعَ رانسفورد: «دعني إذن أَلفِت انتباهكما إلى حقيقةٍ أو اثنتين من الحقائق الغريبة — التي لا شك فيها.» وأردف: «لقد تُرك برايس وحده مع جثةِ برادن لبضع دقائق، أثناء ذَهاب فارنر لإحضار الشرطة. هذه هي الحقيقة الأولى.»

تمتمَ ميتشينجتون قائلًا: «هذا صحيح.» وتابع: «لقد تُرك هناك — عدةَ دقائق!»

قال رانسفورد: «كان برايس هو مَن اكتشف جثة كوليشو — في بارادايس.» وأضاف: «وهذه هي الحقيقة الثانية. أما الحقيقة الثالثة، فمن الواضح أن برايس كان لديه دافعٌ لجلب هاركر الليلة — لمراقبة عمَلياتكم. فماذا كان دافعه؟ وبتجميع الأمور معًا، ما هي، أو ماذا كانت، تلك الأمور السرِّية التي من الواضح أن برايس وهاركر قد اشتركا فيها؟»

نهض جيتيسون فجأةً، وعقد أزرارَ معطفه الخفيف. وبدا أن هذا يُشير إلى فكرةٍ تشكَّلَت للتو؛ استنتاج محدَّد. فالتفت بحدة إلى ميتشينجتون.

وقال: «هناك شيء واحد مؤكَّد، أيها المفتش.» وتابع: «وهو أنك ستراقب هذين الاثنَين من اليوم! من هذه اللحظة!»

قال ميتشينجتون موافقًا: «سأفعل!» وتابع: «سأُعيِّن من يُراقبهما أينما ذهبا أو كانا، ليلًا أو نهارًا. لطالما كان هاركر غامضًا إلى حدٍّ ما، لكن برايس — أنا متأكد أنه كان يتلاعب بي! من خلال لعبة مزدوجة — لكن، لا يهم. هل لديك المزيد من المعلومات، يا دكتور؟»

أجاب رانسفورد: «ليس بعد.» وأضاف: «وأنا لا أعرف المعنى الحقيقيَّ أو القيمة الحقيقية لما أخبرتُكما به. لكن خلال يومين من الآن، يُمكنني إخبارُكما بالمزيد. وفي غضون ذلك تذكَّرا وعْدَكما!»

ثم ترك زائِرَيه يغادران، وعاد إلى ماري.

وقال: «لن تُضطرِّي إلى الانتظار طويلًا حتى تتَّضحَ الأمور.» وأضاف: «فاللغز على وشك أن ينكشف!»

الفصل الثامن عشر

مفاجأة

خرج ميتشينجتون والرجل الذي من نيو سكوتلاند يارد في صمتٍ من منزل رانسفورد وظلا صامِتَين حتى وصلا إلى وسط كلوس ومن ثَم أصبحا بمعزلٍ تمامًا. حينها، التفت ميتشينجتون إلى رفيقه.

وسأله، مع نصف ضحكة: «ما رأيك في ذلك؟» وتابع: «إنه يجعلنا نرى الأمور بمنظورٍ مختلف، أليس كذلك؟»

رد المحقق: «أرى فقط ما قلته من قبل — هناك.» وأردف: «هذا الرجل يعرف أكثرَ مما أخبرَنا به، حتى الآن!»

سأل ميتشينجتون: «لماذا لم يتكلَّم قبل ذلك، إذن؟» وأضاف: «لقد أُتيحت له فرصتان جيدتان — في جلستَي التحقيق.»

قال جيتيسون: «مما رأيته منه للتو، أعتقد أنه من النوع الذي يُمكنه عدم الكشف عن آرائه حتى يرى أن الوقت المناسب قد حان للتحدُّث. إنه ليس من نوع الرجال الذين ينزعجون ولو بمقدارٍ ضئيل مهما قيل عنهم، هل تفهم ذلك؟ أرى أنه كان يعرف الكثير طوال الوقت، ولا يُصرِّح به حتى يتمكَّنَ من وضع لمسةٍ أخيرة عليه. يومين، ألم يقُل ذلك؟ أجل، حسنًا، يمكن أن يَحدث الكثير في غضونِ يومين!»

سأل ميتشينجتون: «لكن ماذا عن نظريتك؟» وأضاف: «ماذا تعتقد بخصوصها الآن — في ضوء ما سمعناه للتو؟»

أجاب جيتيسون: «سأُخبرك بما يمكنني رؤيته.» وتابع: «أستطيع أن أرى كيف تترابط أجزاء هذا اللغز بعضها مع بعض — في ضوءِ ما أخبرنا به رانسفورد للتو. بالطبع، يجب على المرء أن يستخدم قدرًا كبيرًا من الافتراض؛ فهو لا مفرَّ منه في مثل هذه الحالات. لنفترض الآن أن برادن قد أطلعَ المدعوَّ هاركر على سر الجواهر المخفية في

تلك الليلة، ولنفترض أن هاركر وبرايس متآمران — كما هو واضح، مما أخبرنا به ذلك الفتى — ولنفترض أنَّ لهما، معًا أو بشكل منفصل، علاقةً بموت برادن، ولنفترض أن ذلك الرجل المدعوَّ كوليشو قد رأى شيئًا ما من شأنه أن يَدين أحدهما أو كلَيهما — ما رأيك؟»

سأله ميتشينجتون: «ماذا إذن؟»

قال جيتيسون: «إن برايس طبيب.» وتابع: «ومن السهل بالنسبة إلى طبيب أن يتخلَّص من كوليشو لأنه جرى التخلُّص منه بلا شك. هل ترى ما أقصده؟»

تمتمَ ميتشينجتون: «أجل — ويُمكنني أن أدرك أن برايس لاعب ماهر في ذَرِّ الرماد في عيون أيِّ شخص!» وتابع: «لقد كان لديَّ بعض التعاملات معه بشأن هذه القضية ولقد بدأت أعتقد — الآن فقط! — أنه كان يخدعني! من الواضح أنه مخادعٌ كبير — وكذلك الرجل الآخر.»

قال جيتيسون: «أريد أن أسألك عن شيء.» وتابع: «مَن هما هذان الرجلان بالضبط؟ أخبرني عنهما؛ هما الاثنان.»

أجاب ميتشينجتون: «ليس هناك الكثيرُ لأقوله.» وتابع: «هاركر رجل عجوز هادئ يعيش في منزل صغير هناك — بالقرب من ذلك الركن البعيد من كلوس. ويقال إنه تاجرٌ متقاعد من لندن. وقد جاء إلى هنا قبل بضع سنوات، ليستقرَّ. وهو رجل عجوز لطيف، غير عدواني. إنه يتجوَّل في المدينة بلا هدف، ويقضي وقته كما يفعل العجائز — قليل من القراءة في المكتبات، وقليل من النميمة هنا وهناك، وأظنُّك تعرف هذا النوع. وهو آخرُ رجل في العالم يمكن أن أظن أن له علاقةً بقضية من هذا النوع!»

قال جيتيسون: «ولذا فمن المرجَّح أكثرَ أن تكون له علاقةٌ بها!» وأردف: «حسنًا، وماذا عن الآخر؟»

تابع ميتشينجتون: «كان برايس حتى يوم ظهور برادن يعمل مساعدًا لرانسفورد.» وأضاف: «وقد ظل مع رانسفورد نحوَ عامَين. وهو شابٌّ ذكي، بلا شك، لكنه ماكرٌ بالتأكيد، وعلى نحوٍ ما متحفِّظ، على الرغم من أنه يستطيع التحدُّث كثيرًا إذا أراد وكان ذلك لصالحه. وقد ترك العمل مع رانسفورد فجأةً — في ذلك الصباح بالذات. أنا لا أعرف لماذا. ومنذ ذلك الحين ظلَّ في المدينة. لقد سمعت أنه معجبٌ جدًّا بربيبة رانسفورد — أخت ذلك الفتى الذي رأيناه الليلة. وأنا نفسي لا أعرف، إذا كان هذا صحيحًا — لكنني تساءلت عما إذا كان لذلك أيُّ علاقة بتركه العملَ لدى رانسفورد فجأة.»

قال جيتيسون: «محتملٌ جدًّا.» كانا قد عبَرا كلوس في ذلك الوقت ووصلا إلى مصباحِ غاز يقف عند المدخل، فأخرج المحققُ ساعته ونظر فيها. ثم قال: «الحاديةَ عشْرة وعشرُ دقائق.» وأردف: «أنت تقول إنك تعرف برايس هذا جيدًا، أليس كذلك؟ هل أصبح الوقت متأخرًا — ألا يزال مستيقظًا — لإلقاء نظرة عليه؟! إذا كنتَ أنت وهو على علاقة جيدة، فيُمكنك تقديمُ عذرٍ لزيارتنا له في مثل هذه الساعة المتأخرة. إذ بعد ما سمعته، أودُّ بشدة مقابلة هذا الرجل.»

قال ميتشينجتون موافقًا: «هذا أمر سهل.» وأردف: «لقد سبق أن زُرته في وقتٍ متأخر مثل هذا؛ إنه من النوع الذي لا ينام أبدًا قبل منتصف الليل. هيا بنا! — إن منزله قريب. لكن لا تذكر كلمةً واحدة عن المكان الذي كنا فيه. سأقول إنني قد مررتُ عليه لأُطلِعَه على خبرٍ ما. وسنُخبره عن أمر العثور على الجواهر، ونرى كيف سيتلقَّى الخبر. وبينما نحن هناك، استكشف شخصيته!»

كان ميتشينجتون محقًّا في وصفه لعادات برايس؛ فهو نادرًا ما يذهب إلى الفِراش قبل الساعة الواحدة صباحًا. لقد كان يحب أن يسهر، ويقرأ. وهو يجد غِذاءه العقليَّ المفضَّل في القراءة عن سيرة رجال الدولة والدبلوماسيِّين، ومعظمهم من هؤلاء المشهورين بالخداع والدهاء، وهو لم يقرأ فقط بتركيز عن طرق هؤلاء النُّخبة بل أيضًا دوَّن ملاحظات وملخَّصات لمقاطعَ أعجبته بشكلٍ خاص. كان مصباحه مضيئًا عندما اقترب ميتشينجتون وجيتيسون من نوافذه، لكن في تلك الليلة لم يكن برايس يُفكر في فنون الحكم؛ إذ كان عقله يركِّز على شئونه الخاصة. كان قد أشعل مِدفأتَه عند عودته إلى المنزل وجلس مدة ساعة ورجلاه ممدودتان على الحاجز، وأخذ يدرُس الأمورَ بعناية. لقد أقنعَه حدثُ الليلة بأنه أصبح في مرحلةٍ حَرِجة من مغامرته الحاليَّة؛ لذا يتوجب عليه، كجنرال جيد، مراجعة خُططه.

أدَّى سبقُ آخرين لبرايس في اكتشاف المخبأ الموجود في بارادايس إلى إرباك مخططاته؛ فقد كان يتصوَّر أن بإمكانه تحويلَ ذلك السر، أيًّا كان، لمصلحته الخاصة. لقد استرعى انتباهَه الآن، وهو يتأمل، أنه لم يعرف قط ما كان يتوقَّع الحصولَ عليه بالضبط من هذا السر، لكنه كان يأمُل أن يكون شيئًا من شأنه أن يَزيد عدد الخيوط المتشابكة الصغيرة المغزولة بإحكام في الشبكة الكبيرة التي كان يُحاول نسْجَها حول رانسفورد. وقد كان يُواجه الآن حقيقةَ أنه لن يُسفِر عن أي شيء فيما يتعلق بمساعدته في خُطته — إذ لم يَعُد سرًّا بعد الآن، ولم يُسفِر عن أي شيء يتجاوز مجرد معرفة أن جون برادن، الذي هو في

الواقع جون بريك، قد حمل السرَّ إلى رايتشستر؛ لكي يُكشَف عنه في المكان المناسب. لم يُساعد ذلك برايس بأيِّ حال من الأحوال — بقدْر ما يستطيع أن يُدرك. ومن ثَم أصبح من الضروريِّ أن يُعيد تقديرَ موقفه، وأن يُقيم الوضع، وأن يرى أين يقف — والأهم من ذلك كلِّه، أن يحدِّد بوضوحٍ أمام عقله ما يريده بالضبط.

وقبل أن يدخل ميتشينجتون والمحققُ إلى الممرِّ المؤدي لباب منزل برايس، كان قد صاغ أفكارَه بطريقةٍ واضحة. إن هدفه واضح؛ فهو يريد أن يضع رانسفورد تحت سيطرتِه تمامًا، من خلال إثارة الشكوك حول ارتكاب رانسفورد جريمتَي قتل برادن وكوليشو. وقد أراد، في الوقت نفسِه، أن تكون لديه الوسائلُ لتبرئته — سواءٌ بالحقيقة أو بالخداع — حتى يتمكَّن، كطريقة نهائية للنجاح في مخطَّطاته الخاصة، مِن الذَّهاب إلى ماري بيوري والقول لها: «إن حياة رانسفورد تحت رحمتي: إذا التزمتُ الصمت، سيَهلِك؛ وإذا تحدَّثت، سينجو، الآن عليكِ أن تُقرري ما إذا كنتُ سأتحدَّث أو سأُمسك لساني — وأنت الثمن الذي أُريده كي أتحدَّث وأُنقذه!» ووَفقًا لآرائه حول الطبيعة البشرية، ستُوافق ماري بيوري على شروطه؛ فهو على درايةٍ جيدة بطباعها هي ورانسفورد، ويُدرك أن لديها امتنانًا عميقًا تجاه وصيِّها، الذي قد يكون حتى أقربَ إلى شعورِ حبٍّ خفي. كان الاحتمال أنها ستُضحي بنفسها عن طيب خاطرٍ لإنقاذ رانسفورد — ولم يكن برايس يهتمُّ كثيرًا بالوسيلة التي ستجعله يفوزُ بها، طيِّبة أم شرِّيرة، ما دام سيُحقِّق ما يريد. لذا فعليه الآن، كما قال لنفسه، أن يتخذَ خطوة أكثر تحديدًا ضد رانسفورد. يجب عليه تقويةُ وتعميق الشكوك التي توجد لدى الشرطة بالفعل؛ يجب أن يُعطِيَهم التفاصيلَ ويُزودهم بالمعلومات، ويضعَ رانسفورد في موقفٍ صعب، لمجرد أن يُصبح له الفضلُ في إنقاذه مرةً أخرى، من أجل أن يفوز بماري بيوري. هذا هو ما شعر بأنه متأكدٌ من قدرته على القيام به — إذا كان بإمكانه صنْعُ شبكة تُحيط برانسفورد، فيُمكنه أيضًا أن يخترع سيفًا ذا حدَّين يقطع كلَّ خيط من تلك الشبكة. وسيُصبح ذلك بمنزلة مهمةٍ سهلةٍ للغاية أو مجرد ممارسة بدائية لفنون الحكم أو الدبلوماسية. ولكن ما يجب فعله أولًا هو حصار رانسفورد جيدًا! لقد عقدَ العزم على عدم إضاعة المزيد من الوقت، وبينما هو يُفكِّر في زيارة ميتشينجتون مباشرةً بعد الإفطار في صباح اليوم التالي، طرَق ميتشينجتون باب منزله.

كان من النادر أن يُفاجأ برايس، وعندما رأى ميتشينجتون ورفيقَه، دعاهما على الفور إلى قاعة الاستقبال الخاصة به، وأخرج الويسكي والسيجار، وقدَّمهما لهما كما لو

كانت زيارتهما المتأخرةُ أمرًا معتادًا. وبعد أن صبَّ لكلٍّ منهما كأسًا، صبَّ كأسًا لنفسه، وحملها في يده، ثم جلس على كرسيِّه المريح مرة أخرى.

قال المفتش: «لقد رأينا مِصباحك مُضاءً، يا دكتور؛ لذلك سمحت لنفسي أن أزورَك وأُخبرك ببعض الأخبار.» ثم أضاف: «لكنني لم أُقدِّم لك صديقي بعد؛ هذا هو المحقق الرقيب جيتيسون، من نيو سكوتلاند يارد، لقد استعنَّا به من أجل هذه القضية؛ إذ يجب أن نحصل على المساعدة، كما تعلم.»

ألقى برايس على المحقِّق نظرةً نصفَ حادةٍ ونصفَ لا مبالية وأومأ برأسه للتحية.

وقال بأفضلِ طريقة ساخرة لديه: «سيجد السيد جيتيسون فرصًا وفيرة لممارسة مواهبه!» وأضاف: «وهو بالقطع قد اكتشفَ ذلك بالفعل.»

وافق جيتيسون على ذلك قائلًا: «إنها بالتأكيد ليست قضيةً سهلة، يا سيدي.» وأضاف: «إنها معقَّدة!»

قال برايس موافقًا: «للغاية!» وتثاءب، ونظر إلى المفتش. ثم سأل بلا مبالاة تقريبًا: «ما الأخبار التي لديك، يا ميتشينجتون؟»

أجاب ميتشينجتون: «أوه، حسنًا!» وتابع: «ستُنشَر في صحيفة «ذا هيرالد» غدًا، ستجدها هناك، يا دكتور؛ لقد قدَّمت لهم تقريرًا من أجل عدد هذا الأسبوع، إنه مجرَّد تقرير قصير، لكنني اعتقدتُ أنك ستريد أن تعرف. هل سمعتَ عن واقعة سرقة الجواهر الشهيرة في قصر الدوق قبل بضع سنوات؟ أجل؟ حسنًا، لقد عثَرنا على كل المجموعة الليلةَ مدفونةً في بارادايس! وكيف برأيك انكشفَ هذا السر؟»

قال برايس: «لا فائدة من التخمين.»

تابع ميتشينجتون: «لقد انكشف، من خلال رجلٍ، كان هو وبرادن — برادن، ركِّز معي! — على علمٍ به — إنها قصة طويلة — وكان سيكشفُه، مع برادن، للدوق في اليوم نفسِه الذي قُتل فيه برادن. هذا الرجل انتظر حتى هذا الصباح ثم أخبر سموَّه، وقد جاء سموُّه معه إلينا بعد ظهر اليوم، ومن ثَم أجرينا الليلة بحثًا ووجدنا كلَّ المسروقات! لقد كانت مدفونةً هناك في بارادايس! واستخرجناها، يا دكتور!»

لم يُظهِر برايس اهتمامًا كبيرًا. وأخذ رشفةً على مهلٍ من مشروبه ووضع الكأس وأخرج علبة سجائره. ورأى الرجلان، وهما يُراقبانه بدقَّة، أن أصابعه كانت ثابتةً مثل الصخور وهو يُشعل عود الثقاب.

وقال وهو يُلقي عود الثقاب بعيدًا: «أجل.» ثم أضاف: «لقد رأيتُك وأنت تفعل ذلك.»

لم يتمكَّن ميتشينجتون من كبحِ إجفالٍ اجتاحه ولا نظرةٍ ألقاها على جيتيسون، رغم أنه حاولَ ذلك. لكن جيتيسون كان رابطَ الجأش مثل برايس، وأطلق ميتشينجتون ضحكةً متكلَّفة.

وقال، بنحوٍ يدل على عدم التصديق: «حقًّا؟!» وتابع: «وكنا نظن أننا فعلنا هذا دون أن يَرانا أحد! كيف عرَفتَ أننا كنا نفعل هذا، يا دكتور؟»

أجاب برايس: «لقد أخبرني بيوري الصغير بما كان يجري؛ لذا ألقيتُ نظرةً عليك. وجلبتُ هاركر العجوز لإلقاء نظرة، أيضًا. لقد شاهدناك جميعًا — الفتى وهاركر وأنا — بدافعِ الفضول المطلق، بالطبع. رأيناك تستخرج الطَّرد. لكن، بطبيعة الحال، لم أعرف ما كان بداخله، حتى أخبرتَني الآن.»

لم يجد ميتشينجتون، الذي فُوجئ تمامًا بهذا البيان الصريح، ما يقوله، ومرةً أخرى نظر إلى جيتيسون. لكن جيتيسون لم يُقدِّم أيَّ مساعدة، فاعتمد ميتشينجتون على نفسه.

وقال: «إذن هل جلبتَ هاركر العجوز؟» وأردف: «من أجل ... من أجل ماذا، يا دكتور؟ إنْ جاز لي أن أسأل، بالطبع.»

أشار برايس بسيجارته إشارةً تدل على عدم اهتمامه بالأمر.

وأجاب: «أوه، إن هاركر العجوز مهتمٌّ بشدة بما يحدث.» وأضاف: «وعندما لفَت بيوري الصغيرُ انتباهي إلى ما كنتم تقومون به، فبالطبع، اعتقدت أن عليَّ لفْتَ انتباهِ هاركر إليه. وكان هاركر مهتمًّا بالأمر.»

تردَّد ميتشينجتون قبل أن يقول المزيد. لكنه خاطرَ في النهاية بسؤالٍ مهم.

وسأل: «هل هناك أيُّ سبب محدَّد لاهتمامه هذا، يا دكتور؟»

وضع برايس إبهامَيه في فتحتَي ذراعَي صدريته، ونظر بكسلٍ نحو سائله.

وسأله: «هل تعرف مَن هو هاركر العجوز حقًّا؟»

أجاب ميتشينجتون: «كلا!» ثم أردف: «أنا لا أعرف شيئًا عنه — باستثناء ما يُقال بأنه تاجرٌ متقاعد، من لندن، استقر هنا منذ بعض الوقت.»

التفت برايس فجأةً نحو جيتيسون.

وسأله: «هل تعرف أنت؟»

صاح جيتيسون متعجبًا: «أنا، يا سيدي!» وتابع: «أنا لا أعرف هذا الرجلَ على الإطلاق!»

ضحك برايس — ببعض الاستهزاء الساخر المعتاد منه.

وقال: «سأُخبرك الآن مَن هو هاركر العجوز، يا ميتشينجتون.» وأردف: «قد تعرفُ ذلك جيدًا. لقد اعتقدت أن السيد جيتيسون قد يتعرَّف على الاسم. فهاركر ليس تاجرًا متقاعدًا من لندن — إنه رجلٌ متقاعد من مهنتك نفسها، يا سيد جيتيسون. كان في وقت عمله من أذكى الرجال في خدمة إدارتكم. لقد غيَّر ترتيب اسمه فقط — اسألهم في نيو سكوتلاند يارد عما إذا كانوا يتذكَّرون هاركر سيمبسون؟ يبدو أن هذا يُذهلك، يا ميتشينجتون! حسنًا، بما أنك هنا، ربما من الأفضل أن أذهلَك أكثر قليلًا.»

الفصل التاسع عشر

دهاء الشيطان

كان هناك إصرارٌ وانتباهٌ مفاجِئان في كلمات برايس الأخيرة تناقَضا بشدة، وحتى بنحوٍ غريب، مع اللامبالاة شبهِ الساخرة التي اتسم بها منذ دخولِ زائرَيه، واستطاع الرجلان تمييز ذلك فنظرا أحدهما إلى الآخر في تساؤل. وحدث تغييرٌ أيضًا في سلوكه؛ فبدلًا من الاستلقاء في كرسيِّه بتكاسل، كما لو لم يكن لديه أيُّ تفكير إلا في راحته الشخصية، جلس الآن منتصبًا، ينظر بحِدة من رجلٍ إلى آخر، وبدا أن موقفه وسلوكه وكلامه بالكامل يشير إلى أنه اتخذ قراره فجأةً بتبنِّي مسار محدَّد للتصرُّف.

وكرَّر قائلًا: «سأُخبرك بالمزيد!» وأردفَ: «بما أنك هنا — الآن!»

ألقى ميتشينجتون، الذي شعر بعدمِ ارتياحٍ غريب، نظرةً أخرى على جيتيسون. وهذه المرة كان جيتيسون هو الذي تحدَّث.

وقال بهدوء: «بالقطع، في ظل معرفتي بالقضية، سنكون ممتنِّين لأي معلومات يُمكن أن يُقدمها لنا دكتور برايس.»

قال ميتشينجتون موافقًا: «أوه، بالتأكيد!» وأضاف: «هل تعرف المزيد، إذن، يا دكتور؟»

طلب برايس من زائرَيه أن يُقرِّبا كرسيَّيهما من كرسيِّه، وعندما تحدَّث، تحدَّث بنبرةٍ منخفضة ومركَّزة لرجلٍ يقصد أمرًا سريًّا.

قال: «الآن انظر هنا، يا ميتشينجتون، وأنت، أيضًا، يا سيد جيتيسون، بما أنك معنيٌّ بهذه القضية — سأتحدَّث بصراحة إلى كِلَيكما. في البداية، سأُقدِّم تأكيدًا جريئًا؛ أنا أعرف عن لغز رايتشستر باراديس هذا — الذي يتضمن موتَ كلٍّ من برادن وكوليشو — أكثر من أيِّ رجل على قيد الحياة؛ لأنني، على الرغم من أنك لا تعرف ذلك، يا ميتشينجتون، قد

بحثتُ فيه عن كتب. وسأُخبركما بيني وبينكما لماذا بحثتُ فيه؛ فأنا أريد أن أتزوَّج ربيبة دكتور رانسفورد، الآنسة بيوري!»

أرفقَ برايس هذا الإقرار الصريح بنظرةٍ بدَت وكأنها تقول: ها نحن، ثلاثة رجال من هذا العالم، يعرفون حقيقة الأشياء — نحن يفهم بعضُنا بعضًا! وبينما فقط أومأ جيتيسون برأسه دلالة على الفهم، صاغ ميتشينجتون أفكارَه في كلمات.

فقال: «بلا شك، يا دكتور، بلا شك!» وتابع: «وبناءً على ذلك فإن أمرهما يخصُّك! بالطبع!»

قال برايس: «شيءٌ من هذا القبيل.» وأردف: «وبطبيعة الحال، لا يرغب أيُّ رجل في الزواج إلا إذا كان يعرف كلَّ ما يُمكنه معرفته عن المرأة التي يُريدها، وعائلتها، وأسلافها — وكل ذلك. والآن، يعلم كلُّ شخص تقريبًا في رايتشستر يعرف دكتور رانسفورد وربيبَيه أنَّ هناك غموضًا حولهم، وقد انتشر الحديثُ عن هذا الأمر، بلا نهاية، بين العجائز النمَّامات في كلوس، على وجه التحديد، وأنت تعرف كيف يُثرثِرن! إن الآنسة بيوري نفسَها، وشقيقها، ديك الصغير، بدرجةٍ أقل، يعلمان أن هناك سرًّا. وإذا كان هناك مَن يعرف السر، فهو رانسفورد. وإلى هذه اللحظة، يرفض رانسفورد كشفَ السرِّ — حتى للآنسة بيوري. وأنا أعلم أنها سألَته، لكنه يلتزمُ الصمت العنيد. وهكذا قررتُ أن أكتشف السرَّ بنفسي.»

سأله ميتشينجتون: «حسنًا، ومتى بدأتَ في تلك اللعبة الصغيرة، يا دكتور؟» وأضاف: «هل كان ذلك قبل، أم منذ، بداية هذه القضية؟»

أجاب برايس: «بطريقةٍ جادة حقًّا — منذ بداية القضية.» وأردف: «إذ إن ما حدث في يومِ موت برادن جعلني أتعمَّق في الأمر برُمَّته. والآن، ماذا حدث؟ سأُخبرك بصراحة، الآن، يا ميتشينجتون، إنني، عندما تحدَّثنا مرةً من قبل عن هذه القضية، لم أخبرك بكلِّ ما كان ينبغي أن أقوله. حيث كان لديَّ أسبابي للتحفُّظ. لكن الآن سأعطيكما تفاصيلَ كاملةً عما حدث في ذلك الصباح على حدِّ علمي — فانتبِها، كِلاكما، وستُدركان كيف ستترابطُ أجزاء الصورة معًا. في ذلك الصباح، نحو التاسعة والنصف، غادر رانسفورد العيادة وذهب عبر كلوس. لم يمضِ وقتٌ طويل على مغادرته، حتى جاء ذلك الرجل برادن إلى باب العيادة، وسألني إذا كان دكتور رانسفورد بالداخل. فقلت إنه غيرُ موجودٍ وإنه قد خرج للتو، وأوضحت للرجل في أيِّ اتجاه. فقال إنه كان يعرف طبيبًا يُسمَّى رانسفورد منذ زمن بعيد، ثم انصرف. وبعد ذلك بقليل، تتبعتُ الرجل. وبالقرب من مدخل بارادايس،

رأيتُ رانسفورد يُغادر الرواق الغربي للكاتدرائية. كان بلا شكٍّ في حالة انفعال، وشاحِبَ الوجه وعصبيًّا. ولم يرَني. فواصلتُ طريقي وقابلت فارنر، الذي أخبرني بالحادث. ومن ثَم ذهبتُ معه إلى أسفل سلَّم سانت رايثا فوجدتُ الرجل الذي زار العيادة مؤخرًا. وقد مات بمجرد أن وصلتُ إليه. فأرسلتُ في استدعائك. وعندما أتيتَ، عُدتُ أنا إلى العيادة فوجدتُ رانسفورد هناك في حالةِ انفعالٍ غير عادي — لقد بدا وكأنه رجلٌ أُصيب بصدمة رهيبة. هذا كل شيء عن هذه الأحداث. فرتِّباها معًا وكوِّنا الصورة.»

توقَّف برايس لحظةً، كما لو كان يُرتِّب حقائقه.

وتابع على الفور: «بعد ذلك، بدأتُ التحقيقَ في الأمور بنفسي؛ من أجل إرضاءِ نفسي. وسرعان ما اكتشفتُ أشياءَ معيَّنة، سأُلخِّصها، بإيجاز؛ لأن بعض الحقائق التي لديَّ معروفة لكما بالفعل بلا شك. بادئ ذي بدء، إن الرجل الذي جاء إلى هنا باسم جون برادن، هو في الواقع جون بريك. وكان في وقتٍ من الأوقات مديرًا لفرع شركة مصرفية شهيرة في لندن. وقد اختلسَ بعض المال منهم في ظلِّ ظروفٍ غامضة على ما يبدو، ولم أعرف عنها شيئًا حتى الآن؛ ومن ثَم حُوكِمَ، وأُدين، وحُكِم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة. وهذان الربيبان اللذان تحت وصاية رانسفورد، ماري وريتشارد بيوري، كما يُطلَق عليهما، هما في الواقع، ماري وريتشارد بريك — ابناه.»

سأله جيتيسون، الذي كان يستمع باهتمامٍ شديد: «هل أثبَتَّ ذلك بالفعل؟» وتابع: «إنه ليس مجردَ تخمين من جانبك، أليس كذلك؟»

تردَّد برايس قبل الردِّ على هذا السؤال. ففي النهاية، بعد أن فكَّر مليًّا، قال لنفسه إنه كان تخمينًا. فهو لم يستطِع إثباتَ تأكيده بنحوٍ تام.

وأجاب بعدَ لحظةِ تفكير: «حسنًا، سأوضِّح ذلك بالقول بأنني، من خلال الأدلة المتوفرة لديَّ، وما أعرفه، أعتقد أنها حقيقةٌ لا جدال فيها. إذ إن الحقيقة، الحقيقة الثابتة والمؤكَّدة، التي أعرفها هي هذه: لقد تزوَّج جون بريك من ماري بيوري في كنيسة أبرشية برادن ميدوورث، بالقرب من بارثورب، في ليسترشير، لقد رأيتُ هذه المعلومة في السجلِّ بأمِّ عيني. وكان إشبينه، الذي وقَّع في السجل كشاهدٍ، هو مارك رانسفورد. إذ اعتاد بريك ورانسفورد، في شبابهما، الذَّهابَ إلى برادن ميدوورث لصيد السمك، وكانت ماري بيوري تعمل مربِّيةً في بيت القسِّ هناك. كان من المفترض دائمًا أنها ستتزوج من رانسفورد، لكنها بدلًا من ذلك، تزوجَت من بريك، الذي بالطبع أخذها إلى لندن. وأنا لا أعرف شيئًا

عن حياتهما الزوجية. لكن في غضونِ بضع سنوات، وقَع بريك في مأزق، وذلك للسبب الذي أخبرتُكما به. وأُلقي القبض عليه — وكان هاركر هو الرجلَ الذي فعل ذلك.»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «يا إلهي!» وتابع: «لو كنتُ أعلم فقط ...»

قال برايس: «ستعرف الكثيرَ قبل أن أنتهي.» ثم أضاف: «ويمكن لهاركر بالطبع، أن يُخبركما بالكثير — لكنه غيرُ مُرضٍ. لم يستطِع بريك تقديمَ دفاعٍ عن نفسه، لكنَّ محاميَه قدَّم في المحكمة تلميحات واقتراحات غريبة، كلها تشير إلى أن بريك قد خُدع بطريقةٍ قاسية وشريرة — في الواقع، كما لو كان قد وقع في فخٍّ دفعه لفعلِ ما فعله. وكان هذا من قِبَل رجل كان يثقُ به كصديقٍ مقرَّب. لقد وصل الكثيرُ من الكلام إلى أذنَي هاركر — لكن عن تلك النقطة بالذات، أنا ليس لديَّ معلومات. دعونا ننتقل من ذلك إلى شئون بريك الخاصة. حيث كانت لديه في وقتِ اعتقاله زوجةٌ وطفلان صغيران للغاية. وقد اختفَوا تمامًا إما قبل القبض عليه بوقتٍ قصير، أو عنده، أو بعده على الفور، ورفض بريك نفسُه رفضًا قاطعًا أن يقول كلمةً واحدة عنهم. وعندما سأل هاركر عما إذا كان بإمكانه فعلُ أيِّ شيء، كان رد بريك أنه لا داعي لأن يَشغل أحدٌ نفسَه. ولقد حافظ على صمتٍ عنيد حول تلك النقطة. وقد تقابل رجلُ الدين الذي كانت السيدة بريك تعمل مربيةً في عائلته مع بريك، بعد إدانته — ولم يَقُل له بريك شيئًا. أما بخصوص السيدة بريك، فليس هناك المزيدُ من المعلومات عنها — بالنسبة إليَّ على أي حال. كلُّ ما كان معروفًا في ذلك الوقت هو الآتي؛ لقد صدَّر بريك لكلِّ مَن تواصل معه، في ذلك الوقت، فكرةَ أنه رجل تعرَّض للظلم والخداع بقسوة، ولجأ للصمت الكئيب، وكان يُضمِر بداخله رغبةً للانتقام ويُخطط لذلك بالفعل!»

تمتمَ ميتشينجتون: «أجل، أجل!» وتابع: «الانتقام؟ — هكذا إذن!»

تابع برايس: «وخضع بريك، آنذاك، لعقوبته ذاتِ الأشغال الشاقة، وهكذا اختفى، إلى أن ظهر مرةً أخرى هنا في رايتشستر. ولنتركه لحظةً، وسنعود. وإنها عودةٌ، بلا شك، إلى الافتراض والنظرية — ولكنَّ هناك منطقًا فيما سأقوله. فنحن نعلم — بما لا يدع مجالًا للشك — أن بريك قد تعرَّض للخداع والخيانة، في بعض الأمور المالية، من قِبَل شخصٍ ما — رجلٍ غامض — أشار إليه على أنه أقربُ أصدقائه. ونحن نعلم، أيضًا، أنه كان هناك غموضٌ غيرُ عاديٍّ في اختفاء زوجته وطفلَيه. والآن، من خلال كلِّ ما اكتُشف، مَن كان أقربَ صديق لبريك؟ رانسفورد! ورانسفورد، في ذلك الوقت، لم يكن له أيُّ أثر. هو، أيضًا، اختفى — هذه حقيقة قد أثبَتُّها. وبعد سنوات، ظهر مرة أخرى —

هنا في رايتشستر، حيث اشترى عيادة. وفي النهاية أصبح له فتًى وفتاة، قدَّمَهما رَبيبَين تحت وصايتِه، وجاءا للعيش معه. ولقَبُهما هو بيوري. وكان لقبُ الفتاة التي تزوَّجها جون بريك هو بيوري. فماذا نستنتج من ذلك؟ نستنتجُ أن والدتهما قد تُوفِّيَت، وأنهما معروفان باسمها قبل الزواج، وأنهما، دون أدنى شكٍّ، طفلا جون بريك. وهذا يؤدِّي إلى نظريتي، التي سأُخبركما بها الآن بوصفها سرًّا — إذا كنتما ترغبان في ذلك.»

قال جيتيسون بهدوء: «هذا ما أتمناه على نحوٍ خاص.» وتابع: «إنه ما أريده على وجه التحديد!»

قال برايس: «إذن، إنها كما يلي.» وتابع «لقد كان رانسفورد الصديق المقربَ الذي خدع بريك وخانه.» وأردف:

«إنه على الأرجح خدَعه في بعض الأمور المالية، وخانه في أموره العائلية. وأنا أعتقدُ أن رانسفورد قد هرب مع زوجة بريك، وأن بريك، بدلًا من بثِّ كل حزنه إلى العالم، تقبَّل الأمر في صمتٍ وبدأ في تدبير خُطة الانتقام. هذه هي نظريتي حول الأمر. لقد هرَب رانسفورد مع السيدة بريك والطفلَين — وهما مجرد رضيعَين — واختفَوا. وعندما خرج بريك من السجن، سافر إلى الخارج — وربما في باله تعقُّبُهم. في غضون ذلك، كما هو واضح تمامًا، انخرط في بعض الأعمال التجارية وحقَّق مكاسبَ جيدة. وعاد إلى إنجلترا باسم جون برادن، وللسبب الذي تعرفانه، زار رايتشستر، وهو غيرُ مدركٍ تمامًا أن أيَّ شخص يعرفه يعيش هنا. والآن، حاوِلا تخيُّلَ ما حدث. كان بريك يتجوَّل في كلوس في ذلك الصباح. فرأى اسم الدكتور مارك رانسفورد على اللافتة النُّحاسية المثبتة على باب العيادة. فدخل إلى العيادة، وطرح سؤالًا، وأدلى بملاحظة، ثم غادر. والآن، ما التسلسلُ المحتمَل للأحداث بعد ذلك؟ يلتقي رانسفورد بالقرب من الكاتدرائية — حيث يوجد رانسفورد بالتأكيد. فيميز كلٌّ منهما الآخرَ، وعلى الأرجح ينتحيان جانبًا، ويَصعدان إلى تلك المقصورة بوصفها مكانًا هادئًا للتحدُّث، وتحدثُ مشادَّة، وضربات، وبطريقةٍ أو بأخرى، ربما من دون قصد، يُلقى برادن من خلال ذلك المدخلِ المفتوح، لِيَلْقى حتفه. وقد رأى كوليشو ما حدث!»

كان برايس يُراقب مستمِعَيه، ويلتفتُ بالتناوب من واحدٍ إلى آخَر. لكن الأمر لم يكن بحاجةٍ إلى الانتباه من جانبه ليرى أن وجهَيهما يبدو عليهما الانفعالُ بشدة؛ كان كلُّ رجل يتلقَّى باهتمامٍ بالغ كلَّ ما قاله واقترحه. واستمرَّ هو في التأكيد على كل نقطة كان يذكرها.

ومن ثَم قال: «هل رأى كوليشو ما حدث؟» وأردف: «هذه، بالطبع، نظرية-افتراض. لكن لننتقل الآن من النظرية إلى الحقيقة الفعلية. سأُخبرك بشيء الآن، يا ميتشينجتون، لم تسمع به من قبل، أنا متأكِّد. لقد استطعت بطريقتي، بعد موت كوليشو، أن أحصل على بعض المعلومات، سرًّا، من أرملته، وهي امرأةٌ فَطِنة إلى حدٍّ ما، وذكية بالنسبة إلى مستواها الاجتماعي. لقد وجَدَت الأرملة، أثناء البحث في متعلِّقات زوجها، في درجٍ معيَّن يحتفظ فيه بالعديد من الأشياء الشخصية، دفترَ التوفير الخاصَّ بجمعية تعاونية كان كوليشو عضوًا فيها عدةَ سنوات. ويبدو أنه كان رجلًا يحب الادِّخار، وكان يتمكَّن كلَّ عام من ادِّخار القليل من المال من أجره، وكان يأخذ هذه المدَّخرات مرتَين أو ثلاث مرات في العام، وهو مبلغ بسيط، مجرد جنيه أو اثنين، ويضعها في حسابه في تلك الجمعية، التي، على ما يبدو، كانت تأخذ المدَّخَرات بهذه الطريقة من أعضائها. والآن، هناك معلومة مسجَّلة في ذلك الدفتر — رأيتها — تُوضح أنه قبل يومين فقط من وفاته أودعَ خمسين جنيهًا — خمسين جنيهًا، انتبها لذلك! — في حسابه في الجمعية. من أين يمكن أن يحصل كوليشو على خمسين جنيهًا، فجأةً؟! لقد كان عامِلَ بناءٍ مساعدًا، يكسِب في أحسنِ الأحوال ستةً وعشرين أو ثمانية وعشرين شلنًا في الأسبوع. وبحسب زوجته، لم يكن لديه أقاربُ يمكن أن يتركوا له إرثًا. ولم تسمع قطُّ عن تلقِّيه تلك الأموال من أي مصدر. لكن هذه هي الحقيقة! فما الذي يُفسر ذلك؟ نظريتي — وهي أن الشائعاتِ القائلةَ بأن كوليشو، بعد أن شرب الكثير من البيرة، قد ألمح إلى أنه يُمكن أن يقول شيئًا عن موت برادن إذا أراد، قد وصلَت إلى مهاجم برادن، الذي دفع لكوليشو تلك الخمسين جنيهًا ثَمنًا لصمته، وبعد ذلك، قرَّر التخلصَ من كوليشو تمامًا، وهو ما فعله بلا شك، عن طريق السم.»

توقَّف برايس مرةً أخرى — ومرة أخرى أظهر المستمعان انتباهَهما بالصمت التام.

ثم تابع برايس قائلًا: «والآن نأتي إلى السؤال التالي: كيف سُمم كوليشو؟» وأردف: «لأنه سُمِّم، بلا شك. هنا نعود إلى النظرية والافتراض مرةً أخرى. إذ إنه ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أن حمض الهيدروسيانيك الذي تسبَّب في موته قد وُضع في حبة دواء ابتلعَها — حبة كانت في تلك العلبة التي وجَدوها معه، يا ميتشينجتون، والتي عرَضتَها عليَّ. لكن تلك الحبة بالذات، على الرغم من تشابُهِها في المظهر، لا يمكن أن تتكوَّن من المكونات نفسِها الموجودةِ في الحبوب الأخرى. على الأرجح، كانت حبةً مغلَّفة بشكل كثيف تحتوي على السم — الذي سيبدأ مفعولُه في حالة الذوبان بالطبع. حيث يذوب الغلافُ بمجرد أن يبتلعه الرجل، وينتج عن ذلك الموتُ على الفور. ويمكنك القول إن كوليشو قد حُكم عليه

بالموت عندما وضع علبة الحبوب في جيب الصدرية الخاصة به. لقد كان الأمر يخضع للصدفة المطلقة، والحظ المطلَق، بخصوص اللحظة المحدَّدة التي سيموت فيها. لقد كان في العلبة ستُّ حبات، وتبقَّى فيها خمس. إذن التقط كوليشو الحبةَ المسمومة أولًا! وربما كان موته سيتأخَّر إن التقطَ الحبة المسمومة بعد تناول الحباتِ الخمس الأخرى، كما ترى، لكنه كان حتمًا سيموتُ إنْ آجلًا أو عاجلًا.»

أظهر ميتشينجتون رغبةً في الكلام، فتوقَّف برايس.

سأله ميتشينجتون: «ماذا عما قاله رانسفورد أمامَ قاضي التحقيق؟» وأردف: «لقد طلب معلوماتٍ معينةً حول تشريح الجثة كما تعلم، كان، كما قال، من المفترض أن توضِّح أنه لا يوجد شيءٌ سام في تلك الحبوب.»

صاح برايس بازدراء: «يا للسخف!» وأضاف: «مجرد خدعة! لمثلِ هذه الحبة التي وصفتُها لن يكون هناك أثرٌ سِوى غلاف السكر — والسم. أؤكِّد لكما أنه ليس لديَّ أدنى شك في أن هذه هي الطريقة التي وُضع بها السم. لقد كانت سهلة. ومَن يُمكنه أن يعرف مدى سهولة وضعه هكذا غير طبيب؟»

تبادل ميتشينجتون وجيتيسون النظرات. ثم اقترب جيتيسون من برايس.

وقال: «إذن نظريتك هي أن رانسفورد قد تخلَّص من برادن وكوليشو — قتلَ كِلَيهما، في الواقع، أليس كذلك؟» وتابع: «هل أفهم أن هذا حقًّا هو مؤدَّاها — في كلمات واضحة؟»

أجاب برايس: «ليس تمامًا.» وأردف: «أنا لا أقول إن رانسفورد قصَدَ قتل برادن، فكرتي هي أنهما التقيا، ووقعَت بينهما مشادَّة، وربما مُشاجرة، وأن برادن فقد حياته أثناء ذلك. ولكن بخصوص كوليشو ...»

قاطعه ميتشينجتون: «لا تنسَ!» وأضاف: «إن فارنر قد أقسمَ إنه رأى برادن يُلقى به عبر ذلك المدخل! لقد أُلقي به للخارج! لقد رأى يدًا.»

أجاب برايس: «إن كل شيء يمكن أن يُثبت فارنر عكسَه؛ فربما تكون اليدُ قد امتدت لسحب برادن إلى الخلف. كلا — أعتقد أنه ربما كان هناك عدمُ تعمُّد في تلك القضية. ولكن، فيما يخص كوليشو — فإن القتل، بلا شكٍّ، متعمَّد!»

ثم أشعلَ سيجارة أخرى، وبدا في مظهر رجل قال كلَّ ما كان يختمر في ذهنه، فنهض ميتشينجتون من كرسيِّه، بعد أن أدرك أنه قال كلَّ ما يجب قوله.

وقال، وهو ينظر إلى جيتيسون: «حسنًا، كلُّ ما قلتَه مثيرٌ للاهتمام وبارعٌ للغاية، يا دكتور.» ثم أردف: «وسنضعُ كلَّ ذلك في الاعتبار. بالطبع، لقد تحدَّثت عن كل هذا

مع هاركر، أليس كذلك؟ أودُّ أن أعرف ما سيقولُه بشأنه. والآن بعد أن أخبرتنا بحقيقة شخصيته، أعتقد أنه يمكننا التحدُّثُ معه، أليس كذلك؟»

قال برايس: «عليكما الانتظار بضعةَ أيام، إذن.» وتابع: «فقد ذهب إلى المدينة — مستقِلًّا آخِرَ قطار تحرَّك الليلة — من أجل هذه القضية. لقد أرسلتُه. لقد حصلتُ على بعض المعلومات اليوم عن مكان وجودِ رانسفورد خلال وقت الاختفاء، وقد كلَّفت هاركر بالتحقُّق منها. وعندما أعرف ما توصَّل إليه، سأخبركما.»

قال ميتشينجتون: «إنك تُعرِّض نفسك لبعض العناء.»

أجاب برايس: «لقد أخبرتك بالسبب.»

تردَّد ميتشينجتون قليلًا، ثم، بحركة من رأسه باتجاه الباب، دعا جيتيسون كي يتبعَه.

وقال: «حسنًا.» وتابع: «هناك الكثيرُ من الأمور التي يجب علينا النظرُ فيها، على ما أعتقد!»

ضحك برايس وأشار إلى رفٍّ كتبٍ بالقرب من المدفأة.

وسأله: «هل تعرف ما الذي قدَّمه نابليون بونابرت ذاتَ مرة كنصيحةٍ مفيدةٍ للشرطة؟» وأضاف: «كلا؟! إذن سأخبرك. قال: «إن مهارة الشرطة تكمن في عدمِ رؤية ما لا فائدة لها من رؤيته.» إنها نصيحةٌ جيدة، يا ميتشينجتون!»

ابتعد الرجلان في الشوارع المظلمة، وظلَّا صامِتَين حتى اقتربا من باب فندق جيتيسون. وحينها، تحدَّث ميتشينجتون.

وقال: «حسنًا!» وأضاف: «لقد حصلنا على حكايتَين، على أي حال! ما رأيك في الوضع الآن؟»

ألقى جيتيسون رأسه للخلف مطلقًا ضحكةً جافة.

وقال: «لم أقَع مطلقًا في مثل هذه الحَيرة طوالَ حياتي!» وأردف: «مطلقًا! لكن إذا كان هذا الطبيب الشابُّ يلعب لعبة، إذن، أُقسم، أيها المفتش، إنها خدعةٌ شريرة وملعونة! ونصيحتي هي أن تُراقب الجميع!»

الفصل العشرون

جيتيسون يتدخَّل

بحلول موعد الإفطار في صباح اليوم التالي كان الرجل الذي من نيو سكوتلاند يارد قد أنهى سلسلةً من التأملات حول الأسرار التي كُشفت له ولميتشينجتون في الليلة السابقة، وكان قد حدَّد على الأقل مسارًا واحدًا للعمل. ولكن قبل الشروع فيه كانت لديه رسالةٌ أو رسالتان مهمَّتان يجب عليه كتابتهما، وتطلَّبَت صياغتهما الكثيرَ من التفكير والجهد، وبحلول الوقت الذي انتهى فيه منهما، ووضعهما بيده في مكتب البريد الرئيسي في المدينة، كان وقت الظهيرة قد اقترب، وأعلن الجرس الكبير للكاتدرائية، بالفعل، عن حلول الظهيرة في رايتشستر أثناء دخول جيتيسون إلى مركز الشرطة لمقابلة ميتشينجتون في مكتبه.

قال ميتشينجتون بابتهاج: «لقد كنت على وشك الذَّهاب لأرى ما إذا كنت مستغرقًا في النوم.» وتابع: «فقد ظَلِلنا مستيقظين حتى وقتٍ متأخرٍ جدًّا من الليلة الماضية، أو، على وجه الدقة، حتى هذا الصباح.»

قال جيتيسون: «كانت لديَّ رسائلُ لأكتبها.» ثم جلس والتقطَ صحيفة وألقى نظرةً عابرة عليها. وسأل: «هل لديك شيءٌ جديد؟»

أجاب ميتشينجتون: «حسنًا، لديَّ القليل.» وأردف: «لقد سافر السيدان اللذان أخبَرانا بالكثير في الليلة الماضية إلى خارج المدينة. لقد ذهبتُ لزيارتهما في وقت مبكر من هذا الصباح — في تمام الساعة التاسعة صباحًا. وعلمتُ أن دكتور رانسفورد قد سافر إلى لندن في قطار الساعة الثامنة وخمسَ عشرة دقيقة.

أما دكتور برايس، ووَفْقًا لما قالته صاحبةُ منزله، فقد خرج راكبًا دراجتَه في الساعة الثامنة والنصف — وهي لا تعلم إلى أين ذهب، لكنها تظن أنه ذهب إلى الريف. ومع ذلك، تأكدت أنه من المتوقَّع أن يعود رانسفورد هذا المساءَ، وطلب برايس بأن يُجهز عشاءه المعتاد في الساعة السابعة، وهكذا …»

رمى جيتيسون الصحيفة بعيدًا وأخرج غليونه.

ثم قال بلا مبالاة: «أوه، لا أعتقد أنهما سيهربان — أيًّا منهما.» وأضاف: «فكلٌّ منهما واثق جدًّا من طريقته لفهم الأمور.»

سأله ميتشينجتون: «هل فكَّرت فيما قالاه؟»

أجاب المحقِّق: «لقد تأمَّلتُ في الأمور قليلًا — أجل.» وتابع: «إنها مسألة معقَّدة، يا صديقي! أكثرَ مما يظنه المرءُ للوهلة الأولى. أنا متأكد من الآتي، بغضِّ النظر عن أي غموض في قضية برادن ومقتل كوليشو، أنا متأكد من أن هناك الكثيرَ من التخطيط والتدبير يحدُث — وما زال يحدُث — في مكانٍ ما، من قِبَل شخصٍ ما. تدبير خفي، هل تفهم ما أعنيه؟ ومع ذلك، فإن مهمتي المحدَّدة هي قضية كوليشو — وهناك معلومة أودُّ الحصول عليها في الحال. أين مكتب تلك الجمعية التعاونية التي سمعنا عنها الليلةَ الماضية؟»

أجاب ميتشينجتون: «إنها جمعيةُ رايتشستر التعاونية الثانية.» وأردف: «فهناك اثنتان مِن هذه الجمعيات في المدينة — الأولى خاصة بصغار التجَّار ومَن في حكمهم، والثانية خاصةٌ بالعمال. والثانية تأخذ المدخَرات من أعضائها. ويقع مكتبها في فلادجيت، واسم السكرتير هو السيد ستيبنج. ولكن ما الذي تسعى وراءه؟»

قال جيتيسون: «سأُخبرك لاحقًا.» وأردف: «إنها مجردُ فكرة.»

ومن ثَم غادر على مهلٍ ومشى عبر ميدان السوق إلى شارعٍ عتيق ضيق يُسمَّى فلادجيت، سار عبْرَه وكأنه لا يفعل أكثرَ من مجردِ تفقُّدِه حتى وصل إلى متجرٍ عتيق تحوَّل إلى مكتب، ومعلَّق عليه ستارة سِلكية فوق النصف السفليِّ من نافذته الأمامية، التي نُسج عليها بأحرفٍ لامعة واضحة «جمعية رايتشستر التعاونية الثانية — جورج ستيبنج، السكرتير». لم يكن هناك ما يُشير إلى المغامرة أو الغموض في ذلك المكان المتواضع بشدَّة، ولكن خطَر في ذهن جيتيسون عندما تجاوز عتبة هذا المكان أنه كان في طريقه لاكتشاف شيءٍ من المحتمل أن يحلَّ القضية التي تَشغله.

كان عددُ موظَّفي تلك الجمعية ضئيلًا للغاية؛ فالمكتب الخارجيُّ يوجد به صبيٌّ صغير وشابٌّ طويل القامة، والمكتب الداخلي خاصٌّ بالسيد ستيبنج، وهو أيضًا شاب، ذو شعرٍ رمليِّ اللون ووجهٍ منمَّش، والذي، بعد أن فحص البطاقة المهنية للمحقِّق الرقيب جيتيسون، أجلسه على أفضلِ كرسيٍّ في المكتب ونظر إليه بمزيجٍ من الرهبة والفضول الذي أظهَر بوضوح أنه لم يستقبل مُحقِّقًا من قبل. وكي يُظهِرَ لزائره أنه أدرك جدِّية المقابلة، أومأ برأسه مشيرًا نحو باب المكتب.

قال بهمس: «المكانُ هنا آمنٌ تمامًا، يا سيدي!» وأردف: «الأبواب مثبَّتة بشكل جيد في هذه المنازل العتيقة، أنت تعرف كيف كانوا يصنعونها بجودةٍ عالية في ذلك الزمن. لا يمكن أن يتنصَّت علينا أحدٌ هنا، كيف يُمكنني أن أخدمك، يا سيدي؟»

قال جيتيسون: «شكرًا لك، أنا ممتنٌّ لك كثيرًا.» وأضاف: «أنت لا تُمانع أن أُدخِّن غليوني، أليس كذلك؟ أنت على حق. آه! — حسنًا، بيني وبينك، يا سيد ستيبنج، أنا هنا بخصوص قضية كوليشو التي أنت بالتأكيد على علمٍ بها.»

قال السكرتير: «أنا على علمٍ بها، يا سيدي، يا له من رجل مسكين!» وتابع: «يا له من أمرٍ قاسٍ، يا سيدي، أن يَلْقى هذا الرجل حتفه. لقد كان كوليشو أحدَ أعضائنا، يا سيدي.»

قال جيتيسون: «هذا ما علمتُه.» وأضاف: «وهذا ما جئتُ من أجله. أريد الحصول على معلومة، في سريةٍ تامة، هل تفهمني؟ بيني وبينك فقط الآن.»

أومأ ستيبنج برأسه وغمز، كما لو كان يتعامل مع المحقِّقين طوال حياته. وقال بلطفٍ: «بلا شك، يا سيدي، بلا شك!» وتابع: «فقط بيني وبينك وبين عمود الباب! — حسنًا. سأفعل كلَّ ما بوُسعي، يا سيد جيتيسون. ولكن يبدو أن الأمر يتَّصل أكثرَ بما يُمكنني قوله، على ما أظن، أليس كذلك؟»

أجاب جيتيسون بأسلوبه البطيء والهادئ: «شيءٌ من هذا القبيل.» وأضاف: «أريد أن أعرف شيئًا أو شيئَين. إن جمعيتكم هي جمعيةٌ خاصةٌ بالعمال، على ما أعتقد، أليس كذلك؟ حسنًا، وأنا علمت أن لديكم نظامًا يمكن من خلاله لمثلِ هذا الرجل أن يضع كلَّ مدَّخَراته بين أيديكم، أليس كذلك؟»

أجاب السكرتير، وهو يُمسك كتيبًا دعائيًّا ويدفعه ليدِ زائره: «إنه نظام رأسمالي أيضًا!» ثم أضاف: «لا أعتقد أن هناك أفضلَ منه في إنجلترا! إذا قرأت ذلك ...»

قال جيتيسون، وهو يضع الكتيب في جيبه: «سوف أُلقي نظرةً عليه فيما بعد.» وأردف: «حسنًا، لقد علمتُ أيضًا أن كوليشو كان معتادًا أن يودِع لديك القليلَ من المال المدخَر بين الحين والآخر؛ فقد كان رجلًا يُحب الادخار، أليس كذلك؟» أومأ ستيبنج بالموافقة وأمسك دفترًا يقع على الجانب البعيد من مكتبه.

وأجاب: «لقد كان كوليشو عضوًا في جمعيتنا منذ نشأتها — أي، قبل أربعة عشرَ عامًا. وقد بدأ يُودِع مدخراته منذ نحوِ ثماني أو تسع سنوات. إنها ليست كثيرة، كما سيتَّضح لك. فلنقُل، كمتوسط، من اثنين إلى ثلاثة جنيهات كلَّ نصف عام — وليس أكثرَ

من ذلك. ولكن، قبل وفاته، أو قتلِه، أو أيًّا كان ما تُسميه، جاء إلى هنا ذات يوم ومعه خمسون جنيهًا! وقد أذهلَني ذلك إلى حدٍّ ما، يا سيدي! خمسون جنيهًا — جملة واحدة!»

قال جيتيسون: «إن مبلغ الخمسين جنيهًا هذا هو ما أريد أن أعرف شيئًا عنه.» وتابع: «ألم يُخبرك كيف حصل عليه؟ هل كان إرثًا، على سبيل المثال؟»

أجاب ستيبنج: «لم يقُل أيَّ شيء سوى أنَّ بعض الحظ قد صادفه.» وتابع وهو يُقلب صفحات الدفتر: «وأنا لم أسأَلْه أيَّ أسئلة. هل كان إرثًا؟ كلا، هو لم يذكر ذلك. ها هو. هنا! ٥٠ جنيهًا. انظر إلى التاريخ — إنه قبل موته بيومَين.»

نظر جيتيسون إلى الدفتر واعتدل في جلسته.

وقال: «والآن يا سيد ستيبنج، أريدك أن تُخبرني بشيءٍ محدَّد للغاية.» وأردف: «لم يمضِ وقتٌ طويل جدًّا على حدوث ذلك؛ لذا لن تُضطرَّ إلى إجهادِ ذاكرتك إلى حدٍّ كبير. على أي هيئةٍ دفع كوليشو لك مبلغ الخمسين جنيهًا ذلك؟»

قال السكرتير: «هذا سؤال تسهُل الإجابةُ عنه، يا سيدي.» وتابع: «على هيئة عملات ذهبية. خمسون جنيهًا ذهبيًّا، وكان يضعها في حقيبة صغيرة.» تأمَّل جيتيسون هذه المعلومة لحظةً أو اثنتين. ثم نهض من مكانه.

وقال: «أنا ممتنٌّ لك كثيرًا، يا سيد ستيبنج.» وأردف: «إنها معلومة قيِّمة. والآن هناك شيءٌ آخر يُمكنك أن تخبرني به ما دمتُ هنا — على الرغم من أنه، بلا شك، يُمكنني أن أوفِّر عليك عناء ذلك بالبحث في الأمر بنفسي. كم عدد البنوك الموجودة في مدينتك الصغيرة هذه؟»

أجاب ستيبنج على الفور: «ثلاثة.» وأضاف: «أولد بانك، في منداي ماركت، وبوبهام آند هارجريفز، في الميدان، ورايتشستر بانك، في سبيريرجيت. هذه هي كل البنوك الموجودة هنا.»

قال جيتيسون: «أنا ممتنٌّ للغاية.» وأردف: «وفي الوقت الحاضر، اجعل حديثنا هذا في طيِّ الكتمان. وسوف تعرف المزيد لاحقًا.»

ومن ثَم غادر المكان، وهو يُحاول تذكُّر أسماء المؤسَّسات المصرفية الثلاث — وبعد عشر دقائق كان في قاعة الاستقبال الخاصة بالبنك الأول، يُجري محادثةً جادة مع مديرها. هنا كان من الضروري أن تُصبح المحادثةُ أكثرَ سريةً، وأن يُصِر على مزيدٍ من السرية أكثرَ مما فعل مع سكرتير الجمعية، وأن يُقدِّم كلَّ الأوراق الرسمية الخاصة بمهمته ويُوضِّح كلَّ أسبابه. لكن جيتيسون لم يجد المعلومة التي يبحث عنها في هذا البنك، ولا في الثاني،

أيضًا، ولم يحصل عليها إلا بعدَ اجتماعٍ سرِّي ومغلق لبعض الوقت مع المسئولين عن البنك الثالث. وعندما حصل عليها، طالبَ مصادر معلوماته بالسرية والصمت بطريقةٍ أظهرَت لهم أنه مهما كان أسلوبه هادئًا، فإنه يعرف عمله تمامًا مثلما يعرفون هم عملهم.

كانت الساعة قد تجاوزت حينها الواحدةَ ظهرًا، فاتجه جيتيسون إلى الفندق الصغير الذي كان يُقيم فيه. وأخذ يُفكِّر مليًّا وبجدِّية بينما يتناول غَداءه، وأخذ يُفكر أكثرَ وهو يُدخن غليونه بعد الغداء. وكان ذهنه لا يَزال يعصف بالتفكير، عندما دخل مكتب ميتشينجتون، في الساعة الثالثة، ووجد المفتشَ وحده فأغلقَ الباب وقرَّب كرسيًّا نحو مكتب ميتشينجتون.

ثم قال: «انظر هنا.» وتابع: «لقد قمتُ بجولة عمل صباحية رائعة، وتوصلت لاكتشاف، وعليك أنت وأنا، يا صديقي، أن نتباحثَ حوله بأكبرِ قدر من الجِدِّية كما حدث دائمًا منذ أن أتيت إلى هنا.»

دفع ميتشينجتون أوراقَه جانبًا وأظهر اهتمامه الشديد.

فقال جيتيسون: «أنت تذكر ما قاله لنا ذلك الشابُّ الليلة الماضية عن أن ذلك الرجل كوليشو قد دفع خمسينَ جنيهًا للجمعية الثانية قبل يومين من وفاته.» وأردف: «حسنًا، لقد فكَّرت كثيرًا في هذا الأمر، في وقتٍ مبكر من هذا الصباح، وتخيلت أنني أدركتُ كيف يمكنني العثورُ على شيء حول هذا الموضوع. فقرَّرت التصرُّف بهدوءٍ تام. لهذا السبب ذهبتُ إلى مقر تلك الجمعية. كانت الحقيقة هي أنني أردتُ أن أعرف على أيِّ هيئة سلَّم كوليشو مبلغ الخمسين جنيهًا هذا. لقد استطعتُ معرفة هذا. لقد كان على هيئة عملات ذهبية!»

أومأ ميتشينجتون، الذي لم يَقُده عمله حتى الآن إلى خوض غمار ألغاز عمل المحققين، برأسه مبتهجًا.

وقال: «جيد!» وأضاف: «فكرة رائعة! لم أكن لأفكر فيها قط! ولكن ما الذي تستخلصُه من ذلك؟»

أجاب جيتيسون: «لا شيء.» وتابع: «لكني استخلصتُ قدرًا كبيرًا مما عرَفتُه بعد ذلك الاكتشاف. والآن، تأمَّل معي الأمر بنفسك — أيًّا كان مَن دفع لكوليشو خمسين جنيهًا من الذهب فقد فعل ذلك بدافعٍ ما. بل أكثر من دافعٍ واحد، على وجه الدقة — لكننا سنكتفي بواحد، بدايةً. إن الدافع وراء دفع المبلغ بالذهب هو تجنُّب اكتشاف مَن دفعه. إذ يُمكن تتبُّعُ الشيك بسهولة. وكذلك الأوراق النقدية. لكن لا يمكن تعقُّب الذهب بسهولة.

لذلك حرَص الرجل الذي دفع الخمسين جنيهًا إلى كوليشو على حماية نفسه بدفعها له بالعملات الذهبية. والآن، كم عدد الرجال الموجودين في مكانٍ صغيرٍ مثلِ هذا الذين من المحتمل أن يحملوا خمسين جنيهًا من الذهب في جيوبهم، أو يكون هذا المبلغُ بهذه الهيئة في متناول أيديهم؟»

قال ميتشينجتون: «ليس الكثير.»

فاستطردَ جيتيسون قائلًا: «هذا صحيح؛ ولذلك أجريتُ بعض التحقيقات السرِّية مع المصرفيِّين، حول مَن حصل على عملات ذهبية في ذلك التاريخ.» وأردف: «وكان يجب أن أُقنِعَهم بالضرورة الشديدة للحصول على هذه المعلومات قبل أن أحصل على أيٍّ منها! وقد حصَلتُ على بعضها — في المحاولة الثالثة. إذ في اليومِ السابقِ لليوم الذي سلَّم فيه كوليشو مبلغ الخمسين جنيهًا إلى ستيبنج، سحب رجلٌ معيَّن من رايتشستر خمسين جنيهًا ذهبيًّا من البنك الذي يتعامل معه. مَن تعتقد أنه فعل ذلك؟»

سأل ميتشينجتون في تلهُّف: «مَن ... مَن؟»

انحنى جيتيسون مقتربًا من المكتب.

وقال بصوتٍ هامس: «برايس!» وأردف: «برايس!»

جلس ميتشينجتون منتصبَ الظهر على كرسيِّه وفتح فمه في دهشة شديدة.

وتمتمَ بعد لحظة من الصمت: «يا إلهي!» وتابع: «هل تعني ذلك؟»

أجاب جيتيسون: «إنها حقيقة!» وأردف: «حقيقةٌ واضحة، لا جدال فيها، يا صديقي. إن دكتور برايس لديه حسابٌ في بنك رايتشستر. وفي اليوم الذي أتحدَّث عنه صرَف شيئًا لنفسه بمبلغ خمسين جنيهًا وأخذه كلَّه بالعملات الذهبية.»

نظر كلٌّ من الرجلين إلى الآخَر، كما لو كان كلٌّ منهما يسأل رفيقه سؤالًا.

قال ميتشينجتون في النهاية: «حسنًا؟» وتابع: «أنت تَفوقني في التفكير، يا جيتيسون. فما الذي تستخلصه من هذا الأمر؟»

أجاب جيتيسون: «لقد قلتُ الليلةَ الماضية إن هذا الشابَّ كان يلعب لعبةً خطيرة.» ثم أضاف: «لكن ما هي هذه اللعبة؟ وما الذي يُخطِّط له؟ دعني أؤكد لك يا ميتشينجتون، أنه إذا — وأنا أقول إذا، تذكَّر! — إذا كانت الخمسون جنيهًا من العملات الذهبيَّة التي سحبَها هي الخمسين جنيهًا نفسَها المدفوعةَ لكوليشو، فإن برايس لم يدفعها على أنها رِشوة لإسكاته!»

قال ميتشينجتون، مندهشًا بوضوح: «هل تعتقد ذلك؟» وتابع: «كان هذا هو انطباعي الأول. إذا لم تكن رِشوةً لإسكاته ...»

قاطعه جيتيسون قائلًا: «لم تكن رِشوة لإسكاته، للسبب التالي.» ثم أردف: «إننا نعلم أنه أيًّا كان ما يعرفه برايس بخلاف ذلك، فلم يكن على علمٍ بالحادث الذي تعرَّض له برادن إلى أن أحضرَه فارنر لرؤيته. هذا مؤكد — بحسَب ما أبلغتَني أنت به. لذلك، أيًّا كان ما رآه كوليشو، قبل أو في وقت وقوع هذا الحادث، لم يكن برايس مشاركًا فيه. من ثَم، لماذا يدفع برايس لكوليشو رِشوةً لإسكاته؟»

فتح ميتشينجتون، الذي من الواضح أنه كان يُفكر، درجًا في مكتبه فجأةً وأخذ منه بعض الأوراق وبدأ يُقلِّب فيها.

وقال: «انتظِر لحظة.» وتابع: «لديَّ ملخَّص هنا لما أخبرني به رئيس العمال في ساحة الكاتدرائية فيما يتعلَّق بما يعرفه عن مكانِ عمل كوليشو في ذلك الصباح عندما وقع الحادث — لقد دوَّنت ذلك عندما استجوبتُه بعد موت كوليشو. ها هو:

> يقول رئيس العمال إنه في صباح يوم مقتل برادن، كان كوليشو يعمل في المقصورة الشمالية لنوافذ الإضاءة العلوية، حيث طُلب منه إزالةُ بعض الأخشاب التي تركها النجَّارون هناك. وقد ظل كوليشو بالتأكيد يعمل في تلك المهمة من الساعة التاسعة إلى ما بعد الحاديةَ عشرة في ذلك الصباح. ملحوظة: لقد تحققتُ من هذا بنفسي. ومن المكان المحدَّد حيث كان كوليشو يعمل على إزالة الأخشاب، هناك رؤية واضحة للمقصورة على الجانب الجنوبي من الصحن، وللمدخل المقنطَر عند رأس سُلَّم سانت رايثا.»

قال جيتيسون: «حسنًا، هذا يُثبت ما أقوله. لم تكن رشوةً لإسكات كوليشو. لأنه أيًّا مَن كان الذي رآه كوليشو يضع يدَيه على برادن، فهو لم يكن برايس؛ برايس، كما نعلم، كان في ذلك الوقت يسير عبر كلوس أو يَعبر ذلك المسارَ عبر الجزء الذي تُسمُّونه بارادايس؛ شهادة فارنر تُثبت ذلك. لذا، لو لم يدفع الخمسين جنيهًا رشوةً لإسكات كوليشو، فلماذا دفعها؟»

سأل ميتشينجتون: «هل تقترح شيئًا؟»

أجاب المحقق: «لقد فكرتُ في شيئَين أو ثلاثة.» وتابع: «أحدها هو الآتي؛ هل دُفِعَت الخمسون جنيهًا من أجل الحصول على معلومات؟ إذا كان الأمر كذلك، وحصَل برايس على تلك المعلومات، فلماذا لا يكشف معلوماتِه على نحوٍ أكثرَ وضوحًا؟ إذا كان قد قدَّم رِشوة لكوليشو قدرها خمسون جنيهًا ليُخبره مَن هو المعتدي على برادن، فهو يعرفه الآن؛ فلماذا لم يُعلن هذه المعلومة، وماذا سيفعل بها؟»

غمغم ميتشينجتون قائلًا: «إنها جزءٌ من لعبته؛ إذا كانت هذه النظرية صحيحة.»

قال جيتيسون: «قد لا تكون صحيحة.» وتابع: «لكن هذا هو الشيء الأول. وهناك شيءٌ آخر — ماذا لو افترضنا أنه دفع هذا المال لكوليشو نيابةً عن شخصٍ آخر؟ لقد فكَّرت في هذا الأمر وقلبتُه في ذهني يمينًا ويسارًا، ولأعلى ولأسفل، وأنا واثقٌ من وجود شخص آخر! تذكَّر ما أخبرنا به رانسفورد عن برايس وهاركر العجوز هذا! ومع ذلك، وَفقًا لبرايس، فإن هاركر هو أحد رجال نيو سكوتلاند يارد القدامى! ومن ثَم فمن المؤكد أنه فوق مستوى الشبهات.»

جفل ميتشينجتون فجأةً كما لو أنه قد خطرت له فكرة.

فصاح: «هذا صحيح!» وأردف: «لكن برايس فقط هو مَن يقول إن هاركر محقِّق سابق. وأنا لم أسمع قطُّ بهذه المعلومة — وإذا كان كذلك، فقد كتم الأمرَ على نحوٍ غريب. وأظن أنه كان سيُخبرنا، هنا، بوظيفته السابقة — فأنا لم أسمع مطلقًا عن شرطي من أيِّ رتبة لا يرغب في التحدُّث قليلًا مع أبناء مهنته حول الأمور المهنية.»

قال جيتيسون موافقًا: «ولا أنا.» وتابع: «وكما قلت، إن برايس فقط هو مصدرُ تلك المعلومة. وكلما فكرتُ في الأمر أكثر، اقتنعتُ أن هناك شخصًا ما — رجلًا لا يبدو أن لديك أدنى فكرةٍ عنه — ضالعًا في هذا الأمر. وربما يكون برايس متواطئًا معه. ومع ذلك، هناك شيء واحد سأفعله على الفور. لقد أعطانا برايس تلك المعلومة عن الخمسين جنيهًا. سأُخبر برايس مباشرةً أنني قد حققت في هذا الأمر بأسلوبي الخاص — وهو أسلوب من الواضح أنه لم يُفكِّر فيه مطلقًا — وسأطلب منه أن يشرح سببَ سحبِ مبلغٍ مماثل من العملات الذهبية. هيا بنا نذهب إلى بيته.»

لكن برايس لم يكن موجودًا في بيته — ولم يَعُد إلى بيته حتى اللحظة، حسَبما قالت صاحبة المنزل، منذ أن غادر في الصباح الباكر، وكلُّ ما كانت تعرفه هو أنه طلب منها أن تُعد عَشاءه ليصبح جاهزًا في موعده المعتاد هذا المساء. ومن ثَم اكتفى الرجلان بتلك المعلومة، وعادا إلى مركز الشرطة وهما لا يزالان يُناقشان الموقف. وظلا يتناقشان مدة ساعة إلى أن تسلَّم ميتشينجتون برقيةً، ففتحها، وألقى نظرة سريعة على محتوياتها ثم ناولها إلى رفيقه الذي قرأها بصوتٍ عالٍ.

«قابِلْني مع جيتيسون في محطة رايتشستر في موعد وصول القطار السريع القادم من لندن في الساعة الخامسة وعشرين دقيقة؛ لقد توصلتُ إلى حلِّ اللغز وعرَفتُ المذنبين — رانسفورد.»

ثم أعاد جيتيسون البرقية إلى ميتشينجتون.

وقال: «إنه رجلٌ يفي بوعوده!» وتابع: «لقد قال يومين، وأتمَّ المهمة في يومٍ واحد! والآن، يا صديقي — هل تُلاحظ؟ — إنه يقول الرجال، وليس الرجل! مثلما قلت لك، هناك أكثرُ من مذنب في هذه القضية. والآن يا تُرى مَن هم؟»

الفصل الحادي والعشرون

فندق ساكسونستيد

قاد برايس درَّاجته من رايتشستر في ذلك الصباح عازمًا على استخدام الدبلوماسية في مسعًى جديد. لقد جلس يُفكِّر بعض الوقت بعد أن ترَكه ضابِطَا الشرطة في منتصف الليل، وخطر له أن هناك رجلًا يمكن الحصولُ منه على معلوماتٍ حيث لم يستفِد من خدماته حتى الآن، ولكن يجب أن يكون في مكانٍ ما في الجوار — ذلك الرجل هو جلاسديل. كان جلاسديل في رايتشستر في الليلة السابقة، وليس من الممكن أن يكون قد ابتعد الآن، وهناك بالتأكيد شخصٌ واحد يعرف أين يمكن العثورُ عليه، وكان هذا الشخص هو الدوق ساكسونستيد. لقد كان يعرف برايس عن الدوق أنه رجلٌ وَدود للغاية، ومحبٌّ للتحاور، وحتى ثَرْثار، ويُمكنه التحدُّث مع أي شخص حول أي شيء؛ لذا سرعان ما اتخذَ قراره بالذَّهاب إلى ساكسونستيد، وابتكارِ عذرٍ معقولٍ لزيارته، والحصول على بعض الأخبار من سموِّه. وحتى لو غادر جلاسديل المدينة، فقد يكون هناك بعضُ الأدلة الصغيرة التي يمكن معرفتُها من الدوق؛ لأن جلاسديل، كما كان يعلم، قد أعطى صاحبَ عمله السابقَ معلوماتٍ حول الجواهر المسروقة وقد حكى، بلا شك، الكثيرَ عن رفقته لبرادن. وقبل أن يصل برايس إلى ضربة المعلِّم التي يحلم بها في هذا الأمر، كان هناك شيءٌ أو شيئان يريد استيضاحَهما، لإكمال شبكته المزدوجة، وكان يرى أن الدردشة لمدة ساعة مع جلاسديل ستُحقق له كلَّ ما يريد.

كان الذهن النشط الذي وضع برايس في موضعٍ جيدٍ أثناء غَزْل شبكته ووضعِ مُخططاته أكثرَ نشاطًا من أيِّ وقتٍ مضى في صباح ذلك اليوم الذي كان في أول الصيف. لقد كانت رحلةً لمسافة عشرة أميالٍ عبر الغابات والوديان إلى ساكسونستيد، وانتشرت على جانبَي الطريق مناظرُ طبيعية كان أيُّ رجل آخر سيقود على مهلٍ كي يستمتع بها أطولَ وقتٍ ممكن، وكان معظم الرجال سيتأثَّرون بها. لكن برايس لم ينظر إلى السُّحب التي

تُظلِّل قمم التلال ذات اللون النُّحاسي أو الظلال الغامضة في الوديان العميقة أو البراعم الجديدة في أسيجة الشجيرات، ولم يكن يُفكر في الريفيِّين الذين يمر بأكواخهم بين الحين والآخَر في الريف القليل السكان. إذ تركَّزَت كلُّ أفكاره على مخططاته، بنحوٍ آليٍّ تقريبًا مثلما تتبَّعت عيناه الطريقَ الأبيض الذي تسير فيه عجلته. إنه منذ أن انطلق في مسعاه كان يُقيِّم موقفه بانتظام؛ فلقد كان يُقدِّر حساباته بنحوٍ دائم. والآن، في رأيه، تبدو كلُّ الأمور واعدةً للغاية. لقد أوجد — بحسَب ما يرى — جوًّا محدَّدًا من الشك حول وضد رانسفورد — لم يكن بحاجةٍ إلا إلى مزيدٍ من الإيحاء، وربما المزيد من الأدلة كي يُلقيَ القبض على رانسفورد. وكان السؤال الوحيد الذي يزعج برايس بشدة هو: هل يجب أن يترك الأمورَ تصلُ إلى ذلك الحد قبل أن يُوجِّه إنذاره لماري بيوري، أم يجب أن يكشف لها عن لعبته أولًا؟ إذ إن برايس قد حاك خُطته بحيث إن كلمةً منه للشرطة قد تُدين رانسفورد أو تُنقذه — والآن كلُّ شيء يتوقَّف، بقدْر ما كان برايس نفسُه معنيًّا، على ماري بيوري فيما يتعلَّق بالكلمة التي يجب أن تُقال. فرغم الشكوك الشديدة التي زرَعها في ذهن الشرطة حول إدانة رانسفورد، فإنه يمكنه أن يمحوَها ويُمزقها بجملة من المعرفة الإضافية — إذا جعلَت ماري بيوري الأمرَ يستحقُّ ذلك. لكن أولًا — وقبل الوصول إلى تلك المرحلة الحرجة — كانت هناك معلوماتٌ معينة يرغب في الحصول عليها، وكان متأكدًا من الحصول عليها إذا تمكَّن من العثور على جلاسديل. فجلاسديل، وفقًا لجميع الروايات، كان يعرف برادن عن كَثْب في السنوات الأخيرة، ويعلم على الأرجح الكثيرَ من الحقائق عنه — وكان برايس يثق تمامًا في قدرته على محاورة الرجال الآخَرين، وكان يؤمن بشدة بأن بإمكانه استخراجَ أيِّ سر من أي شخص يُجري معه محادثة هادئة لمدة ساعة.

ولحُسن الحظ، لم يكن برايس في حاجةٍ إلى زيارة الدوق الوَدود والصَّدوق. إذ كان يوجد خارج القرية الصغيرة في ساكسونستيد، على حافة الغابة العميقة التي تحدُّ الحديقة الدوقية، فندقٌ قديم على جانب الطريق، وهو من بقايا أيامِ العربات التي تجرُّها الخيول، تحمل لافتتُه شعاراتِ النبالة الدوقية. ومن ثَم سار برايس داخل قاعته الحجرية العتيقة لينعش نفسَه بعد رحلته، وبينما كان يقف عند البارِ ذي النوافذ المقوَّسة، نظر إلى الحديقة خلفها فرأى هناك الرجل الذي كان يبحث عنه بالتحديد، وهو يدخِّن غليونه بكلِّ ارتياح ويقرأ الصحيفة.

لم يكن لدى برايس أيُّ ذرة من الخجل، أو نقص في الثقة في طبيعة تكوينه؛ لذا قرَّر الهجوم على جلاسديل على الفور. لكنه ألقى نظرةً فاحصةً على الرجل قبل أن يخرج

إليه في الحديقة. فأدرك أنه من النوع العادي والبسيط من الرجال، وقد تخطَّى منتصف العمر، وكانت هناك مسحةٌ من الشيب في شعره وشاربه، وتبدو عليه علاماتُ الغِنى ويرتدي ملابسَ أنيقة، ويبدو في تلك اللحظة وَفْق ما يظنُّه رواد الفندق كسائح. من العلامات الخارجية لم يستطِع برايس تحديدَ ما إذا كان من النوع الذي يُحبُّ التحاور أم لا، لكنه كان سيُحاول، فأخرج على الفور علبةَ بطاقاته، وأخذ منها بطاقة، وسار عبر الحديقة إلى البُقعة الظليلة التي جلس فيها جلاسديل، وقدَّم له نفسه بأسلوبٍ مهذَّب ولطيف.

قال، وقد حرَص ألا يذكر اسم الرجل: «من فضلك، يا سيدي.» وتابع: «هل لي أن أسعدَ بمحادثةٍ معك بضعَ دقائق؟»

ألقى جلاسديل على الغريب نظرةَ اندهاشٍ سريعةً، اختلطَت مع الشك — وظن برايس أن هذا النوع من النظرات هو ما يستخدمه رجلٌ اعتاد الحذرَ عند النظر إلى أي شخص. لكنَّ وجهه عاد إلى طبيعته عندما قرأ البطاقة، رغم أنه ظلَّ متشككًا عندما رفعه مرة أخرى.

وقال: «أنت تعرفني لكني لا أعرفك، يا سيدي.» ثم أردف: «دكتور برايس، وَفْق ما أرى. لكن ...»

ابتسم برايس وجلس على كرسيٍّ حديقةٍ بجانب جلاسديل.

ثم رد: «لا داعي للخوف من التحدُّث معي.» وتابع حديثه، وهو يومئ برأسه في اتجاه المنزل الكبير الذي يقع خلف الغابة عند سَفْح الحديقة: «أنا معروفٌ جيدًا في رايتشستر. كما أن الدوق يعرفني جيدًا — في الواقع، لقد كنتُ في طريقي لمقابلة سموِّه الآن؛ لسؤاله عما إذا كان يُمكنه إخباري بمكان العثور عليك. الحقيقة هي أنني على علمٍ بما حدث الليلةَ الماضية — قضية الجواهر، كما تعلم — لقد أخبرني ميتشينجتون عنها، وعن صداقتك مع برادن، وأنا أريد أن أطرح عليك سؤالًا أو اثنين عن برادن.»

بدا أن جلاسديل، الذي كان متحيرًا إلى حدٍّ ما في بداية هذا الكلام، قد فهم الأمورَ بنحوٍ أفضلَ بحلول نهايته.

فقال: «أوه، حسنًا، بالطبع، يا دكتور، إذا كان الأمر كذلك، ولكن، بالطبع لديَّ كلمةٌ أولًا؛ إن هؤلاء الناسَ هنا في الفندق لا يعرفون مَن أنا أو أن لي أيَّ صلة بالدوق في هذه القضية. أنا معروف هنا باسم السيد جوردون وسأُقيم مدةً قصيرة.»

أجاب برايس مع ابتسامةٍ تدل على التفهُّم: «لا بأس.» وتابع: «كل هذا سيكون سرًّا بيننا. لقد رأيتك مع الدوق وبقية الأشخاص في الليلة الماضية، وقد تعرَّفت عليك الآن.

وكلُّ ما أريده هو بعض المعلومات عن برادن. هل كنتَ على علاقة وثيقة به في السنوات الأخيرة؟»

أجاب جلاسديل: «لقد عرَفتُه سنواتٍ عديدةً.» ثم ألقى نظرة فاحصة على زائره. وسأله: «أعتقد أنك تعرف قصته — وقصتي؟» ثم أردف: «قصص الماضي، أليس كذلك؟»

أجاب برايس على نحوٍ مُطمئنٍ: «بلى، بلى!» وأضاف: «لا داعي للخوض في ذلك؛ كل هذا قد انتهى.»

قال جلاسديل: «أجل، حسنًا، كِلانا وضعَ الأمور في نِصابها الصحيح.» ثم أضاف: «وقدَّمنا التعويض — كلانا، كما تفهم. لذا لقد انتهى الأمر، أليس كذلك؟ وأنت تعرف، إذن، بالطبع، مَن كان برادن بالفعل، أليس كذلك؟»

أجاب برايس على الفور: «جون بريك، مدير البنك السابق.» وأردف: «أنا أعرف كلَّ شيء عن ذلك. لقد كنتُ مهتمًّا ومَعنيًّا جدًّا بموته. وسأخبرك لماذا. فأنا أريد أن أتزوجَ ابنته.»

استدار جلاسديل وحدَّق في رفيقه.

وصاح متعجبًا: «ابنته!» وتابع: «ابنة بريك! يا إلهي! لم أكن أعرف قط أنَّ لديه ابنةً!»

أصبح برايس هو مَن يحدِّق الآن. ونظر إلى جلاسديل وهو غير مُصدق.

ثم قال: «هل تقصد أن تخبرني أنك عرَفت بريك طوال تلك السنوات وأنه لم يذكر لك شيئًا عن ابنَيه قط؟!»

أجاب جلاسديل: «لم يذكر لي أيَّ شيء عنهما!» ثم أردف: «ولم أعلم قط أنه كان لديه أيُّ أبناء!»

سأله برايس: «ألم يتكلم قطُّ عن ماضيه؟»

أجاب جلاسديل: «ليس عن هذا الأمر.» وتابع: «لم أكن أعرفُ قط أنه متزوج — أو كان رجلًا متزوجًا. إنه بكل تأكيد لم يذكر لي شيئًا عن أنَّ لديه زوجةً أو أبناء، يا سيدي، رغم أني كنتُ أعرفه عن كثب بقدرِ ما يمكن لرجلَين أن يعرف كلٌّ منهما الآخرَ بِضعَ سنوات قبل أن نعود إلى إنجلترا.»

دخل برايس في إحدى نوبات التأمُّل المعتادة بالنسبة إليه. ماذا يمكن أن يكون معنى ذلك الصمت الاستثنائي من جانب بريك؟ ألا يزال في الأمر سرٌّ خفي، لغزٌ آخر لم يُخمِّنه بعد؟

ثم قال أخيرًا بعد توقُّفٍ طويل راقبه خلاله جلاسديل بفضول: «هذا أمرٌ غريب!» ثم أردف: «لكن هل تحدَّث إليك من قبلُ عن صديقٍ قديمٍ له اسمه رانسفورد — يعمل طبيبًا؟»

قال جلاسديل: «مطلقًا!» ثم تابع: «لم يذكر شيئًا عن هذا الرجل!»

تأمَّل برايس مرة أخرى، وفجأةً قرَّر أن يُصبح صريحًا.

فقال: «إن جون بريك، مدير البنك، تزوَّج في مكانٍ يُدعى برادن ميدوورث، في ليسترشير، من فتاةٍ تُدعى ماري بيوري. ورُزق بطفلَين، عمراهما، على التوالي، حوالي أربع سنوات وسنة واحدة عندما وقع في ما سنُسميه محنة. إن هذه حقيقة!»

قال جلاسديل: «إنها المرة الأولى التي أسمع فيها عن هذا الأمر، إذن.» ثم أضاف: «وهذه حقيقة، أيضًا!»

تابع برايس: «لقد كان لديه أيضًا صديقٌ مقرَّب للغاية اسمه رانسفورد — مارك رانسفورد.» ثم أضاف: «رانسفورد هذا كان إشبينَ بريك في حفل زفافه.»

قال جلاسديل مؤكدًا: «لم أسمعه قط يتحدَّث عن رانسفورد، ولا عن أي حفل زفاف!» وأردف: «كلُّ هذه أمور أسمعها للمرة الأولى، يا دكتور.»

قال برايس: «إن رانسفورد هذا هو الآن طبيبٌ يعمل في رايتشستر.» ثم أضاف: «وتحت وصايته فتاةٌ وفتًى يعيشان معه ربيبَين له — فتاة في العشرين من العمر، وفتًى في السابعة عشرة — وهما، بلا شكٍّ، ابنا جون بريك. وأنا أريد أن أتزوَّج الابنة.»

هزَّ جلاسديل رأسه كما لو كان في حيرةٍ شديدة.

وقال: «حسنًا، كلُّ ما يُمكنني قولُه هو أنك تُفاجئني!» وتابع: «ليس لديَّ أيُّ فكرة عن أيٍّ من هذا.»

سأله برايس: «هل تظن أن بريك قد جاء إلى رايتشستر بسبب هذا؟»

صاح جلاسديل متعجبًا: «كيف لي أن أُجيب عن ذلك، يا سيدي، وأنا أقول لك إنني لم أسمعه يَلفِظ كلمةً واحدة عن وجود ابنَين لديه؟» وأردف: «كلا! ولكن أنا أعرف سببَ قدومه إلى رايتشستر. إن السبب الوحيد — على حدِّ علمي — هو إخبار الدوق هنا عن أمرِ تلك الجواهر، التي عهِد بسرِّها إليَّ وإلى بريك رجلٌ على فِراش الموت في أستراليا. لقد جاء بريك إلى رايتشستر بمفرده — وكنتُ سألحق به في صباح اليوم التالي، وكان من المقرَّر أن نذهبَ لمقابلة الدوق معًا. وعندما وصلت إلى رايتشستر، سمعت بموت بريك، ونظرًا إلى انزعاجي من الأمر، غادرتُ مرةً أخرى وانتظرت بضعةَ أيام حتى أمسِ، عندما قرَّرت أن

أُخبر الدوق بنفسي، مثلما فعلت، وكانت النتائج رائعةً للغاية. كلا، هذا هو السبب الوحيد الذي أعرفه عن سببِ قدوم بريك إلى رايتشستر. وأؤكِّد لك أنني لا أعرفُ شيئًا على الإطلاق عن أموره العائلية! لقد كان رجلًا متحفظًا جدًّا، وبغضِّ النظر عن مسائل عمله، كانت لديه فكرةٌ واحدة فقط في رأسه، وقد انتهى ذلك هناك تمامًا، يمكنني أن أؤكِّد لك ذلك!»

سأله برايس: «ماذا كانت تلك الفكرة؟»

أجاب جلاسديل: «لقد أراد أن يجد رجلًا معينًا — أو على وجه الدقَّة رجلَين — خدَعاه وظلَماه بقسوة، لكنه كان يريد بشدةٍ واحدًا منهما.» وتابع: «كان يعتقد أن هذا الشخص موجود في أستراليا، حتى قرب النهاية، عندما أدرك أنه قد غادر إلى إنجلترا، أما الآخَر، فلم يكن يُهمُّه كثيرًا. لكن الرجل الذي كان يريده فقد تطلَّع للعثور عليه بشدة!»

سأله برايس: «مَن كان ذلك الرجل؟»

أجاب جلاسديل على الفور: «رجلٌ يحمل اسم فولكينر راي.» وأضاف: «إنه رجل كان يعرفه في لندن. وقد خدَعه راي هذا، هو وشريكه، وهو رجلٌ يُدعى فلود، بأن طلبا منه أن يُقرِضَهما عدة آلاف من الجنيهات — من أموال البنك، بالطبع — لبضعة أيام ليس أكثر، ثم اختفَيا تمامًا، وترَكاه ليُواجه تهمةَ الاختلاس! لقد كان أحمقَ، بلا شك، لكنه تورَّط معهما؛ لقد فعل ذلك من قبل، وكانا دائمًا يَفِيان بوعودهما، وقد كرَّر الخطأ نفسَه وكانت النتيجة أن جلب على نفسه المشاكل. لقد سمح لهما بالحصول على بعضِ الآلاف من الجنيهات، ثم اختفَيا، وتصادف أن زار مفتش البنك فرع البنك الذي يُديره بريك وطلب مراجعة أرصِدته. وهكذا انكشفَ أمرُه. وهذا هو السبب في أنه كان يُفكِّر في العثور على فولكينر راي — وهي الفكرة التي سيطرَت على تفكيره. وكان الرجل الآخر أقلَّ أهميةً لديه؛ إذ كان راي هو الجانيَ الرئيسي.»

قال برايس بعد توقُّفٍ فكَّر خلاله قليلًا: «أتمنى أن تُخبرني بكلِّ ما تعرفه عن بريك.» وأضاف: «سيكون الأمر بيني وبينك، بالطبع.»

أجاب جلاسديل بنحوٍ غيرِ مُبالٍ تقريبًا: «أوه، إن الأمر ليس فيه أسرار!» وتابع: «بالطبع، عرَفته في البداية عندما كنا نزيلَين في ... أنت تفهم أين؛ فلا حاجة إلى التفاصيل. لكن بعد أن غادرنا ذلك المكان، لم أرَه مرةً أخرى قطُّ حتى التقينا في أستراليا قبل بضعِ سنوات. كنا نعمل في نفس المجال — المضاربة في تجارة الصُّوف. لقد تقاربنا للغاية واعتَدْنا رؤيةَ أحدنا الآخر كثيرًا، وبالطبع نمَت الثقةُ فيما بيننا. وقد أخبرني في النهاية عن قضيته، وكيف أنه تتبَّع راي هذا إلى الولايات المتحدة، وبعد ذلك، على ما أعتقد، إلى

نيوزيلندا، ثم إلى أستراليا، ولأنني كنتُ أطوف البلدَ كثيرًا لشراء الصوف، فقد طلب مني مساعدتَه، وأعطاني وصفًا لراي، وقال، إنه بالتأكيد سمع عنه شيئًا ما عندما جاء إلى سيدني أولَ مرة، لكنه لم يتمكَّن قط من تعقُّبِه بعد ذلك. لكنني لم أستطِع أن أفيده — حيث لم أرَ أو أسمع أيَّ شيء عن راي — وتوصَّل بريك إلى استنتاجٍ أنه قد غادر أستراليا. وأنا أعلم أنه كان يأمُل في الحصول على أخبار عنه، بطريقةٍ ما، عندما عُدنا إلى إنجلترا.»

سأل برايس: «ماذا عن ذلك الوصف؟ — ماذا كان؟»

قال جلاسديل: «أوه!» ثم أضاف: «لا أستطيع أن أتذكَّرَه كاملًا، الآن — إنه رجل ضخم، حليق الذقن، لا يوجد ما يميزه باستثناء شيء واحد. فوفقًا لبريك، كان لدى راي ندبةٌ غائرة في فكِّه الأيسر، وقد فقد الإصبع الوُسطى من يده اليسرى — نتيجةً لحادث إطلاق نار. إنه ... ما الأمر، يا سيدي؟»

ترك برايس غليونه فجأةً يسقط من بين شفتيه. واستغرق بعض الوقت في التقاطِه. وعندما رفع نفسَه مرة أخرى كان وجهه هادئًا لكنه احمرَّ قليلًا بفعل الانحناء.

وغمغمَ قائلًا: «لقد ضغطت على الغليون بسنٍّ ملتهبٍ يؤلمني!» وتابع: «يجب أن أجعل طبيب الأسنان يفحصه. إذن فأنت لم تسمع أو ترَ أيَّ شيء عن ذلك الرجل، أليس كذلك؟»

أجاب جلاسديل: «مطلقًا!» وأضاف: «لكني تساءلت منذ وقوع قضية رايتشستر هذه عما إذا كان بريك قد التقى مصادفةً بأحد هذَين الرجلَين، وإذا كانت وفاته قد نتجت عن ذلك. والآن، انتبه لما سأقوله، يا دكتور! لقد قرأتُ ما كُتب عن جلسة التحقيق الخاصة بأسباب وفاة بريك — وكنت سأذهب لحضورها إذا كانت لدي الجُرأةُ لذلك، لكنني حتى ذلك الحينِ لم أكن قد حسَمتُ رأيي بعدُ بشأن مقابلة الدوق، ولم أكن أعرف ماذا أفعل، لذلك ظلِلتُ بعيدًا، لكنَّ هناك شيئًا استرعى انتباهي، ولا أظن أن الشرطة قد لاحظَته، على الإطلاق.»

سأله برايس: «وما هو؟»

أجاب جلاسديل: «عجبًا، إنه الآتي.» وأردف: «ذلك الرجل الذي أطلق على نفسه اسم ديلينجهام — الذي جاء مع بريك إلى فندق مايتر في رايتشستر — مَن يكون؟ أين قابله بريك؟ وإلى أين ذهب؟ يبدو لي أن الشرطة قد تجاهلَت ذلك الأمر على نحوٍ غريب! وفقًا لما قرأته، لقد قبِل الجميعُ أقوال ديلينجهام الأولى، وصدَّقوها، وتركوه يتلاشى! لم يتحقَّق أحد، على حدِّ علمي، من روايته عن نفسه. إنه غريب!»

نهض برايس، الذي كان بالفعل في إحدى حالات تفكيره العميق، من كرسيِّه وكأنه سيُغادر.

وقال: «أجل.» وأردف: «ربما يكون في ملاحظتك بعضُ الوجاهة. من المؤكد أنهم أَخَذوا ما قاله عن نفسه دون أن يتحقَّقوا منه. هذا صحيح — ربما يكون قد ادَّعى أنه شخصٌ آخر بخلاف هُويته الحقيقية.»

قال جلاسديل: «أجل، ومن خلال ما قرأتُه، فهم لم يُتابعوا قط تحركاتِه في ذلك الصباح!» وأضاف: «هذا أمر غريب تمامًا! أليست هناك مكافأةٌ معروضة، يا دكتور؟ سمعت عن بعض المنشورات التي وُزِّعت أو شيءٌ من هذا القبيل، لكني لم أرَها قط؛ بالطبع، فأنا هنا منذ صباح أمسِ فقط.»

أخرج برايس بعض الأوراق من جيبه في صمت. واستخرج منها المنشورَين اللذين أعطاهما له ميتشينجتون وناولهما إيَّاه.

وقال: «حسنًا، يجب أن أذهب.» وتابع: «سأراك بلا شكٍّ مرةً أخرى في رايتشستر، بشأن هذه القضية. لكن في الوقت الحاضر، فإن كل هذا هو سرٌّ بيننا بالطبع، أليس كذلك؟»

أجاب جلاسديل: «أوه، بالطبع، يا دكتور!» وأردف: «هكذا تمامًا!» ومن ثَم غادر برايس وأخذ دراجته وقادها عائدًا في اتجاه رايتشستر. ولو أنه قد ظلَّ في تلك الحديقة، لرأى جلاسديل، بعد قراءة المنشورين، وهو يدخل مبنى الفندق ولسَمِعه يطلب من مالكتِه عند البار أن تُحضر له عربةً وحصانًا جيدًا في أسرعِ وقت ممكن؛ هو أيضًا كان يريد الآن الذَّهاب إلى رايتشستر على الفور. لكن برايس كان يقود دراجته عبر الطريق، وهو يُغمغم لنفسه بكلماتٍ معينةٍ مِرارًا وتكرارًا.

أخذ يُكرِّر: «الفك الأيسر ... واليد اليسرى!» وأضاف: «اليد اليسرى ... الفك الأيسر! إنه أمر مميز!»

الفصل الثاني والعشرون

آراء أناس آخرين

أصبحَت الأبراج العالية لكاتدرائية رايتشستر في نطاق رؤية برايس قبل أن يتخذَ قرارًا بشأن الخطوة التالية في هذه المرحلة الأخيرة من مَسْعاه. لقد خرج من فندق ساكسونستيد وهو يشعر بأن عليه أن يفعل شيئًا ما على الفور، لكن لم يكن واضحًا تمامًا في ذهنه ما هو هذا الشيء بالضبط. ولكن الآن، بينما هو يقود دراجته فوق تلَّةٍ صغيرة على الطريق، ويرى رايتشستر ممتدةً تحته، وشمس الصيف مشرقة على أسطُحِها الحمراء وجُدرانها الرمادية، اتخذ قرارًا فجأة، وبدلًا من قيادة دراجته مباشرةً إلى الأمام نحوَ المدينة العتيقة انحرف إلى طريقٍ فرعي، وشق طريقه عبر الضواحي الشمالية، وتوجَّه إلى ملاعب الجولف. كان شِبهَ متأكدٍ أنه سيجد ماري بيوري هناك في تلك الساعة، وقد أراد رؤيتها في الحال. لقد حان وقتُ ضربته الكبرى.

لكن ماري بيوري لم تكن هناك — لم تذهب إلى هناك في ذلك الصباح حسَبما قال رئيسُ عمال حمل المضارب. لم يكن هناك سوى عددٍ قليل من اللاعبين. وقد اقترب واحدٌ منهم، قادمًا نحو مبنى النادي، فعرَف برايس أنه ساكفيل بونهام. وعند رؤيةِ ساكفيل، خطرت لبرايس فكرة. إن ماري بيوري لن تأتيَ للعبِ الجولف قبل وقتٍ ما بعد الظهر؛ لذا سيتناول برايس الغداءَ هناك ثم يتجه نحو رايتشستر لمقابلتها في الطريق عبر الحقول حيث قابلها من قبلُ بعد زيارته إلى ليسترشير. وفي غضون ذلك، سيستدرجُ ساكفيل بونهام ويجعله يدخلُ معه في محادثة. وقد سقط ساكفيل بسهولةٍ في فخِّ برايس. إذ كان من ذلك النوع من الشباب الذي يحبُّ التحدُّث، لا سيما بالأسلوب الذي يعتمدُ على التلميح والغموض. وعندما اقترح عليه برايس، بعد أن قدَّم له فاتحَ شهية في بار النادي، أن يتناولا الغداء معًا وأجلسه في ركنٍ هادئ من غرفة الطعام، انطلق يتحدَّث على الفور عن حدث اليوم.

وبينما كان يلتقطُ هو وبرايس سكِّينَه وشوكته، بادر بالسؤال: «هل سمعتَ بأخبار العثور على ماسات ساكسونستيد المفقودة؟» وتابع: «إنه أمرٌ غريب، أليس كذلك؟ بالطبع، إن الأمر له صلة بهاتين الجريمتَين!»

سأله برايس: «هل تظن ذلك؟»

قال ساكفيل بأفضلِ أسلوبِ جزمٍ لديه: «هل يمكن لأيِّ شخص أن يظن أيَّ شيء آخر؟» وأردف: «عجبًا، إن الأمر واضح. ممَّا جرى الكشفُ عنه — وهو ليس كثيرًا، بالتأكيد، ولكنه كافٍ — إنه واضح تمامًا.»

سأله برايس: «ما نظريتك؟»

أجاب ساكفيل: «إن زوج أمي — وهو عجوزٌ مخضرم! — يُلخِّص الأمر برُمَّته بدقة.» ثم أضاف: «لقد كان ذلك الرجل العجوز، برادن، كما تعلم، يحتفظُ بهذا السر. إذ جاء إلى رايتشستر من أجل هذا الموضوع. لكنَّ هناك شخصًا آخرَ يعرف السر. وقد تخلَّص ذلك الشخصُ من برادن. لماذا؟ حتى يُصبح السرُّ عندئذٍ بحوزةِ شخصٍ واحد فقط — القاتل! فهمت؟! ولماذا؟ لماذا؟»

كرَّر برايس: «حسنًا، لماذا؟» وأردف: «فأنا لا أفهم، حتى الآن.»

قال ساكفيل بتعالي الشباب: «لا بد أنك بطيء الفهم، إذن.» وتابع: «بسبب المكافأة بالطبع! ألا تعلم أنَّ هناك عرْضًا ثابتًا — لم يُسحَب قط! — بخمسة آلاف جنيه مقابلَ أي معلومات عن تلك الجواهر؟»

أجاب برايس: «نعم، لا أعلم.»

تابع ساكفيل: «إنها حقيقةٌ، يا سيدي — حقيقة خالصة.» وأضاف: «خمسةُ آلاف مقسَّمة على اثنَين تُساوي ألفَين وخَمسمائة لكلٍّ منهما. لكن خمسة آلاف، غيرَ مقسمة، تساوي ماذا؟»

قال برايس: «خمسة آلاف — بالقطع.»

قال ساكفيل بلهجة العالم ببواطن الأمور: «بالضبط! وإنَّ المرء لَيفعل الكثيرَ من أجل الحصول على خمسة آلاف.»

قال برايس: «أو من أجل نصفها — بحسب حُجَّتِك.» وتابع: «ما تهدفُ إليه أنت — أو زوجُ والدتك — بذكر هذا هو أن أصابع الاتهام تتَّجهُ نحوَ شريك برادن في السر. أليس كذلك؟»

سأل ساكفيل: «ولِمَ لا؟» وأردف: «انظر إلى ما عَلِمناه من الرواية المذكورة في الصحيفة هذا الصباح. لقد انتظر ذلك الرجلُ الآخَر، جلاسديل، قليلًا حتى تهدأَ الأمور

حول موت برادن، ثم تقدَّم وأخبر الدوق أين خُبِّئت ماساتُ الدوقة. لماذا؟ ليحصل على مكافأة الخمسة الآلاف جنيه! إن الأمر واضح للغاية! فقط رجال الشرطة حمقى.»

سأل برايس، من أجلِ معرفةِ كلِّ أفكار رفيقه: «وماذا عن كوليشو؟»

قال ساكفيل: «جزءٌ من اللعبة.» وتابع: «الرجل نفسُه الذي تخلَّص من برادن تخلَّص من ذلك الرجل! ربما كان كوليشو يعرف القليلَ وكان لا بد من إسكاته. ولكن، سواءٌ كان جلاسديل هذا قد فعل كلَّ شيء بنفسه أو بمساعدةِ شخصٍ ما، فهو المتَّهم الأساسي في الجريمة، كما يقول زوج أمي. وسيُصبح الأمر كذلك. استنادًا إلى المنطق!»

سأل برايس: «هل تقدَّم أيُّ شخص بشأن تلك المكافأة التي عرَضها زوج أمك؟»

أجاب ساكفيل: «غيرُ مسموح لي بالرد.» وأضاف، وهو يميل نحو رفيقه عبر الطاولة: «لكني أستطيع أن أُخبرك بهذا — إن الأمر معقَّد للغاية! افهم! وسوف تتكشَّف الأمور. يجب أن تتكشف! لا يمكننا — كعائلة — تركُ رانسفورد بمفرده في تلك الأزمة، كما تعلم. تجب علينا تبرئةُ ساحته. لهذا السبب بالتحديد عرَض السيد فوليوت مكافأته. بالطبع، يتحمَّل رانسفورد، كما تعلم، يا برايس، الكثيرَ من اللوم — كان عليه أن يفعل المزيد بنفسه. وبالطبع، كما تقول والدتي وزوجها، إذا لم يهتمَّ رانسفورد بهذا الأمر بنفسه، حسنًا، فيجب أن نفعلَ ذلك من أجله! لا يمكننا التفكير في أي شيء آخر.»

وافق برايس على ذلك قائلًا: «هذا تصرفٌ جيد جدًّا منكم جميعًا، بالتأكيد.» وأضاف: «إنه فعلٌ حصيف ولطيف للغاية.»

قال ساكفيل، الذي لم يكن قادرًا على إدراكِ نبرةِ السخرية أو معرفة أن الرجالَ الأكبرَ سنًّا يسخرون منه: «أوه، حسنًا!» ثم أضاف: «إنه واحدٌ من تلك الأشياء التي يتعيَّن على المرء القيامُ بها — في ظل هذه الظروف. بالطبع، الآنسة بيوري ليست ابنةَ دكتور رانسفورد، لكنها ربيبتُه، ولا يُمكننا أن نسمح للشكوك بأن تحوم حول وصيِّها. اترك الأمر لي، يا صاح، وسترى كيف ستنتهي هذه الأمور!»

سأل برايس: «أنتم تعملون شيئًا في الخفاء، أليس كذلك؟»

أجاب ساكفيل مع غمزةٍ واثقة: «انتظر قليلًا!» وأردف: «هذا أقلُّ ما ينبغي — ماذا تظن؟»

أجاب برايس بأن ساكفيل على حقٍّ بلا شك، وبدأ يتحدَّث عن أمورٍ أخرى. ومن ثَم ظل في مبنى النادي حتى تجاوزَت الساعة الثالثة بعد الظهر، وبعد ذلك، ولأنه كان على درايةٍ جيدة بتحرُّكات ماري بيوري من خلال المراقبة الطويلة لها، انطلق في السير نحو

رايتشستر، تاركًا دراجته في النادي. وإذا لم يُقابل ماري في الطريق، كان ينوي الذَّهابَ إلى منزلها. حيث سيَخرج رانسفورد في جولةِ زياراته المسائية، بينما ديك بيوري لا يزال في المدرسة، وسيجد ماري وحدها. وكان من الضروريِّ أن يراها بمفردها، وفي الحال؛ لأنه منذ الصباح طرأَت على ذهنه نظرةٌ جديدة تمامًا للأمور، بِناءً على المعلومات الإضافية التي حصل عليها، وقد رأى الآن فرصةً لم يسبق لها مثيلٌ من قبل. صحيح — هكذا قال لنفسه، بينما كان يسير عبر الملاعب والحقول التي تقع بين حافتها وبين رايتشستر — أنه لم تكن لديه، حتى الآن، المعرفةُ الدقيقة بالقاتل الفعلي لبرادن أو كوليشو التي كان يُريدها، لكنه كان يعرف شيئًا سيُمكِّنه من أن يسألَ ماري بيوري بصراحةٍ عما إذا كانت ستجعله يصبح صديقًا أو عدوًّا. وكان لا يزال يُفكِّر في أفضل طريقةٍ لعرض فكْرته عليها عندما دخل أخيرًا إلى كلوس، بعد أن أخفقَ في مقابلتها على الطريق، وعندما اقترب من منزل رانسفورد، رأى السيدة فوليوت تُغادره.

لقد صادفَت ماري بيوري، مثل برايس، يومًا مشحونًا بالأحداث. في البداية، تلقَّى رانسفورد برقيةً من لندن، في الصباح الباكر، جعلته يُهرَع، دون تناول الإفطار، لاستقلال أول قطارٍ سريع متاح. وترك ماري لاتخاذِ الترتيبات اللازمة بشأن عمله اليومي؛ لأنه لم يوظِّف أحدًا ليحلَّ محلَّ برايس بعدُ، وكانت مضطرَّةً إلى البحث عن طبيبٍ ممارسٍ عامٍّ آخرَ يُمكنه إيجاد وقت بين مهامه الخاصة للكشف على مَرْضى رانسفورد الذين حالتهم عاجلة. ثم كان عليها أن تُقابل الزائرين الذين أتَوا إلى العيادة متوقِّعين أن يجدوا رانسفورد هناك، وفي منتصف صباحٍ مزدحم، جاء السيد فوليوت، ليُحضِر لها باقةً من الورود، وبمجرد قَبولها، أظهر علاماتٍ لا لبس فيها على الرغبة في النميمة.

إذ سأل عندما جلس في غرفة الطعام: «هل رانسفورد بالخارج؟» ثم أضاف: «أعتقد أنه يكون كذلك، في هذا الوقت من اليوم.»

أجابت ماري: «إنه غير موجود.» وتابعت: «لقد ذهب إلى لندن على متن أول قطارٍ سريع، وقد عانيتُ كثيرًا لترتيب أمور مرضاه.»

سألها فوليوت: «هل علِم بالعثور على جواهر ساكسونستيد قبل ذَهابه؟» وأردف: «أظن أنه لم يعلم — فالأمر لم يصبح معروفًا إلا بعدَ صدور الصحيفة الأسبوعية هذا الصباح. إنه لأمر غريب! لقد علمتِ به، بالطبع، أليس كذلك؟»

أجابت ماري: «لقد أخبرني دكتور شورت.» وأضافت: «لكني لا أعرف أيَّ تفاصيل.»

نظر فوليوت إليها بتأمُّل للحظة.

ثم قال: «إنَّ للأمر علاقةً بتلك الأمور الأخرى، كما تعلمين.» وتابع: «عجبًا! ما الذي يفعله رانسفورد حيالَ كلِّ ذلك؟»

سألت ماري، في الحال بحذر: «ماذا تقصد بعبارةِ حيالَ كل ذلك، يا سيد فوليوت؟» ثم أضافت: «فأنا لا أفهمك.»

قال فوليوت: «كما تعرفين؛ كلُّ تلك الشبهات، وما إلى ذلك.» وتابع: «إنه لَموقفٌ سيِّئ بالنسبة إلى طبيبٍ مثلِه، كما تعرفين، وينبغي عليه أن يُبرئ نفسه. هل تقدَّم أحدٌ للحصول على تلك المكافأة التي قدَّمها رانسفورد؟»

أجابت ماري: «لا أعرف شيئًا عنها.» وأردفت: «لكن دكتور رانسفورد قادرٌ على الاعتناء بنفسه جيدًا، حسَبما أظن. هل تقدَّم أيُّ شخص للحصول على مكافأتك؟»

نهض فوليوت من كرسيه مرةً أخرى، كما لو أنه غيَّر رأيه بشأن التلَكُّؤ، وهز رأسه.

وقال: «لا أستطيع أن أقول ما قد علمه — أو فعَله — المحامون الخاصون بي.» ثم أردف: «لكن القضية غريبة، كما تعلمين، وينبغي كشفُها. إنه لأمر سيئ بالنسبة إلى رانسفورد أن تُحيط به الشكوك. وهو أمر يحزنني.»

سألته ماري: «ألهذا السبب عرَضتَ المكافأة؟»

لكن فوليوت لم يُجِب على هذا السؤال المباشر. وإنما تمتمَ بشيءٍ ما حولَ استحسانِ فعل شخصٍ ما لشيءٍ ما ثم غادر، وهو ما جعل ماري تشعر بالارتياح. إذ لم تكن لديها رغبةٌ في مناقشة لغزَي بارادايس مع أي شخص، خاصةً بعد تأكيد رانسفورد في الأمسية السابقة. ولكن في منتصف وقتٍ ما بعد الظهر، جاءت السيدة فوليوت لزيارتها، وهي زيارةٌ نادرة، وقبل أن تختليَ بماري خمسَ دقائق، أثارت الموضوعَ مرةً أخرى.

حيث قالت: «أريد أن أتحدَّث إليكِ بشأنِ مسألةٍ خطيرة للغاية، يا عزيزتي الآنسة بيوري.» ثم أضافت: «ويجب أن تسمحي لي أن أتحدَّث بصراحة عن ... عن عدةِ أشياء. أنتِ بالطبع تعلمين أنني أكبُرك سنًّا، وما إلى ذلك!»

سألتها ماري، وهي تُعِد نفسها لما شعرَت أنه سيأتي بالتأكيد: «ما الأمر، يا سيدة فوليوت؟» ثم أردفت: «هل هو خطيرٌ جدًّا؟ واعذريني، هل هو بخصوصِ ما ذكره السيد فوليوت لي هذا الصباح؟ لأنه إذا كان الأمر كذلك، فلن أُناقش ذلك معكِ أو مع أي شخص.»

أجابت السيدة فوليوت في مفاجأة حقيقية: «لم يكن لدي أيُّ فكرة أن زوجي كان هنا هذا الصباح.» وأضافت: «ما الذي أراد التحدُّثَ عنه؟»

قالت ماري: «في هذه الحالة، ما الذي تريدين التحدُّثَ عنه؟» وتابعَت: «على الرغم من أن هذا لا يعني أنني سأتحدَّثُ معك عنه.»

بذَلَت السيدة فوليوت بعضَ الجُهد لِفَهم هذه الملاحظة، وبعد أن تفحَّصت مضيِّفتها بنحوٍ نقدي للحظة، شرَعَت في الكلام مستخدِمةً أكثرَ أساليبها الناقدة.

وقالت: «يجب أن تُدركي، يا عزيزتي الآنسة بيوري، أنه من الضروريِّ للغاية أن يسعى شخصٌ ما بكل الطرق لإقناعِ دكتور رانسفورد بالتحرُّك في هذا الأمر.» ثم أردفَت: «إنه يضَعُكم جميعًا — هو، وأنتِ، وأخاكِ الصغير — في موقفٍ سيئ للغاية بسبب صمتِه! وفي مجتمعٍ مثل — حسنًا، مثل مجتمعنا في مدينة الكاتدرائية، كما تعلمين — لا يمكن لأي رجل ذي سمعةٍ طيبة أن يلتزم الصمتَ عندما تتأثر سُمعته.»

التقطَت ماري بعضَ أعمال الإبرة وبدأت في الانشغال بها.

ثم سألت: «هل تأثرَت سمعة دكتور رانسفورد؟» وتابعت: «لم أكن على علمٍ بذلك، يا سيدة فوليوت.»

صاحت السيدة فوليوت: «أوه، يا عزيزتي، لا يُمكنكِ أن تظَلِّي — هل نقول؟ — بريئةً للغاية بمثلِ هذا النحو!» وأردفَت: «إن هذه الشائعاتِ بالطبع شريرةٌ وقاسية للغاية، لكنك تعلمين أنها انتشرت. يا إلهي! — عجبًا، لقد صارت مثارَ حديث الجميع!»

ردَّت ماري: «لا أعتقد أن وصيِّي يهتمُّ مطلقًا بهذا، يا سيدة فوليوت.» وتابعَت: «وأنا متأكدة تمامًا من أنني مثله.»

قالت السيدة فوليوت بأرقى أسلوبٍ لها: «لا أحدَ منا — وخاصة مَن هم في مستوانا الاجتماعي — يستطيع تجاهلَ الشائعات وأحاديثَ النميمة.» وتابعت: «وإذا صادفَنا سوءُ حظٍّ وتحدَّث أحدٌ عنا، فمن واجبنا الرسميِّ والمُلزم أن نُصحِّح صورتنا في أعين أصدقائنا والمجتمع. على سبيل المثال، يا عزيزتي، إذا سمعتُ أيَّ شيء يطعن في — دعيني أقُل — سُمعتي الأخلاقية، فيجب أن أتَّخذ الخطوات الأكثرَ صرامة، وجُرأةً، وقوة، لوضعِ الأمور في نِصابها الصحيح. لن أظل موضعَ شبهة — ولو دقيقةً واحدة!»

قالت ماري، وهي تنحني مقتربةً أكثرَ من عملها الذي تنسجه: «أتمنى ألا تتعرَّضي أبدًا لتجرِبةِ تبرئة سُمعتك الأخلاقية، يا سيدة فوليوت.» وأردفت: «مثلُ هذه الضرورة ستصبح مروعةً بالفعل.»

صاحت السيدة فوليوت: «ومع ذلك فأنتِ لا تُلحِّين — أجل، تُلحين! — على دكتور رانسفورد كي يتَّخذ خطواتٍ قويةً لتبرئة نفسه!» وأردفت: «الآن هذه، في الواقع، ضرورةٌ ملحَّة!»

ردَّت ماري: «إن دكتور رانسفورد قادرٌ تمامًا على الدفاع عن نفسه والعناية بها. ليس لي أن أُخبره بما يجب أن يفعله، أو حتى أن أنصحه بما يجب أن يفعله. وبما أنكِ ستتحدَّثين عن هذا الأمر، فأنا أقول لكِ بصراحة، يا سيدة فوليوت، إنني لا أعتقد أن أيَّ شخص محترمٍ في رايتشستر لديه أقلُّ شك أو اشتباه في دكتور رانسفورد. وكان إنكاره لأي مشاركة أو تواطؤٍ في هاتَين القضيتين المؤسفتين — فمجردُ التفكير في ذلك أمرٌ سخيف بقدْرِ ما هو شرير — كافيًا تمامًا. وأنت تَعلمين جيدًا أنه في جلسة التحقيق الثانية تلك قال — تحت القسَم، أيضًا — إنه لا يعرف شيئًا عن هذه الأمور. أُكرِّر، ليس هناك شخصٌ محترم في المدينة يشك في ذلك!»

قالت السيدة فوليوت، بسرعة: «أوه، لكنكِ مخطئةٌ تمامًا!» وأردفَت: «مخطئة تمامًا، بكل تأكيد، يا عزيزتي. بالطبع، يعرف الجميعُ ما قاله دكتور رانسفورد، ذلك المسكين، بانفعالٍ شديد وأنا متفهِّمة للأمر الذي تُشيرين إليه، ولكن ما الذي يمكن أن يقوله علاوة على ذلك لدحضِ الشكوك؟ إن ما يريده الناسُ هو الدليل على براءته. يُمكنني — لكنني لن أفعلَ — أن أُخبرك بالعديد من أفاضلِ الناس الذين — في واقع الأمر، يتشكَّكون للغاية في هذه المسألة، يمكنني ذلك حقًّا!»

سألتها ماري بطريقةٍ باردة كان من شأنها أن تُصبح تحذيرًا لأي شخصٍ غيرِ زائرتها: «هل تعتبرين نفسَكِ من بينهم؟» وأضافت: «هل لي أن أفهمَ ذلك من كلامك، يا سيدة فوليوت؟»

أجابت السيدة فوليوت على الفور: «بالتأكيد لا، يا عزيزتي.» وتابعَت: «وإلا ما كنتُ قد فعلت ما فعلت لإثبات براءةِ الرجل الأحمق!»

ترَكَت ماري عملها ووجَّهَت عينَيها المذهولتين إلى وجه السيدة فوليوت الكبير.

وتساءلت: «أنتِ!» وتابعَت: «لإثبات ... براءة دكتور رانسفورد؟ عجبًا، يا سيدة فوليوت، ماذا فعلتِ؟»

تلاعبَت السيدة فوليوت قليلًا بالِمقبض المرصَّع بالجواهر لمظلَّتِها. وأصبح تعبيرُ وجهها خَجولًا تقريبًا.

ثم أجابت بعد بُرهة وجيزةٍ من التردد: «أوه، حسنًا!» وتابعَت: «ربما يجب أن تعرفي أيضًا، يا آنسة بيوري. بالطبع، عندما ازدادت كلُّ هذه المشكلة المحزنة سوءًا بسبب تلك القضية الثانية — موت عامل البناء المساعد، كما تعلمين، قلتُ لزوجي إنه يجب على المرء فعلُ شيءٍ ما؛ نظرًا إلى أن دكتور رانسفورد كان شديدَ العناد ورفضَ التكلُّم. وبما أن المال لا يُهم — على الأقل هكذا يعتبر — بالنسبة إليَّ أو إلى السيد فوليوت، فقد أصررتُ على أنه ينبغي أن يُقدِّم مكافأةً قدْرها ألفُ جنيه مقابل كشف حقيقة هذا الأمر. إنه رجلٌ كريم وسخي، وقد اتفقَ معي تمامًا، ونفَّذ العملية من خلال مُحامِيه. ولا شيء يُمكن أن يُسعدنا أكثرَ، يا عزيزتي، من ظهورِ مَن يُطالب بهذه الألف جنيه لإظهارِ الحقيقة! لأنه بالطبع، إذا كان سيُصبح هناك — كما أفترض — اتحادٌ بين عائلتَينا، فمن المستحيل تمامًا قَبولُ وجودِ أيِّ سحابةِ شك تحوم حول دكتور رانسفورد، حتى لو كان هو الوصيَّ عليكِ فقط. لا يمكن لزوجة ابني المستقبلية، بالطبع ...»

تركَت ماري أعمال الإبرة مرةً أخرى وحدقَت في وجه السيدة فوليوت لمدة دقيقة كاملة.

ثم قالت في النهاية: «سيدة فوليوت!» وأردفَت: «هل تظنِّين أنني أفكِّر في الزواج من ابنك؟»

أجابت السيدة فوليوت: «أعتقد أن لديَّ كلَّ سبب وجيه للاعتقاد في ذلك!»

ردَّت ماري بجِدَّة، وهي تجمع عملها وتتَّجه نحوَ الباب: «ليس لديك أيُّ شيء!» وأضافت: «أنا لا أفكِّر على الإطلاق في الزواج من السيد ساكفيل بونهام! إن حتى التفكير في هذا الأمر سخيفٌ للغاية!»

بعد خمس دقائق، غادرَت السيدة فوليوت، وقد اكفهرَّ وجهُها. وبعد وقتٍ وجيز، بينما أخذت ماري تُتابعها بنظرها عبرَ كلوس، رأَت برايس يقترب من بوابة الحديقة.

الفصل الثالث والعشرون

أمرٌ غيرُ متوقَّع

كان التصرُّفُ الغريزي الأوَّلي لماري عند رؤية بيمبرتون برايس يقترب، وهو آخِر رجل كانت ترغب في رؤيته، هو التراجعَ إلى الجزء الخلفي من المنزل وإرسالَ الخادمة إلى الباب لتقول إن سيدتها غيرُ موجودة في المنزل. لكنها كانت قد أدركت مؤخرًا إصرارَ برايس الغريبَ على متابعة كلِّ ما يسعى إليه، وفكرَت أنه إذا طُلب منه الانصراف، فمن المؤكَّد أنه سيعود ويعود حتى يحصل على ما يريد أيًّا ما كان. وبعد التفكير لحظةً أخرى، خرَجَت من الباب الأمامي وواجهَته بثبات في الحديقة.

وقالت بفظاظةٍ غير ضرورية تقريبًا: «إن دكتور رانسفورد غيرُ موجود.» وتابعت: «ولن يعود حتى المساء.»

أجاب برايس بفظاظةٍ مماثلة: «أنا لا أريده هو.» وأردف: «لقد جئتُ لمقابلتك أنت.»

تردَّدَت ماري. وواصلَت النظر إلى برايس بثبات، ولم تُعجب برايس الطريقةُ التي كانت تنظر إليه بها. فسارع بالحديث قبل أن تتركه أو تطرده.

وقال بنبرةٍ تحذيرية: «من الأفضل أن تُعطيني بضعَ دقائق.» وأضاف: «أنا هنا من أجل صالحك — أو صالح رانسفورد. ويُمكنني أن أخبرك أيضًا، وبصراحة، أن رانسفورد في خطرٍ شديد ووشيك! هذه حقيقة.»

سألته في حدَّة: «خطر ماذا؟»

أجابها برايس: «الاعتقال — الاعتقال الفوري!» وتابع: «أنا أقول لكِ الحقيقة. من المحتمل أن يُلقى القبض عليه الليلة، عند عودته. لا يوجد تخيُّل في كلِّ هذا — أنا أتحدَّث عما أعرفه. فأنا على علمٍ — بما فيه الكفاية — بتفاصيلِ هذه الأمور، رغم أنني لم أسعَ لذلك، لكني أعرف ما وراء الكواليس. وإذا عُرف أنني أُفصح لك عن أسرار، فسأقعُ في مشكلة. لكني أريد أن أحذِّرك!»

وقفَت ماري أمامه على المسار، متردِّدة. فهي تعرف ما يكفي لِتُدرك أنَّ في كلام برايس بعضًا من الحقيقة، كان من الواضح أنه على علمٍ بتفاصيلِ الألغاز الأخيرة، وكانت هناك نبرةُ إقناع في صوته أثَّرَت فيها. وفجأةً راودتها رُؤَى اعتقال رانسفورد، واقتياده إلى السجن لمواجهةِ اتهامٍ قاسٍ، بالخزي والعار، فتردَّدت أكثر.

وقالت في النهاية: «لكن إذا كان الأمر كذلك، فما فائدةُ المجيء إليَّ؟ أنا لا أستطيع فعْل أي شيء!»

قال برايس: «أنا أستطيع!» وتابع: «أنا أعرف أكثر ... أكثر بكثير ... ممَّا تعرفه الشرطة ... أكثر مما يعرفه أيُّ شخص. ويمكنني إنقاذُ رانسفورد. عليك أن تُدركي هذا!»

فسألته: «ماذا تريد الآن؟»

أجاب برايس: «أن أتحدَّث إليكِ — وأُخبرك كيف تسير الأمور.» وتابع: «ما الضررُ في ذلك؟ أريد أن أجعلك ترَين حقيقة الأمور، ثم أُوضح لك ما يُمكنني فعْله لتصحيحها.»

نظرت ماري إلى كوخٍ صيفي مفتوح يقع تحت أشجار الزان في جانبٍ بالحديقة. فتحركَت نحوه وجلست هناك، وتبِعها برايس وجلس.

وقالت: «حسنًا ...»

أدرك برايس أنَّ لحظته قد حانت. فصمت، مُحاولًا تذكُّر الخطوات الدقيقة التي أعَدَّها لعرضِ قضيته. بطريقةٍ ما، لم يكن الأمر واضحًا تمامًا بخصوصِ أسلوب هجومه مثلما كان قبل عشرِ دقائق — فقد أدركَ أنه يتعيَّن عليه التعاملُ مع امرأةٍ شابة لم يكن من المحتمل السيطرةُ عليها أو خداعها بسهولة. وفجأةً خاض فيما شعر أنه يمثِّل أخطر الأمور.

وقال: «سواءٌ كنتِ أنت، أو رانسفورد — سواءٌ كِلاكما أو أحدكما، يعرف ذلك أو لا، فقد كانت الشرطة تسعى وراء رانسفورد منذ قضيةِ كوليشو! بطريقةٍ خفيَّة، كما تعلمين. إذ كان ميتشينجتون يُحقِّق في الأمور منذ ذلك الحين، وفي الآونة الأخيرة أصبح معه محققٌ من لندن ليساعده.»

استأنفَت ماري الآن أعمال الإبرة التي حملتها معها إلى الحديقة، وعندما بدأ برايس في الحديث، انحنت عليها وراحت تعمل بثبات.

وقالت: «حسنًا؟»

تابع برايس قائلًا: «انتبهي لما سأقوله!» ثم تابع: «ألم يسترعِ انتباهَكِ قط — ولا بد أنه استرعى بالفعل — أنَّ هناك غموضًا كبيرًا يُحيط برانسفورد؟ لكن سواءٌ أحَدَث ذلك

أم لا، فهو موجود، وقد استرعى انتباهَ الشرطة بقوة. إن الغموض يُحيط به قبل أن يأتيَ إلى هنا — وقبله بوقتٍ طويل. وهو له علاقة، بطريقةٍ ما، بذلك الرجل برادن. ليس مؤخرًا — لكن منذ سنينَ مضَت. وبطبيعة الحال، حاولَت الشرطة كشْف ذلك الغموض.»

سألت ماري بهدوء: «فماذا اكتشفوا؟»

أجاب برايس: «غير مسموحٍ لي بقول ذلك.» وأردف: «لكن يُمكنني أن أقول لكِ الآتيَ: إنهما، ميتشينجتون ورجل لندن، يَعلمان أنه كانت هناك علاقاتٌ بين رانسفورد وبرادن منذ سنوات.»

قاطعته ماري: «منذ كم سنةً مضَت؟»

تردَّد برايس لحظة. إذ كان لديه شكٌّ في أن هذه الفتاة ذاتَ القدرة على التحكم في انفعالاتها التي تأخذ كلَّ شيء بهدوء أكثرَ مما كان يتوقَّع، ربما تعرِف أكثرَ مما يظن أنها تعرف. لقد كان يُراقب أصابعها منذ جلوسهما في الكوخ الصيفي، ورأت عيناه الحادَّتان أنها ثابتةٌ مثل برج الكاتدرائية فوق الأشجار — فأدرك من ذلك أنها ليست خائفةً ولا قلقة.

وأجاب: «أوه، حسنًا — منذ سبعة عشر إلى عشرين عامًا.» وتابع: «تلك المدة تقريبًا. لقد كانت هناك علاقات، بالقطع، وهي ذاتُ طبيعةٍ توحي بأن ظهور برادن مرةً أخرى في المرحلة الحاليَّة من حياة رانسفورد سيُصبح أمرًا غيرَ سارٍّ وغيرَ مرحَّب به للغاية من قِبل رانسفورد.»

تمتمَت ماري: «هذا أمر غامض!» وتابعت: «غامضٌ للغاية!»

ردَّ برايس بحدَّة: «لكنه كافٍ تمامًا، لمساعدة الشرطة في تحديد الدافع. أقول لك إن الشرطة تعرِف ما يكفي لتُدرك أن برادن كان، من بين جميع الرجال في العالم، آخِرَ رجلٍ يرغب رانسفورد في رؤيته مرةً أخرى. وفي ذلك الصباح الذي وقعَت فيه حادثةُ باراديس، جاء برادن لرؤيته هنا. لذلك، ومن خلال طريقة الشرطة التقليدية في التفكير والنظر إلى الأشياء، هناك دافع.»

سألته ماري: «دافعٌ من أجل ماذا؟»

وصل برايس هنا إلى إحدى مراحله الحرجة، وتوقَّف لحظةً من أجل اختيار كلماته.

ثم قال في النهاية: «لا تأخذي أيَّ أفكار أو انطباعات خاطئة.» وتابع: «فأنا لا أتَّهم رانسفورد بأيِّ شيء. أنا فقط أخبرك بما تعتقده الشرطة وعلى وشك أن تتَّهِمَه به. دعيني أقُلْها بوضوح — إنها تتَّهمه بالقتل. إذ يقولون إن لديه دافعًا لقتل برادن — وبالنسبة

إليهم فإن الدافع هو كلُّ شيء. إنه أول شيء يبدو أنهم يُفكرون فيه؛ إنه أول شيء يسألون أنفسَهم عنه. إنهم يسألون أنفسهم: «لماذا قتل هذا الرجلُ ذلك الرجلَ؟» — هل تفهمين؟! «ما الدافع الذي لديه؟» — هذه هي أهمُّ نقطة. وهم يعتقدون — هؤلاء الرجالُ من أمثال ميتشينجتون ورجلِ لندن — أن رانسفورد كان لديه بالتأكيد دافعٌ للتخلص من برادن عندما التقَيا.»

سألت ماري: «ما هذا الدافع؟»

أجاب برايس: «لقد اكتشفوا شيئًا — وربما قدْرًا كبيرًا — حولَ ما حدث بين برادن ورانسفورد قبل سنوات.» ثم أضاف: «ونظريتهم هي — إذا كنتِ تريدين معرفة الحقيقة — أن رانسفورد هرَب مع زوجةِ برادن، وأن برادن كان يبحث عنه منذ ذلك الحين.»

كان برايس قد أبقى عينَيه على يدَي ماري، والآن رأى أخيرًا أصابعَ الفتاة ترتجف. لكن صوتها ظلَّ ثابتًا بالقدر الكافي عندما تحدَّثَت.

حيث سألته: «هل هذا مجرَّد تخمينٍ من جانبهم، أم إنه يستند إلى أي حقيقة؟»

أجاب برايس: «أنا لستُ على درايةٍ كاملة بجميع أسرارهم، لكنني سمعتُ ما يكفي لأعرف أنَّ هناك أساسًا لحقيقةٍ لا يمكن إنكارُها وهم يَبْنون نظريتهم عليه. فأنا أعلم على سبيل المثال، بما لا يدَعُ مجالًا للشك، أن برادن ورانسفورد كانا صديقَين مقرَّبَين، منذ سنوات، وأن برادن كان متزوجًا من فتاةٍ أراد رانسفورد أن يتزوجها، وأن زوجة برادن ترَكَته فجأة، وعلى نحوٍ غامض، بعد سنوات قليلة، وأن رانسفورد، في الوقت نفسِه، اختفى بالقدْرِ نفسِه من الغموض. إن الشرطة تعرِف كلَّ ذلك. فما هو الاستنتاج الذي يمكن استخلاصُه؟ ما الاستنتاج الذي قد يستخلصه أيُّ شخص — أنتِ نفسُكِ، على سبيل المثال؟»

أجابت ماري: «لا شيء، حتى أسمعَ ما سيقوله دكتور رانسفورد.»

لم يُعجب برايس هذا الردُّ الحادُّ الجاهز. وبدأ يشعر بأنه يُواجَه بقوةٍ أكبرَ من قوَّته.

فقال: «هذا تصرفٌ جيد جدًّا.» وتابع: «وأنا لا أقول إنني لن أفعلَ الشيء نفسَه. لكنني فقط أشرح موقف الشرطة، وأُظهِر لك الخطرَ المحتمل أن ينشأ من ذلك. إن نظرية الشرطة هي كما يلي، بقدْرِ ما أستطيع أن أفهمَها: لقد أساء رانسفورد، منذ سنوات، إلى برادن، فأقسمَ برادن بالتأكيد على الانتقام منه عندما يتمكَّنُ من العثور عليه. وقد منَعت الظروف برادن من البحث عنه على نحوٍ حثيث لبعض الوقت؛ وفي النهاية التقيا هنا، عن طريق الصُّدفة. وعند هذه النقطة لم تصل الشرطة إلى رأيٍ حاسم. فهناك نظريةٌ تذهب

إلى وقوعِ مشاجرة، تبادُل للضربات، صراع، لقي خِلالَها برادن حتفه؛ وهناك أخرى تُشير إلى أن رانسفورد اصطحب برادن عمدًا إلى المقصورة وألقاه عبر ذلك المدخل المفتوح ...»

قالت ماري، بنبرةٍ شبهِ ساخرة: «ذلك يبدو محتملًا جدًّا لدرجة أنني أعتقد أنه لن يخطر أبدًا على بالِ أيِّ شخص سوى من نوعِ الأشخاص الذين تُخبرني عنهم! ولن يصدقها أيُّ رجل عاقل لدقيقة!»

ردَّ برايس بحدة: «بعض الناس الذين يتمتَّعون برجاحةِ عقل ظاهرةٍ يُصدقونها على الرغم من كل ذلك!» وتابع: «فهي ممكنة تمامًا. لكن كما قلت، أنا أُكرِّر كلامهم فقط. وبالطبع، فإن بقية النظرية مبنيَّةٌ على ذلك. إن نظرية الشرطة هي أن كوليشو شهد موتَ برادن على يدِ رانسفورد، وقد عرَف رانسفورد أن كوليشو هو الشاهدُ على جريمته، ومِن ثَم تخلَّص من كوليشو بهدوء. وهم يقومون بالتحقيق بناءً على هذه النظرية، وسيستمرُّون في ذلك. لا تسأليني إذا كنتُ أعتقد أنهم على صواب أو خطأ! أنا أُخبرك فقط بما أعرفه لِأُظهر لك مدى الخطر الذي يُواجهه رانسفورد.»

لم تُقدِّم ماري إجابةً فورية، وجلس برايس يُراقبها. بطريقةٍ ما — لم يتمكَّن من تفسير ذلك لنفسه — إذ لم تكن الأمورُ تسير كما كان يتوقَّع. كان يعتقد بثقةٍ أن الفتاة ستُصبح خائفةً، ومذعورة، ومنزعجة، ومستعدَّةً لفعل أي شيء يطلبه أو يقترحُه. لكن من الواضح أنها لم تكن خائفة. وعادت الأصابع التي انشغلَت بأعمال الإبرة إلى العمل بالثبات مرةً أخرى، وظل صوتُها ثابتًا طوال الوقت.

ثم سألت فجأةً، مع نبرةِ تهكُّم قليلة في صوتها لاحظَها برايس بسرعة: «هل لك أن تُخبرني كيف أمكَنَك — وأنت لستَ شرطيًّا، ولا محققًا! — أن تعرف كل ذلك عن تلك القضية؟ منذ متى يُطلِعُك ميتشينجتون والشخص الغامض من لندن على أسرارهما؟»

أجاب برايس وهو متجهِّم تقريبًا: «أنت تَعلمين مثلما أعلم أنني قد أُقحِمتُ في هذه القضية رغمًا عني.» وأردف: «لقد أحضروني للكشف على برادن — ورأيتُه يموت. وكنتُ أنا مَن عثَر على جثة كوليشو. بالطبع، لقد كنتُ مرتبكًا، سواءٌ كنت سأفعل ذلك أو لا، وقد كان عليَّ متابعةُ قدْرٍ كبيرٍ من تحقيقات الشرطة، وبطبيعة الحال علمتُ أشياء.»

التفتَت ماري إليه فجأةً مع نظرةٍ ربما حذَّرت برايس من أنه قد فشل بشكلٍ ملحوظ في الخطوة الرئيسية لمغامرته.

وصاحت: «وما الذي علمتَه ويجعلُك تأتي إلى هنا وتُخبرني بكل هذا؟» ثم أضافت: «هل تعتقد أنني ساذَجة، يا دكتور برايس؟ لقد بدأتَ بالقول إن دكتور رانسفورد في

خطرٍ من الشرطة، وأنك تعرف أكثر — أكثرَ بكثير من الشرطة! ماذا يعني ذلك؟ هل أُخبِرك أنا؟ هذا يعني أنك — أنك! — تعلم أن الشرطة مخطئة، وأنك، إذا أردتَ، يُمكنك أن تُثبت لهم أنهم مخطئون! الآن، إذن أليس هذا صحيحًا؟»

ردَّ برايس: «إن لديَّ حقائقَ محدَّدة.» وأردف: «أنا ...»

أوقفته ماري بنظرةٍ إليه.

وقالت: «إنه دوري الآن!» وتابعت: «إن لديك حقائقَ محدَّدة. أليست الحقيقة أن الحقائقَ التي لديك هي دليلٌ كافٍ لك على أن دكتور رانسفورد بريءٌ مثلما أنا بريئة تمامًا؟ لا فائدة من محاولتك لخداعي! أليس الأمر كذلك؟»

اعترف برايس، الذي كان شعوره بعدم الارتياح يتزايد: «يمكنني بالتأكيد إبعادُ الشرطة عن طريقه.» وأضاف: «يمكنني تحويل ...»

نظرت إليه ماري نظرةً أخرى وتركت أعمال الإبرة واستمرَّت في مراقبته بثبات.

وسألت بهدوء: «هل تعتبر نفسك رجلًا نبيلًا؟» وتابعت: «أو دعنا نستبعدْ هذا المصطلحَ تمامًا. هل تعتبر نفسك حتى أمينًا على نحوٍ مقبول؟ إذ، لو أنك اعتبرتَ نفسك ذلك، فمن أين أتيتَ بكل هذه العجرفة — بل أكثر من ذلك، الوقاحة! — الشديدةِ كي تأتيَ إلى هنا وتُخبرني بكل هذا بينما تعلم أن الشرطة مخطئة، وأنه يُمكنك — ولنستخدِم مصطلحك الخاصَّ، الذي هو طريقتك في صياغة العبارة — إبعادُهم عن الطريق الخطأ؟ أيُّ نوع من الرجال أنت؟ هل تريد أن تعرف رأيي فيك بكلماتٍ واضحة؟»

رد برايس بسرعة: «يبدو أنكِ حريصة للغاية على قوله، على أيِّ حال.»

أجابت ماري: «سأقوله لك، وربما سيضعُ حدًّا لهذا الموقف.» وأضافت: «إذا كان لديك أيُّ دليل من شأنه أن يُثبت براءة دكتور رانسفورد وكتمتَه عن عمد، فأنت شخصٌ سيئ، وشرير، ووضيع، وقاسٍ، ولا يليق بك العيشُ في مجتمعٍ به أناسٌ محترمون!» ثم أضافت، وهي تلتقطُ أعمال الإبرة الخاصة بها وتنهض: «ولن تستحقَّ المزيد من كلماتي!»

قال برايس: «لحظة!» لقد أدرك أنه بطريقةٍ ما لعب كل أوراقه بشكلٍّ سيئ، وأراد فرصة أخرى. ثم أضاف: «إنك تُسيئين فهمي تمامًا! أنا لم أقل قط — لم أُلمِّح قط إلى — أنني لن أُنقذ رانسفورد.»

صاحَت بحدة: «إذن، إذا كانت هناك حاجة، وأنا لا أراها، فأنت تُقر بأنك يُمكن أن تُنقذه، أليس كذلك؟» وتابعت: «تمامًا مثلما أعتقد. إذن، إذا كنتَ رجلًا أمينًا، رجلًا يدَّعي

الشرف، فلماذا لا تفعل ذلك على الفور؟! إن أيَّ رجل لديه مثلُ هذه المشاعر التي ذكرتَها للتو لن يتردَّد ثانيةً واحدة. لكنك تأتي إلى هنا وتتحدَّث عن الأمر! كما لو كان لُعبة! يا دكتور برايس، أنت تجعلني أشعر بالاشمئزاز، عقليًّا، وأخلاقيًّا.»

كان برايس قد نهض على قدَمَيه عندما نهضت ماري، ووقف الآن يُحدِّق بها. إذ منذ طفولته كان يضحك ويسخر من مجرَّد فكرة القِيَم الأخلاقية — إذ كان يعتقد أن لكلِّ رجلٍ ثَمنَه وأن الأمانة والشرف شيئان مفيدان كمُصطلحَين، ولكنهما ليس لهما وجود حقيقي. والآن هو يتساءل — يتساءل حقًّا — إذا كانت هذه الفتاة تعني الأشياءَ التي قالتها؛ إذا كانت تشعر حقًّا بالاشمئزاز العقليِّ من عقلٍ مثلِ عقله وأغراضٍ مثلِ أغراضه، أو أنها تتصنَّع ذلك فقط. وقبل أن يتمكَّن من الكلام، واجهَته مرةً أخرى بشدةٍ أكثرَ من ذي قبل.

وسألته: «هل أقول لك شيئًا آخرَ بصراحة؟» ثم أردفت: «من الواضح أنك تمتلكُ معرفةً صغيرة ومحدودة للغاية — إذا كانت لديك أيُّ معرفة على الإطلاق! — عن النساء، ومن الواضح أنك لا تُقيِّم صفاتِهن العقليةَ على أنها ذاتُ مستوًى عالٍ. دعني أخبرك أنني لستُ غبية تمامًا مثلما تظنني! أنت أتيتَ إلى هنا بعد ظهرِ هذا اليوم لِتَعقد معي صفقةً! فأنت تعرف كم أحترم وصيِّي وبماذا أَدينُ له مقابلَ رعايته لي ولأخي. لذا فكَّرتَ في استغلال ذلك! كنت تعتقد أنه يمكنك عقدُ صفقة معي؛ فمقابل أن تنقذ دكتور رانسفورد، تحصل عليَّ مكافأةً! أنت لا تجرؤ على إنكارِ هذا. إنني، يا دكتور برايس، أستطيع أن أقرأَ نواياك!»

رد برايس: «أنا لم أقُل ذلك قط، بأي حال من الأحوال.»

صاحت ماري: «مرةً أخرى، انتبه، أنا لستُ غبية!» وتابعت: «لقد كنتُ أعلم نواياك طوال الوقت. وها أنت ذا قد فشلت! وأنا لستُ خائفة مطلقًا ممَّا قلتَه. إذا ألقت الشرطةُ القبض على دكتور رانسفورد، فإنه يعرف كيف يُدافع عن نفسه. وأنت لا تخاف عليه! أنت تعلم أنك لستَ كذلك. ولن يُهمَّك مطلقًا إذا شُنق غدًا؛ لأنك تكرهُه. لكن انظر إلى نفسك! إن الرجال الذين يغشُّون، ويُخططون، ويتآمرون، ويحيكون الشِّراك مثلك ينتهي بهم الأمرُ إلى نهاياتٍ سيئة. فكِّر في نهايتك! فكِّر في عدم جدوى ما تفعله. والآن، إذا سمحت، اذهب ولا تقترب مني مرة أخرى!»

لم يردَّ برايس. كان قد أصغى، مع محاولةِ الابتسام، لكلِّ هذا السخط الناري، لكن بينما كانت ماري تنطقُ الكلمات الأخيرة، أدرك فجأة شيئًا لفتَ انتباهه بعيدًا عنها

وعنهما. فمن خلال فتحةٍ في سياج حديقة رانسفورد تمكَّن من رؤية باب حديقة منزل فوليوت عبر كلوس. وفي تلك اللحظة خرجَ من خلاله فوليوت وهو يُحادث جلاسديل!

ودون أن ينبس برايس ببنتِ شَفة، انتزع قبَّعتَه من على طاولة الكوخ الصيفي، وغادر بسرعة — مع مخطَّط جديد، وفكرةٍ جديدة في ذهنه.

الفصل الرابع والعشرون

براءة

شغَل جلاسديل، أثناء رحلته إلى رايتشستر التي بدأها بعد نصفِ الساعة من مغادرة برايس له في فندق ساكسونستيد، نفسَه أثناء رحلته عبر الريف بالتفكير في مزايا المنشورَين اللذين قدَّمهما له برايس. لقد أعلن أحدُهما عن تقديم مكافأة قدرُها خَمسمائة جنيه للحصول على معلوماتٍ في قضية برادن وكوليشو؛ في حينِ أعلن الآخَرُ عن مكافأة ألف جنيه. لقد استرعى انتباهَه كشيء مثيرٍ للفضول تقديمُ عرضَين — مما يُشير، في الحال، إلى أن هناك أكثرَ من شخصٍ واحدٍ مهتمٍّ بشدة بهذه القضية. لكن مَن هم هؤلاء؟ — لم تظهر أيُّ إجابة عن هذا السؤال في المنشورين اللذين، في كل حالة، وُقِّع عليهما من قِبَل محامين من رايتشستر. وعلى الفور، ذهب جلاسديل إلى أحدِ هؤلاء، عند وصوله إلى المدينة العتيقة، وقد اختار مقدِّم المكافأة الأكبر. ومن ثَم وجد نفسه حاليًّا في مقابلةٍ مع رجلٍ يبدو عليه الذكاءُ حيث، بعد أن أُبلغ باسمِ زائره ووافق على مقابلته، كان ينظر إلى جلاسديل بفضولٍ واضح للغاية.

وقال مستفسرًا، بينما كان يجلس الزائرُ على الكرسيِّ الذي دُعي للجلوس عليه: «السيد جلاسديل؟» ثم أضاف: «هل أنت السيد جلاسديل الذي ذُكر اسمه في أمر الاكتشاف الرائع الذي حدث الليلةَ الماضية؟»

وأشار إلى نسخةٍ من الصحيفة الأسبوعية، مُلقاةٍ على مكتبه، وإلى تقريرٍ رسمي عن العثور على جواهر ساكسونستيد قدَّمَه ميتشينجتون للصِّحافة، بِناءً على طلب الدوق. فألقى جلاسديل نظرةً خاطفة عليه — بلا مبالاة.

وأجاب: «أجل أنا.» وأضاف: «لكنَّني لم أحضر إلى هنا بشأن هذه المسألة — على الرغم من أن ما حضرت لأجله له صلةٌ بها بالتأكيد. لقد عرضتَ مكافأةً مقابل أي معلومات من شأنها أن تؤدِّيَ إلى حل هذا اللغز المتعلقِ ببرادن — والرجل الآخر، كوليشو.»

أجاب المحامي، وهو ما زال ينظر إلى الزائر بفضولٍ أكبر، ممزوجٍ بالترقُّب: «مكافأة قدرُها ألف جنيه — أجل!» وتابع: «هل يمكنك تقديمُ أي معلومات؟»

أخرج جلاسديل المنشورَين اللذين حصل عليهما من برايس.

وقال: «هناك مكافأتان مقدَّمتان.» وأضاف: «هل هما منفصلتان تمامًا إحداهما عن الأخرى؟»

أجاب المحامي: «نحن لا نعرف شيئًا عن الأخرى.» وأردف: «باستثناء، بالطبع، أنها حقيقية. لكنهما منفصلتان تمامًا.»

فسأله جلاسديل: «مَن الذي يقدِّم المكافأة التي قدرُها خَمسمائة جنيه؟»

صمتَ المحامي، وأخذ يتفحَّص الرجل. حيث أدرك على الفور أن جلاسديل لديه، أو يعتقد أنَّ لديه، شيءٌ ليقوله — وهو يميل إلى توخِّي الحذرِ بنحوٍ غير عادي بشأن قوله.

فأجاب بعد فترة من الصمت: «حسنًا.» وتابع: «أعتقد — في الواقع، إنه سرٌّ معروف — أن عرض الخَمسمائة جنيه قدَّمه دكتور رانسفورد.»

استفسر جلاسديل قائلًا: «وعرضك؟» وتابع: «مَن الذي قدَّم الألف جنيه؟»

ابتسم المحامي.

ثم قال: «أنت لم تُجِب عن سؤالي، يا سيد جلاسديل.» وتابع: «هل يمكنك تقديم أيِّ معلومات؟»

ألقى جلاسديل على سائله نظرةً فاحصة.

وقال: «أيًّا كانت المعلومات التي قد أُقدِّمها، فسأقدِّمها فقط لشخصٍ مسئول — الشخص المسئول. مما رأيته وعرَفته من كل هذا، فالقضية تحمل في طيَّاتها أكثرَ مما هو ظاهر. وأستطيع أن أخبرك بشيء. لقد كنتُ أعرف جون برادن — الذي كان قبل ذلك، بالطبع، جون بريك — معرفةً جيدة جدًّا، لعدة سنوات. وبطبيعة الحال، كنت أعلم الكثيرَ من أسراره.»

سأله المحامي: «هل تقصد، ما هو أكثر من مسألةِ جواهرِ ساكسونستيد؟»

قال جلاسديل موافقًا: «ما هو أكثر من ذلك.» وتابع: «المسائل الخاصة. ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أنني أستطيع إلقاء بعض الضوء — أنا أقول بعض! — على قضية رايتشستر هذه. لكن، كما قلت الآن، سأتعامل فقط مع الشخص المسئول. ولن أُخبرك، على سبيل المثال — بصفتك محاميَ هذا الشخص.»

ابتسم المحامي مرةً أخرى.

وقال: «يبدو أن أفكارك، يا سيد جلاسديل، تتلاءم مع أفكار الشخص المسئول.» وتابع: «إذ إن تعليماته لنا — وهي تعليماتٌ صارمة — هي أنه إذا ظهر أيُّ شخص يمكنه تقديمُ أيِّ معلومات، فلا يجب تقديمها لنا، ولكن له — شخصيًّا!»

قال جلاسديل: «إنه رجل حكيم!» وأضاف: «هذا بالضبط ما أشعرُ به حيال ذلك. من الخطأ مشاركة الأسرار مع أكثرَ من شخص.»

سأل المحامي، بطريقةٍ شبه ماكرة: «هناك سرٌّ، إذن؟!»

أجاب جلاسديل: «ربما.» وأردف: «مَن موكلك؟»

سحب المحامي قصاصةً من الورق تجاهه وكتب عليها بضع كلمات. ثم قدَّمها لزائره، فالتقطها جلاسديل وقرأ ما كُتب: «السيد ستيفن فوليوت، كلوس.»

قال المحامي مقترحًا: «من الأفضل أن تذهب وتُقابله.» وتابع: «ستجده متحفظًا بعض الشيء.»

قرأ جلاسديل الاسم وأعاد قراءته — كما لو كان يُحاول تذكُّره، أو ربْطه بشيءٍ ما. وقال مستفسرًا: «ما سبب رغبة هذا الرجل في اكتشاف الأمر؟»

أجاب المحامي، مع ابتسامةٍ: «لا أعرف، يا سيدي!» وأردف: «ربما سيخبرك أنت. فهو لم يُخبرني.»

نهض جلاسديل كي يُغادر. لكنه استدار وهو يضع يده على الباب. وسأل: «هل هذا السيد من سكان هذا المكان؟»

أجاب المحامي: «إنه رجلٌ معروف في المدينة.» وتابع: «وستجد منزله بسهولة في كلوس — فالجميع يعرفه.»

غادر جلاسديل بعد ذلك — وسار ببطءٍ نحوَ حرم الكاتدرائية. وفي طريقه مرَّ بمكانَين كان يميل إلى زيارتهما — أحدهما مركز الشرطة، والآخر مكتب المحامين الذين ينوبون عن مقدم عرض الخَمسمائة جنيه. وقد نظر نحو مكتب المحامين وهمَّ بالدخول — ولكن بعد تفكيرٍ عدَلَ عن ذلك وسار إلى الأمام. ثم أشار له رجلٌ كان يسير عبر كلوس إلى منزل فوليوت، فدخله جلاسديل من باب الحديقة، وبعد دقيقة أخرى وجد نفسه وجهًا لوجه مع فوليوت الذي كان مشغولًا، كالعادة، بين أزهاره.

رأى جلاسديل فوليوت وقيَّمه قبل أن يلحَظ فوليوت أن شخصًا غريبًا قد دخل عبر بوابته. إن فوليوت، الذي كان يرتدي سُترةً قديمة احتفظ بها لعمله في البستنة، كان يأخذ شتلاتٍ من شُجيرة قياسية؛ وقد بدا مسالمًا وغيرَ مؤذٍ مثل عمله في بستنة الزهور. لقد

بدا رجلًا عجوزًا هادئًا، غيرَ مؤذٍ، لطيفًا نوعًا ما، مستغرِقًا في العمل، مما يوحي بالدَّعَة والسلام.

لكن جلاسديل، بعد نظرةٍ أولى سريعة وفاحصة، ألقى نظرةً أخرى أطول — واقترب أكثر وضحك ضحكةً مكتومة.

استدار فوليوت بهدوء، وعندما رأى الغريب، لم تبدُ عليه علاماتُ المفاجأة. كان معتادًا النظرَ نحو الناس من فوق الحواف العلوية لنظاراته، ونظر بهذه الطريقة إلى جلاسديل، وقد أخذ يتفحَّصه بهدوء من أعلى لأسفل. فرفع جلاسديل قبَّعته المتهدلة وتقدَّم.

وقال: «أنت السيد فوليوت، على ما أظن، يا سيدي، أليس كذلك؟» وأضاف: «السيد ستيفن فوليوت؟»

أجاب فوليوت: «أجل، إنه أنا!» وتابع: «لكنني لا أعرفك. فمن عساك أن تكون؟»

أجاب الآخر: «اسمي، يا سيدي، هو جلاسديل.» وأردف: «لقد جئتُ للتو من عند محاميك. لقد ذهبت لمقابلته بعد ظهر اليوم — وأخبرني أن الأمر الذي جئتُ من أجله يمكن التعامُل معه — أو مناقشته — معك أنت فقط. لذا جئتُ إلى هنا.»

أغلق فوليوت، الذي كان يقطع شتلاتٍ من شجيرةِ ورد، سكينَه ووضعه في سترته القديمة. ثم استدار وتفحَّص زائره بهدوءٍ مرةً أخرى.

وقال بهدوء: «أجل!» وتابع: «إذن أنت تسعى للحصول على مكافأة الألف جنيه، أليس كذلك؟»

أجاب جلاسديل: «لا ينبغي أن أعترض على ذلك يا سيد فوليوت.»

قال فوليوت، بغِلظة: «بالقطع لا.» وتابع: «بالقطع لا! ومِن أيِّ النوعَين أنت، إذن؟ مِن أولئك الذين يظنون أنهم يُمكنهم قولُ شيءٍ ما، أو ممن يمتلكون معلوماتٍ بالفعل؟ مَن تكون مِن بينهما؟»

أجاب جلاسديل، مرفقًا إجابتَه بنظرةٍ مباشرة: «ستعرف ذلك بنحوٍ أفضل عندما نتحدَّث قليلًا، يا سيد فوليوت.»

قال فوليوت: «أوه، حسنًا، ليس لدي الآن أيُّ اعتراض على التحدُّث قليلًا — لا يوجد أي اعتراض مطلقًا!» وأضاف: «هنا سنجلس على ذلك المقعد، بين الورود. الجلسة هنا خاصة تمامًا؛ لا أحد حولنا.» وتابع، بينما رافقه جلاسديل إلى مقعدٍ ريفي وُضع تحت تعريشةٍ من الورود المتسلقة: «والآن، مَن أنت، إذن؟ لقد قرأت مقالًا غريبًا في صحيفة

محلية هذا الصباحَ عما حدث في ساحة الكاتدرائية هناك الليلةَ الماضية، وذُكر فيه شخصٌ يحمل اسمك. فهل أنت ذلك الرجل جلاسديل المذكور فيه؟»

أجاب الزائر، على الفور: «إنه أنا، يا سيد فوليوت.»

سأله فوليوت: «إذن أنت تعرف برادن — الرجل الذي فقد حياته هنا؟»

أجاب جلاسديل: «أعرفه جيدًا بالفعل.»

سأل فوليوت: «كم كانت مدة معرفتك به؟»

قال جلاسديل: «عدَّة سنوات، كان مجرد أحد المعارف بالنسبة إليَّ، وكنتُ أراه بين الحين والآخر.» وأضاف: «ثم لبضع سنوات، لاحقًا، أصبح ما يمكن أن تُسمِّيَه صديقًا مقربًا لي.»

سأل فوليوت: «هل أخبرك بأيٍّ من أسراره؟»

أجاب جلاسديل: «أجل، أخبرني!»

سأل فوليوت: «هل مِن بينها أيُّ شيء يبدو ذا صلةٍ بموته — والغموض الذي يكتنف ذلك؟»

قال جلاسديل: «أعتقد ذلك.» وأردف: «بعد التدقيق في الأمر، أعتقد ذلك!»

تابع فوليوت: «آه — وماذا عساه أن يكون؟» ونظر إلى جلاسديل نظرةً بدا أنها تُشير ضِمنيًّا إلى عدة أشياء. ثم أضاف: «ربما من مصلحتك أن توضِّح قليلًا، كما تعلم.» وأردف: «على المرء ألا يكون غامضًا بشدة، أليس كذلك؟»

قال جلاسديل: «هناك رجلٌ معيَّن كان برادن حريصًا جدًّا على العثور عليه.» وتابع: «وقد ظل يبحث عنه سنواتٍ عديدة.»

سأل فوليوت: «رجل؟» وتابع: «واحد؟»

ردَّ جلاسديل: «حسنًا، في الواقع، هما رجلان، ولكنَّ واحدًا منهما على وجه الخصوص هو المهم. أما الآخر — الثاني — مثلما قال برادن، فغيرُ مهم؛ لقد كان، مجرَّد مَطيَّةٍ للرجل الذي يريده بنحوٍ خاص.»

قال فوليوت: «فهمتُ.» ثم أخرج علبةَ سيجار وقدَّم سيجارًا لزائره، وبعد ذلك أشعل سيجارًا لنفسه. وسأل: «ولماذا أراد برادن أن يعثر على هذا الرجل؟»

انتظر جلاسديل حتى أشعل سيجاره على نحوٍ جيد قبل أن يُجيب عن هذا السؤال. ثم أجاب بكلمة واحدة.

«الانتقام!»

وضع فوليوت إبهامَيه في فتحتَي ذِراعَي الصدرية الصفراء التي كان يرتديها وأسند ظهره، وبدا أنه يستمتع بمنظر وروده.

ثم قال في النهاية: «آه!» وتابع: «هل كان يرغب في الانتقام؟ إنه من نوع الرجال مُحبِّي الانتقام، أليس كذلك؟ لقد أراد قتلَ شخصٍ ما، أليس كذلك؟»

أجاب جلاسديل مع ضحكة قصيرة: «لقد أراد أن يُزيح عن كاهله عِبءَ الثأر من رجلٍ خدعه.» وأضاف: «هذا هو كل شيء!»

ظل الرجلان يُدخنان في صمتٍ مدةَ دقيقة أو دقيقتين. ثم طرح فوليوت — وهو لا يزال ينظر نحو وروده — سؤالًا مهمًّا.

حيث سأل: «هل أخبرك بأيِّ تفاصيل؟»

قال جلاسديل: «تفاصيل كافية.» وأردف: «لقد خُدع برادن — في معاملة مالية — من قِبَل هذين الرجلين — أحدهما على وجه الخصوص، هو الفاعل الرئيسي في القضية — وقد كلَّفه ذلك أكثرَ مما يعتقده أيُّ شخص! وبطبيعة الحال، أراد — إذا سنحَت له الفرصة — الانتقامَ منه. ومَن منَّا ما كان سيسعى لذلك؟»

سأل فوليوت: «وقد تعقَّبهم، أليس كذلك؟»

أجاب جلاسديل: «هناك أسئلة يمكنني الإجابةُ عنها، وأخرى لا يمكنني.» وأضاف: «وهذا أحدُ الأسئلة التي ليس لدي إجابةٌ عنها. إذ إنني لا أعرف! لكن أستطيع أن أقول ما يلي. إنه لم يكن يتتبَّعهم في اليوم السابق لمجيئه إلى رايتشستر!»

سأل فوليوت: «هل أنت متأكد من ذلك؟» وتابع: «ألم يأتِ إلى هنا من أجل هذا الغرض؟»

أجاب جلاسديل، على الفور: «كلا، أنا متأكد من أنه لم يفعل!» وأردف: «لو كان قد جاء لذلك، لكنتُ سأعرف. لقد كنتُ معه حتى ظهر اليوم الذي أتى فيه إلى هنا — في لندن — وعندما أخذ تذكرتَه في فيكتوريا إلى رايتشستر، لم يكن لديه أيُّ فكرة مطلقًا عن مكان الرجلَين. لقد ذكر ذلك عندما كنا نتناول الغداء معًا قبل أن يصعد إلى القطار. كلا — هو لم يأتِ إلى رايتشستر لأي غرضٍ من هذا القبيل! لكن ...»

توقَّفَ ونظر نحو فوليوت نظرةً معبِّرة من زاوية عينَيه.

سأل فوليوت: «أجل ... ماذا؟»

قال جلاسديل بهدوء: «أعتقد أنه التقى بأحدهما على الأقل هنا.» وأردف: «وربما بكِلَيهما.»

قال فوليوت: «وهل أدَّى ذلك إلى المصيبة التي تعرَّض لها؟»

قال جلاسديل موافقًا: «إذا كنتَ ترغبُ في صياغة الأمر على هذا النحو، أجل.»

دخَّن فوليوت بعضَ الوقت في صمتٍ أكثرَ تأملًا.

ثم قال في النهاية: «أجل، فهمت!» وتابع: «أعتقد أنك لم تُطلِع أيَّ شخص على هذه الأفكار، أليس كذلك؟»

سأل جلاسديل، بحدة: «هذه الأفكار؟» وأضاف: «أنا لم أُطلِع عليها أيَّ أحد! فهي لم تخطر لي — منذ مدةٍ طويلة.»

قال فوليوت: «أنت من النوع الذي يمكن لأي أحدٍ أن يعقد صفقةً معه، أليس كذلك؟» وتابع: «هذا، إذا كنتَ تجد الأمر يستحق، بالطبع؟»

أجاب جلاسديل: «بكل تأكيد.» وأردف: «وإذا كان الأمر يستحق.»

تأمَّل فوليوت قليلًا. ثم لمس مرفق جلاسديل.

وقال في سرِّية: «انظر قد يكون، كما تعلم، لديَّ غرضٌ بسيط خاص بي من تقديم تلك المكافأة. ربما لأنه كان من سوء حظ صديقٍ خاص لي أنه تسبَّب في ضغينةٍ لهذا الرجل برادن. وربما أرغب في إنقاذه، أتفهمني، مِن ... حسنًا، مِن عواقب ما حدث، وأريد أن أكون أولَ مَن يعرف المعلومات إذا تقدَّم بها أيُّ شخص، أفهمت؟»

قال جلاسديل: «مثلما فعلتُ.»

قال فوليوت موافقًا: «مثلما فعلتَ.» وتابع: «والآن، ربما سيصبح من مصلحة صديقي هذا إذا وجد أنك ترى أنَّ عدم نقلك هذه المعلومات لأيِّ شخص أمرٌ يستحق، أفهمت؟»

قال جلاسديل: «إنه أمرٌ يستحق بشدة، يا سيد فوليوت.»

تابع فوليوت: «أجل، حسنًا.» وتابع: «هذا الصديق بالذات يريد فقط أن يعرف، كما تعلم، مقدار ما تعرفه حقًّا! على سبيل المثال، عن هذين الرجلَين — وأحدهما على وجه الخصوص — ذلك الذي كان برادن يُلاحقه؟ هل ... هل ذكر لك اسمَيهما؟»

انحنى جلاسديل قليلًا بالقرب من رفيقه على المقعد المغطَّى بالورود.

وقال بصوتٍ هامس: «لقد ذكر لي اسمَيهما.» وأضاف: «أحدهما يُدعى فولكينر راي، والآخر يُدعى فلود. هل هذا كافٍ؟»

أجاب فوليوت: «أعتقد أنه من الأفضل أن تأتيَ لمقابلتي هذا المساء.» وأردف: وتابع، بينما ينهضان: «تعالَ عند الغسق إلى ذلك الباب وسألتقي بك هناك. إن ورودي هذه جميلة، أليس كذلك؟» وأضاف: «أنا أَشغَل نفسي بالكامل بها.»

ومن ثَم مشى مع جلاسديل إلى باب الحديقة، ووقف هناك يُشاهد زائره يبتعد عن جانب الجدار العالي حتى سلك المسار عبر بارادايس. وبعد ذلك، وبينما كان فوليوت يتراجع نحو وروده، رأى برايس يقترب عبر كلوس — وقد لوَّح برايس له.

الفصل الخامس والعشرون

بيت البئر العتيق

عندما جاء برايس مسرعًا إلى فوليوت، كان الأخيرُ يقف عند باب حديقته عاقدًا يدَيه خلفه تحت ذيل معطفه — في صورةٍ نمطية لرجلٍ نبيل لطيف لا عمل له، وليس لديه ما يفعله وهو مستعدٌّ لتخصيص وقته لأيِّ شخص. ومن ثَم ألقى نظرةً على برايس مثلما كان قد ألقى نظرةً على جلاسديل — من فوق حافة نظارته، ولم تحمل النظرةُ سوى استفسارٍ بسيط. ولكن لو كان برايس أقلَّ انفعالًا، لكان قد رأى أن فوليوت، بينما كان يصطحبه إلى داخل الحديقة، قد ألقى نظرةً حادة عبر كلوس وتأكَّد من عدم وجود أيِّ شخص على مقربة، وأن دخول برايس لم يلحظه أحد. إذ باستثناء طفلٍ أو طفلين، يلعبان تحت أشجار الدردار الطويلة بالقرب من إحدى البوابات، وقسٍّ يسير عبر مسار بعيد، فإن كلوس كانت خاليةً من الحياة. كما لم يكن هناك أحدٌ أيضًا في ذلك الجزء من حديقة فوليوت الكبيرة.

قال برايس بينما كان يُغلق فوليوت الباب وينتحي مسارًا جانبيًّا إلى منطقةٍ أكثرَ انعزالًا: «أريد أن أتحدَّث معك قليلًا.» وتابع: «حديث خاص. دعنا نذهب إلى بقعة هادئة.»

دون الردِّ بكلماتٍ على هذا الاقتراح، قاده فوليوت عبر أشجارِ وروده إلى ركنٍ بعيد من حديقته، حيث يقبع مبنًى عتيقٌ من الحجر الرمادي، مغطًّى باللبلاب، بين الأشجار العالية. ومن ثَم أدار مفتاح الباب وأشار لبرايس بالدخول.

وقال: «إن المكان هادئٌ بما فيه الكفاية هنا، يا دكتور.» وأردف: «أنت لم ترَ هذا المكان من قبلُ — إنه بقعتي المفضلة.»

نظر برايس، وهو مستغرقٌ في أفكاره الحاليَّة، بفضولٍ إلى المكان الذي قاده إليه فوليوت. كان مبنًى مربعَ الشكل من الحجر العتيق، جدرانه غيرُ مبطَّنة وغير مغطَّاة بالجبس، وأرضيَّته مرصوفةٌ ببلاطات متآكلة من الحجر الجيري، ومن الواضح أنها

رُصفت منذ زمن طويل وهي الآن مصقولةٌ بحيث أصبحت لها نعومةٌ تُشبه نعومة الرخام. وفي وسطه، على نفس مستوى الأرضية، يوجد على ما يبدو بابٌ أفقي، مزوَّد بحَلْقة حديدية ثقيلة. وأشار فوليوت إلى هذا، بنظرةٍ ذات اهتمام كبير.

وقال: «توجد أعمق بئر في كل رايتشستر تحتَ هذا الباب.» وتابع: «لن تتصوَّرَ ذلك قط؛ إن عُمقها مائة قدم، وأكثر! وهي جافَّةٌ الآن — لقد نَفِد الماءُ منذ بضع سنوات. كان بعض الناس سيهدمون بيت البئر العتيق هذه — لكن ليس أنا! لقد استفدتُ منها بنحو أفضل — فقد حولتُها إلى مكان جيد.» ورفع يده وأشار إلى سقفٍ حديث بنحو واضح من خشب البلوط القوي. ثم تابع: «لقد وضعتُ هذا السقف، وحوَّلت الجزء العلوي من المبنى إلى مقر استرخاء صغير. تعالَ للأعلى!»

ومن ثم قاده عبر مجموعةٍ من الدرجات في أحدِ أركان الغرفة السفلية، وفتح بابًا في نهايتها، وأظهر لرفيقه غرفةً صغيرة مرتَّبة ومفروشة على نحوٍ يقترب من الفخامة. كانت الجدران مغطاةً بأقمشةٍ سميكة؛ وكان السجاد سميكًا بالقدْر نفسِه، وكانت هناك صورٌ وكتُب وتحف، وكان الكرسيَّان أو الثلاثةُ الكراسيُّ الموجودة هناك عميقةً وكبيرةً بما يكفي للاسترخاء، وكانت هناك نافذتان تُطلَّان على إطلالاتٍ رائعة لأبراج الكاتدرائية من جانب وكلوس من الجانب الآخر.

قال فوليوت: «إنه مكان صغيرٌ لطيف لأجلس فيه بمفردي، أليس كذلك؟» وتابع: «وهو باردٌ في الصيف ودافئٌ في الشتاء، وبه حاملةُ وَقودٍ حديثةٌ، كما تلاحظ. وأنا أصعد إلى هنا عندما أريد القيامَ ببعض التفكير الهادئ، ما رأيك؟»

قال برايس موافقًا: «مكان جيدٌ ملائم لذلك — بالتأكيد.»

دعا فوليوت زائره إلى الجلوس على أحد الكراسيِّ الكبيرة، والتفت إلى خِزانةٍ وأحضر بعضَ الكئوس وسيفونَ ماء الصودا ودورقًا بلوريًّا سميكًا. وأشار برأسه إلى صندوقٍ من السيجار كان مفتوحًا على طاولةٍ عند مرفق برايس عندما بدأ في خلط بعض المشروبات.

وقال: «تفضَّل سيجارًا.» وتابع: «إنه من نوعية جيدة.»

لم يستفسر فوليوت عن السبب وراء زيارة برايس إلا بعد أن قدَّم له شرابًا، وحمل كأسه وجلس على كرسيٍّ مريح آخَر. ولكن بمجرد أن استقرَّ على كرسيِّه، نظر إليه على نحوٍ يُشير أنه يُخمن ما كان يريده برايس.

وسأله: «لماذا أردت مقابلتي؟»

نظر برايس عبر دخان سيجاره الذي أشعله إلى الوجه الهادئ المقابل له.

وقال بهدوء: «لقد استقبلت جلاسديل للتو هنا.» وأضاف: «لقد رأيته وهو يُغادر.»

أومأ فوليوت برأسه — دون أيِّ تغييرٍ في تعبير وجهه.

وقال: «أجل، يا دكتور.» وأردف: «وماذا تعرف عن جلاسديل؟»

رفع برايس، الذي كان سيختلطُ بمرحٍ مع رجلٍ هو على وشك توصيله إلى المشنقة، كأسَه وشرب.

ثم أجاب وهو يضع الكأس: «الكثير.» وتابع: «الحقيقة هي أنني جئت إلى هنا لأُخبرك بذلك — فأنا أعرف الكثير عن كل شيء.»

قال فوليوت ملاحظًا: «هذا مصطلحٌ واسع!» وأضاف: «لا بد أنَّ لديك بعضَ التحديد له، على ما أظن. ماذا تقصد بكل شيء؟»

أجاب برايس: «أعني الأمورَ الأخيرة.» وأردف: «لقد شغَلتُ نفسي بها — لأسبابٍ خاصة بي. منذ أن عُثر على برادن عند سفحِ تلك السلالم في بارادايس، وأُحضرتُ لفحصه، وأنا أَشغل نفسي بالتحقيق في الأمر. ولقد اكتشفتُ الكثير — أكثر، أكثر بكثيرٍ مما يعرفه أيُّ شخص.»

وضع فوليوت إحدى رِجلَيه فوق الأخرى وبدأ في هزِّ قدمه.

ثم قال بعد مدةٍ من الصمت: «أوه!» وأضاف: «يا إلهي! وما الذي قد تعرفه، الآن، يا دكتور؟ وهل يُمكنك إخباري به؟»

أجاب برايس: «الكثير!» وتابع: «وقد جئتُ لأُخبرك به — عندما رأيت أن جلاسديل كان معك. لأنني قابلت جلاسديل هذا الصباح.»

لم يردَّ فوليوت. لكن برايس رأى أن أسلوبه اللطيف وغيرَ المبالي تقريبًا كان يتغيَّر — لقد بدأ، داخليًّا، في الشعور بالقلق.

فتابع برايس قائلًا: «عندما تركتُ جلاسديل، عند الظهيرة، لم يكن لديَّ أيُّ فكرة — وأعتقد أنه لم يكن لديه — أنه سيأتي لمقابلتك. لكنني أعرف ما الذي وضَع الفكرة في رأسه. فقد أعطيتُه نسخةً من منشورَي المكافأة هذَين. لا شك أنه كان يعتقد أنه ربما سيكسِب بعض المال؛ لذا جاء إلى المدينة، وإليك.»

سأل فوليوت: «ماذا إذن؟»

قال برايس، بتأمُّل، وكما لو كان يتحدَّث إلى نفسِه: «لا ينبغي أن أتساءل.» وتابع: «لا ينبغي أن أتساءل على الإطلاق عمَّا إذا كان جلاسديل من النوع الذي يمكن شراؤه. إنه، بلا شك، له ثمن. لكنَّ كلَّ ما يعرفه جلاسديل ليس شيئًا — بالمقارنة بما أعرفه أنا.»

دخَّن فوليوت كلَّ سيجاره. فألقى به بعيدًا، وأخذ واحدًا جديدًا من الصندوق، وببطءٍ ضربَ عود ثقاب وأشعله.

ثم سأل بعد مدةِ صمتٍ أخرى: «ماذا تعرف؟»

أجاب برايس بجُرأة: «إن لديَّ بعضَ المهارة في اكتشاف الأشياء.» وأضاف: «ولقد عملتُ على تطويرها. ومن ثَم أردت أن أعرف كلَّ شيء عن برادن — وعمَّن قتله — ولماذا. هناك طريقة واحدة فقط للقيام بهذا الأمر، كما تَعلم. عليك أن تعود للوراء — للوراء كثيرًا — إلى البدايات الأولى. وقد عُدتُ إلى الوقت الذي كان فيه برادن متزوجًا. ليس باسم برادن، بالطبع، ولكن باسمه الحقيقي — جون بريك. كان ذلك في مكانٍ يُسمى برادن ميدوورث، بالقرب من بارثورب، في ليسترشير.»

ثم توقَّف عند هذه النقطة، وأخذ يُراقب فوليوت. لكن فوليوت لم يُظهِر أكثرَ من اهتمامٍ شديد، فتابع برايس كلامه.

وقال: «ليس هناك الكثيرُ في ذلك — مقارنة بالجزء المهم حقًّا من القصة.» وأردف: «لكن بريك كانت لديه ارتباطاتٌ أخرى مع بارثورب — بعد ذلك بقليل. لقد تعرَّف على رجلٍ من بارثورب وصار على اتصالٍ وثيق به، كان قد غادر بارثورب واستقرَّ في لندن، في وقتٍ قريب من وقت زواج بريك. وأصبح لدى بريك وهذا الرجلِ بعضُ التعاملات السرِّية معًا. كان هناك رجلٌ آخر معهما أيضًا — رجل كان على نحوٍ ما شريكًا لرجلِ بارثورب. من الواضح أن بريك كان يؤمن بهذَين الرجلَين، ووثق بهما — ولسوء الحظ، كان يُقرِضهما أحيانًا من أموال البنك. وأنا أعرف ما حدث — فقد اعتاد السماحَ لهما بالحصول على أموالٍ من أجل بعض المعاملات المالية القصيرة — بحيث تُرَد في غضونِ مدةٍ وجيزة جدًّا. وقد غامر باللعب بالنار كثيرًا، فأحرقَ أصابعه في النهاية. لقد خدعه الرجلان — أحدُهما على وجه الخصوص — وهرَبا. وكان عليه أن يدفع الثمَن. لقد تحمَّل نتيجةَ ذلك، وسُجن لمدة عشر سنوات مع الأشغال الشاقة. وبطبيعة الحال، عندما قضى مدة عقوبته، أراد العثور على هذين الرجلَين — وبدأ بحثًا طويلًا عنهما. هل ترغب في معرفة اسمَي الرجلين، يا سيد فوليوت؟»

أجاب فوليوت: «اذكرهما — إذا كنتَ تعرفهما.»

أجاب برايس على الفور: «اسم الشخص الأساسي هو راي — فولكينر راي.» وأردف: «واسم الآخر — الرجل الأقلُّ أهميةً — فلود.»

نظر الرجلان أحدهما إلى الآخر بهدوءٍ لمدة دقيقة في صمت. وكان برايس هو أوَّل مَن تحدَّث مع نبرةٍ من الثقة في صوته أظهرت أنه يتحكَّم في زِمام الأمور.

وسأل: «هل أُخبرك شيئًا عن فولكينر راي؟» وتابع: «سأفعل؛ إنه أمرٌ ممتعٌ للغاية. لقد هرب السيد فولكينر راي، بعد غشٍّ وخداعِ بريك، وتركه ليُواجه عقوبةَ الثقة الزائدة في الآخرين، خارج إنجلترا وحمل معه مواهبه في جني الأموال إلى دولٍ أجنبية. ونجح في القيام بعملٍ جيد — لقد كان سيفعل! — وفي النهاية عاد وتزوَّج من أرملةٍ غنيَّة واستقر في مدينةٍ إنجليزية نائية؛ كي يزرع الورود. أنت فولكينر راي، كما تعلم، يا سيد فوليوت!»

ضحِك برايس وهو يُوجِّه هذا الاتهامَ المباشر، وأشار، وهو يدفع جسدَه للأمام بينما يجلس على كرسيِّه، أولًا إلى وجه فوليوت ثم إلى يده اليسرى.

وقال: «لقد تعرَّض فولكينر راي لحادثِ إطلاق نار مؤسفٍ في شبابه تركَ علامةً على وجهه ويدِه مدى الحياة. حيث فقد الإصبع الوُسطى من يده اليسرى، وظهرت نَدبةٌ سيئة على فكِّه الأيسر. ها هما هاتان العلامتان! من حُسن حظك، يا سيد فوليوت، أن رجال الشرطة لا يعرفون كلَّ ما أعرفه؛ لأنهم لو عرَفوا ذلك، لكانت هاتان العلامتان قد أرشدَتهم إليك منذ أيام!» لمدة دقيقة أو دقيقتين، جلس فوليوت وهو يهزُّ ساقه — وهي إشارةٌ سيئة تدل على تعكُّرِ مِزاجه، لكن برايس لم يكن على علمٍ بذلك. وبينما ظل صامتًا، أخذ يُراقب برايس بدقَّة، وعندما تحدَّث، كان صوته هادئًا مثلما هو دائمًا.

وسأل، بلهجةٍ شبهِ ساخرة: «وما الفائدة التي تنوي أن تجنيَها من خلال معرفتك هذه، إذا جاز لأحدٍ أن يسأل؟» وأضاف: «لقد قلت الآن إنك لا تشكُّ في أنه يمكن شراءُ رجلٍ مثل جلاسديل، وأنا أميل إلى الاعتقاد بأنك أحد هؤلاء الرجال الذين يمكن شراؤهم أيضًا. فكم سعرك؟»

أجاب برايس: «نحن لم نصل إلى ذلك بعدُ.» وأضاف: «أنت مخطئٌ بعضَ الشيء. إذا كان لي سعر، فلن يُصبح على النحوِ نفسِه الذي يريده جلاسديل. لكن قبل أن نتحدَّثَ عن هذا النوع من الأشياء، أريد أن أضيف إلى مخزوني من المعلومات. انظر هنا! سنكون صريحَين. أنا لا يُهمني مطلقًا موتُ بريك، أو برادن، أو موت كوليشو، ولا إذا كان أحدهما قد كُسِرت رقبته وسُمِّم الآخر، لكنْ يدُ مَن كانت تلك التي رآها عاملُ البناء، فارنر، في ذلك الصباح، عندما أُلقي بريك من ذلك المدخل؟ هيا، أخبرني — يدُ مَن؟»

أجاب فوليوت، بثقة: «ليسَت يدي، يا ولدي!» وأردف: «هل هذه حقيقة؟»

تردَّد برايس، ونظر إلى فوليوت نظرةً فاحصة. فأومأ فوليوت برأسه بجدِّية. وكرَّر: «أنا أقول لك إنها ليسَت يدي!» وتابع: «لا علاقة لي بالأمر!»

سأل برايس في حدَّة: «إذن مَن فعلها؟» وأضاف: «هل كان الرجل الآخَر — فلود؟ وإذا كان الأمر كذلك، فمَن هو فلود؟»

نهض فوليوت من كرسيِّه، وسار، وسيجارُه بين شفتَيه، ويداه تحت ذيلِ معطفه القديم، في صمتٍ في الغرفة الهادئة لبعض الوقت. من الواضح أنه كان يُفكِّر بعمق، ولم يَقُم برايس بأيِّ محاولة لإزعاجه. ومرَّت بضع دقائق قبل أن يلتقطَ فوليوت السيجار من بين شفتَيه ويتكئَ على المدفأة وينظرَ بثبات إلى زائره.

وقال بجدِّية: «انظر هنا، يا ولدي!» وتابع: «أنت بلا شك، كما تقول، بارعٌ في اكتشاف الأشياء، ولا شك أنك قمتَ بعملٍ جيد في التحرِّي، وقد فعلتَ ذلك بشكلٍ جيد بما فيه الكفاية في رأيك الخاص. لكنْ هناك شيءٌ واحد لا يمكنك اكتشافه، ولا تستطيع الشرطةُ اكتشافه أيضًا، وهو الحقيقة الدقيقة حول وفاة برادن. فأنا لم يكن لي يدٌ في ذلك — لا يمكن أن أُتهَم بقتله، على أي حال.»

نظر برايس إليه وقاطعه بسؤالٍ قصير.

«وماذا عن كوليشو؟»

أجاب فوليوت، بسرعة: «ولا هذا، أيضًا.» وأردف: «ربما أعرف شيئًا عن كِلَيهما، لكن لا أنت ولا الشرطة ولا أي شخص يمكن أن يتهمني بقتلِ أيٍّ منهما! وبافتراضِ أن كلَّ ما تقوله صحيحٌ، أين الحقيقة المؤكَّدة؟»

سأل برايس: «ماذا عن الأدلة الظرفية؟»

رد فوليوت بحدَّة: «إن مهمتك أن تجدَها.» وتابع: «لنفترض أن كلَّ ما تقوله صحيح عن … عن أمورٍ وقعَت في الماضي. لكن لا شيء يمكن أن يُثبِت — لا شيء — أنني قابلتُ برادن في ذلك الصباح. ومن ناحية أخرى، يمكنني أن أُثبِت، بسهولة، أنني لم أقابله قط؛ يمكنني إثبات مكان وجودي في كلِّ دقيقة من وقتي في ذلك اليوم. أما بالنسبة إلى الجريمة الأخرى، فليس هناك ذرةٌ من دليلٍ مباشر ضدي!»

صاح برايس متعجبًا: «إذن ارتكبها الرجلُ الآخر!» وأضاف: «الآن إذن، مَن هو؟»

رد فوليوت مع نظرةٍ ماكرة.

وقال: «إن الرجل الذي يفضحُ نفسه من خلال الكشف عن رجلٍ آخر يُصبح أحمقَ ملعونًا!» وأردف: «إذا كان هناك رجل آخر …»

قاطعه برايس: «مثلما هو موجودٌ بالفعل!»

قال فوليوت بحسم: «إذن فهو بأمان!» وتابع: «ولن تحصلَ على معلومةٍ مني عنه!»

سأل برايس: «ولا أحد يستطيع الوصولَ إليك إلا من خلاله، أليس كذلك؟»

قال فوليوت بنحوٍ مقتضب: «هذا كل شيء عن هذا الأمر.»

ضحِك برايس بسخرية.

وقال بنبرةٍ ساخرة: «مشكلة لطيفة!» وأضاف: «والآن، انظر! لقد تحدَّثتَ عن سعري. وأنا على استعدادٍ تامٍّ لعدم إخبار أحدٍ بهذا الأمر إذا أخبرتَني شيئًا عما حدث قبل سبعة عشر عامًا.»

سأله فوليوت: «ماذا؟»

قال برايس: «لقد كنتَ تعرفُ بريك، ولا بد أنك تعرف شئون عائلته.» وأردف: «ماذا حلَّ بزوجة بريك وطِفلَيه عندما ذهب إلى السجن؟»

هزَّ فوليوت رأسه، وكان من الواضح لبرايس أنَّ نفيه كان حقيقيًّا.

وأجاب: «أنت مخطئ.» وأردف: «لم أعرف قطُّ في أيِّ وقت أيَّ شيء عن شئون بريك العائلية. كنت أعرف القليل جدًّا بالفعل، لدرجةِ أنني لم أعرف قط أنه متزوج.»

نهض برايس واقفًا على قدمَيه وأخذ يحدِّق.

وصاح متعجبًا: «ماذا!» وأضاف: «أنت تقصد أن تُخبرني بأنك، حتى الآن، لا تعرف أن بريك كان لديه طفلان، وأن ... وأن ... أوه، إنه أمرٌ لا يُصدق!»

سأله فوليوت: «ما الذي لا يُصدَّق؟» وتابع: «عمَّ تتحدَّث؟»

أمسك برايس وسط انفعاله ودهشته بذراعِ فوليوت وهزَّها.

وقال: «عجبًا، يا رجل!» وتابع: «إنَّ هذَين الربيبَين اللذين تحت وصاية رانسفورد هما ابنة وابن بريك! ألم تكن تعرف ذلك، ألم تكن؟»

أجاب فوليوت: «مطلقًا!» وأضاف: «مطلقًا! ومَن يكون رانسفورد، إذن؟ فأنا لم أسمع قط بريك يتحدَّث عن أيِّ شخصٍ يُدعى رانسفورد! ما الخدعة التي أتعرَّض لها؟ ما ...»

قبل أن يتمكنَ برايس من الرد، انتفض فوليوت فجأةً، ودفع رفيقه جانبًا وذهب إلى إحدى النافذتَين. وجعلت صيحةُ تعجُّبٍ حادةٌ منه برايس يذهب ليقف بجواره. فرفع فوليوت يدًا مرتجفة وأشار بها نحو الحديقة.

وقال في همس: «هناك!» وأضاف: «اللعنة و... ماذا يعني هذا؟»

نظر برايس نحو الاتجاهِ المُشار إليه. حيث خلف تعريشة الورود المتسلقة كان بعضُ الرجال يتَّجهون نحو بيت البئر العتيق، يقودهم أحدُ بستانيِّي فوليوت. وفجأةً أصبحوا على مقربة، حيث يتقدَّمهم ميتشينجتون وخلفه بقليل المحقق، وخلفه جلاسديل!

الفصل السادس والعشرون

الرجل الآخر

كانت الساعة قد اقتربَت من الخامسة عندما التفَّ جلاسديل، بعد أن ترك فوليوت عند باب حديقته، حول الزاوية إلى داخل هدوء محيط الكاتدرائية. وتجوَّل هناك مدَّة من الوقت، وقد أخذ يُحدِّق في المنازل القديمة الغريبة بعينَين لم ترَيا الجملونات الرائعة ولا المداخن الملتوية. إذ كان جلاسديل يُفكِّر. وكانت نتيجةُ تأملاته أنه استبدل فجأةً بمِشيته المتأنية خطواتٍ أكثرَ رشاقة وسار بثباتٍ نحو مركز الشرطة، حيث طلب مقابلة ميتشينجتون.

كان ميتشينجتون والمحقِّق على وشك السير إلى محطة السكة الحديد لمقابلة رانسفورد، وذلك وفقًا لبرقيته. وعند رؤية جلاسديل عادا إلى مكتب المفتِّش. فأغلق جلاسديل الباب ومنحهما ابتسامةً ماكرة.

وقال: «لديَّ معلومةٌ أخرى لك أيها المفتش!» وأضاف: «إنها ذاتُ صلةٍ قليلة بقضية الليلة الماضية. بالنسبة إلى قضيتَي برادن وكوليشو الغامضتَين، يمكنني أن أُخبركما بتورُّط رجلٍ معيَّن فيهما.»

سأل ميتشينجتون: «مَن يكون إذن؟»

اقترب جلاسديل خطوةً من الضابطَين وخفض صوته.

وأجاب: «الرجل المعروف هنا باسم ستيفن فوليوت.» وأردف: «هذه حقيقة!»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «هُراء!» ثم ضحك بنحوٍ يشير إلى عدم التصديق. وتابع: «هذا لا يمكن تصديقه! السيد فوليوت! لا بد أن هناك خطأً ما!»

أجاب جلاسديل: «لا يوجد خطأ.» وأردف: «وعلاوةً على ذلك، إن اسم فوليوت هو اسمٌ مستعار فقط. هذا الرجل في الحقيقة هو فولكينر راي، الرجل الذي كان برادن، أو بريك، يبحث عنه لسنوات عديدة، الرجل الذي خدع بريك وأوقعَه في المشاكل. أؤكِّد لكما أن هذا حقيقة! لقد اعترف، أو شبه اعترف، بذلك لي الآن.»

صاح ميتشينجتون متعجبًا: «هل اعترف لك؟ وتركك تخرج وتنشر الأمر؟» وأضاف: «هذا غيرُ معقول — إنه مدهش أكثرَ من كلامك الآخر!»

ضحك جلاسديل.

وقال: «آه، لكنني جعلته يعتقدُ أنه يمكن شرائي، هل فهمت؟» وتابع: «رِشْوة كي أصمت، كما تعلم. إنَّ لديه انطباعًا بأنني سأعود إليه هذا المساء لتسوية الأمور. أنا أعرفُ الكثير جدًّا — وقد تعرَّفت عليه، في واقع الأمر — لدرجةِ أنه لم يكن لديه خيار. أؤكِّد لكما أنه متورِّط في كِلتا القضيتَين — بكل تأكيد! لكنَّ هناك رجلًا آخر.»

سأل ميتشينجتون: «مَن هو؟»

أجاب جلاسديل: «لا يمكنني القول؛ لأنني لا أعرف، على الرغم من أنني أعرف أنه رجلٌ كان بريك يريد العثورَ عليه أيضًا.» وأضاف: «لكن على أي حال، أنا أعرف ما أتحدَّث عنه عندما أخبركما عن فوليوت. من الأفضل أن تفعلا شيئًا قبل أن يشك فيَّ.»

نظر ميتشينجتون إلى الساعة.

وقال: «تعالَ معنا إلى المحطة.» وأردف: «فدكتور رانسفورد قادمٌ على متن القطار السريع من لندن، ومعه أخبارٌ لنا. من الأفضل أن نسمعَها أولًا. فوليوت! يا إلهي — مَن كان سيُصدق هذا أو حتى يحلم به!»

قال جلاسديل أثناء خروجهم: «سترى.»

«ربما حصل دكتور رانسفورد على المعلومات نفسِها.» نزل رانسفورد من القطار فور توقُّفِه في المحطة، وهُرِع إلى حيث كان ميتشينجتون ورفيقاه يقفون. وخلفه، ولدهشة ميتشينجتون، جاء العجوز سيمبسون هاركر، الذي من الواضح أنه سافر معه. وبإشارة صامتة، دعا ميتشينجتون المجموعةَ بأكملها إلى غرفةِ انتظارٍ فارغة وأغلقَ بابها عليهم.

ومِن ثَم قال رانسفورد دون مقدمةٍ أو رسميات: «والآن إذن، أيها المفتش، عليك أن تتصرَّف بسرعة! لقد وصلَتك برقيتي — وبضع كلمات سوف تفسِّرها. لقد ذهبت إلى لندن هذا الصباح ردًّا على رسالةٍ من البنك الذي أودع برادن أموالَه فيه عندما عاد إلى إنجلترا. ولأقولَ لك الحقيقة، لقد أنهَينا أنا والمديرون هناك التحقيقَ الذي بدأته نيابةً عن برادن — على الرغم من أنه لم يكن على علمٍ بذلك — قبل سنوات، الذي كان على وشك الانتهاء بعد موت برادن. وقد التقيتُ في البنك بالسيد هاركر، الذي ذهب ليبحثَ عن بعض المعلومات لنفسه. والآن سوف أُلخص الأمورَ بإيجاز؛ لسنوات، كان برادن، أو بريك، يريد العثورَ على رجلَين خدَعاه. اسم أحدهما راي، والآخر فلود. وقد كنتُ أحاول تتبُّعَهما، أيضًا. وفي

النهاية أوقَعْنا بهما. إنهما يعيشان في هذه المدينة، ولا شك أنهما متورِّطان في قتل كلٍّ من برادن وكوليشو! وأنت تعرف كِلَيهما جيدًا بما فيه الكفاية. إن راي هو ...»

قاطعه ميتشينجتون، مشيرًا إلى جلاسديل: «السيد فوليوت!» وأضاف: «لقد أخبرَنا بهذا للتو؛ إذ تعرَّف عليه على أنه راي. لكن الآخر، مَن هو، يا دكتور؟»

نظر رانسفورد إلى جلاسديل كما لو كان يرغب في سؤاله، لكنه بدلًا من ذلك أجاب عن سؤال ميتشينجتون.

وقال: «الرجل الآخر، فلود، هو أيضًا رجلٌ معروف لديك. إنه فلادجيت!»

جفل ميتشينجتون، وكان من الواضح أنه اندهشَ لسماع هذا أكثرَ من الخبر الأول. وصاح متعجبًا: «ماذا!» وتابع: «خادم الكاتدرائية! لا تقُل هذا!»

تابع رانسفورد قائلًا: «هل تتذكَّر أن فوليوت هو مَن سعى لتعيين فلادجيت خادمًا في الكاتدرائية بعد وقتٍ ليس بطويل من قدومه هو نفسه إلى هنا؟ لقد فعل هذا، على أيِّ حال، وفلادجيت هو فلود. لقد تتبعنا كلَّ شيء من خلال فلود. إذ كان راي رجلًا يصعب تتبعُه، بسبب إقامته في الخارج مدةً طويلة وتغييرِ اسمه، وما إلى ذلك، ولم يعثر وكلائي على خيطٍ لتتبع راي عبر فلود إلا مؤخرًا. لكن هذه هي الحقيقة. ومن المحتمل أنه عندما جاء برادن إلى هنا تعرَّف على هذين الشخصَين وتعرَّفا هما أيضًا عليه، وأن أحدهما أو الآخر مسئول عن موته وعن موت كوليشو أيضًا. إنها أدلة ظرفية، كلُّها، بلا شك، لكنها دامغة! والآن، ماذا تنوي أن تفعل؟»

فكَّر ميتشينجتون في الأمور لحظةً.

وقال: «فلادجيت أولًا، بالتأكيد.» وتابع: «إنه يعيش بالقرب من هنا، سنذهب إلى كوخه. إذا أدرك أنه محاصَر، فقد يعترف. لنذهب إلى هناك في الحال.»

ومن ثَم قاد المجموعةَ بأكملها خارج المحطة وعبرَ الشارع الرئيسي حتى وصلوا إلى حارةٍ ضيقة من المنازل الصغيرة التي تمتدُّ حتى كلوس. وعند مدخلها كان يسير شرطيٌّ خلال دوريته. فتوقَّف ميتشينجتون ليتبادلَ بعض الكلمات معه.

وقال، وهو ينضم إلى الآخرين: «إن هذا الرجل فلادجيت، يعيش بمفرده — في الكوخ الخامس هنا. أظن أنه على وشك تناول الشاي، سنأخذه على حين غِرَّة.» وسرعان ما وقفَت المجموعة حول بابٍ طرقَه ميتشينجتون برفقٍ، فأطلَّ على وجوههم المتجهمة والمنتبهة رجلٌ طويل، حليق الذقن، تبدو عليه بشدةٍ أماراتُ الجدِّية وأخذ يُحدِّق بهم في دهشةٍ بعد أن فتح الباب، وجفل متراجعًا للخلف. وقد شحب وجهُه بشدة وسقطت يده مرتجفةً من على المزلاج بينما سار ميتشينجتون إلى الداخل وتكدَّست البقية خلفه.

قال ميتشينجتون، وهو يدخل في الموضوعِ مباشرةً ويُراقب الرجل بدقة، بينما اقترب منه المحققُ عن كثب من الجانب الآخر: «الآن إذن، يا فلادجيت!» وأضاف: «أريد أن أتحدَّث معك في الحال. إن اسمك الحقيقي هو فلود! ما ردُّك على ذلك؟ ولا فائدة من الإنكار — ماذا لديك لتقوله عن قضيةِ برادن هذه، ومشاركتك مع فوليوت فيها، الذي اسمه الحقيقي هو راي. لقد عرَفنا كل شيء عنكما. إذا كان لديك أيُّ شيء لتقوله، فمن الأفضل أن تقوله.»

نظر خادم الكاتدرائية، الذي كانت عباءته السوداءُ ملقاةً على ظهر كرسي، من وجهٍ إلى آخرَ بعينين خائفتَين. كان من الواضح جدًّا أن مفاجأةَ المداهمة قد أزعجته تمامًا. ورأت عينا رانسفورد المتمرسةُ أنه على وشك الانهيار.

فقال: «امنَحْه بعض الوقت يا ميتشينجتون.» ثم أضاف، وهو يلتفت إلى الرجل: «تمالَكْ نفسك.» وتابع: «لا تَخف؛ أجب عن هذه الأسئلة!»

قال الرجل: «بالله عليكم، أيها السادة!» وأردف: «ما ... ما الأمر؟ عن ماذا أُجيب؟ أقسم بالله، أنا بريء مثل ... مثل أيٍّ منكم من موت السيد بريك! أُقسم بالله وشرفي أنا بريء!»

رد ميتشينجتون: «أنت تعرف كلَّ شيء عن الأمر.»

«أجِب، الآن، أليس صحيحًا أنك فلود، وأن فوليوت هو راي، وأنكما الرجلان اللذان أدَّت خدعتهما إلى دخول بريك السجنَ منذ سنوات؟ أجب عن ذلك!»

أخذ فلود ينظر من جانبٍ إلى آخر. كان يتَّكئ على مِنضدة الشاي الخاصةِ به الموجودة في وسط غرفة معيشته المرتَّبة. من الموقد أرسلَت غلايته صوتًا لطيفًا بدا مُناقضًا بغرابةٍ مع الموقف الكئيب.

ثم قال في النهاية: «أجل، هذا صحيح.» وأردف: «لكن في تلك القضية — أنا ... أنا لم أكن المسئولَ. لقد كنت فقط — فقط وكيل راي، إن جاز التعبير: لم أكن مسئولًا. وعندما جاء السيد بريك إلى هنا، عندما قابلته ذلك الصباح ...»

ثم صمت، وهو لا يزال ينظر من شخصٍ إلى آخر من الحاضرين كما لو كان يستجدي تصديقهم.

واندفع قائلًا فجأةً: «بكل تأكيد، أيها السادة! أنا لم أتعمَّد قتل السيد بريك! سأُخبركم بالحقيقة الفعلية، سوف أُقسم اليمينَ على ذلك وقتما تشاءون. كنتُ سأصبح ممتنًّا لقولها، مراتٍ عديدة، لولا ... لولا راي. هو لم يسمح لي في البداية بذلك، وبعد ذلك أصبح الأمر

معقَّدًا. لقد كان الأمر على هذا النحو. في ذلك الصباح، عندما عُثر على السيد بريك ميتًا، تصادف أن صعدتُ إلى تلك المقصورة الموجودة تحت نوافذ الإضاءة العلوية. وفجأةً قابلتُه وجهًا لوجه. وقد عرَفني. إنني أقول لكم الحقيقة الفعلية، المطلقة، أيها السادة! — بمجرد أن عرَفني هاجمني وأمسكَ بي من ذراعي. لم أعرفه في البداية، لكني عرَفتُه عندما أمسك بي. حاولت التخلصَ من قبضته وحاولتُ تهدئته؛ لكنه قاوم — أنا لا أعرف ماذا أراد أن يفعل — وبدأ في الصياح، وكان من المدهش أنه لم يُسمَع في الكاتدرائية بالأسفل، وكان سيحدُث ذلك لولا أنَّ صوت الأرغن كان عاليًا إلى حدٍّ ما. وخلال مقاومته، انزلق — كان ذلك بجوار المدخل المفتوح تمامًا — وقبل أن أتمكَّن من الإمساك به، اندفع عبر المدخل وسقط! لقد كان مجردَ حادث عارض، أيها السادة! أُقسم إني لم يكن لدي أيُّ نية لإيذائه.»

سأل ميتشينجتون، في نهايةِ صمتٍ قصير: «وماذا حدث بعد ذلك؟»

تابع فلود: «قابلت السيد فوليوت — راي.» وتابع: «كان ذلك بعد الحادث مباشرة. وأخبرته، فطلب مني التزامَ الصمت حتى نرى كيف ستجري الأمور. ثم في وقتٍ لاحقٍ أجبرني على التزام الصمت. ماذا كان يُمكنني أن أفعل؟ وفقًا لمجريات الأمور، كان بإمكان راي التنصُّلُ مني — لم يكن أمامي أيُّ فرصة. لذلك أمسكتُ لساني.»

سأل ميتشينجتون: «والآن، إذن، ماذا عن كوليشو؟» وأردف: «أخبِرنا بالحقيقة عن ذلك. أيًّا كانت الحادثة الأخرى، فإن هذه جريمةُ قتل!»

رفع فلود يدَه ومسح العَرقَ الذي تجمَّع على وجهه.

وأجاب: «أقسم بالله، أيها السادة!» وأضاف: «أنا لا أعرف أكثر — على الأقل، أنا أعرف أكثرَ قليلًا — عن ذلك مما تعرفونه أنتم! وسأخبركم بكلِّ ما أعرفه. كنا أنا وراي، بالطبع، نلتقي بين الحين والآخر ونتحدَّث عن هذا الأمر. وقد تناهى إلى مسامعنا في النهاية أن كوليشو يعرف شيئًا ما. وكان انطباعي الخاص هو أنه رأى ما حدث بيني وبين السيد بريك — حيث كان يعمل في مكانٍ ما هناك. فأردتُ التحدُّث إلى كوليشو. لكن راي لم يسمح لي، وطلب مني ترك الأمر له. وبعد ذلك بقليل، أخبرني أنه قدَّم لكوليشو رشوةً بمبلغ خمسين جنيهًا ...»

تبادل ميتشينجتون والمحققُ النظرات.

ثم سأل المحقق: «راي — أيْ فوليوت — دفع لكوليشو مبلغ خمسين جنيهًا، أليس كذلك؟»

أجاب فلود: «لقد أخبرَني بذلك.» وأردف: «كي يُمسك لسانه. لكن بمجرد أن سمعتُ بذلك سمعت أيضًا بموت كوليشو المفاجئ. وعن كيفية حدوثِ ذلك، أو مَن ... مَن الذي تسبَّب فيه. أقسم، أيها السادة، إنني لا أعرف شيئًا! وأيًّا كان ما دار بذهني، فأنا لم أذكره لراي قط، قط! فأنا ... أنا لم أكن أجرؤُ على فعل ذلك! أنتم لا تعرفون أيَّ نوع من الرجال هو راي! لقد وقعتُ تحت سيطرته معظمَ حياتي والآن ماذا ستفعلون معي، أيها السادة؟»

تبادل ميتشينجتون كلمةً أو كلمتين مع المحقق، وبعد ذلك، أخرج رأسه من الباب وأشار إلى الشرطي الذي تحدَّث إليه على طرَفِ الحارة الذي ظهر الآن بصحبة أحدِ زملائه في الشرطة. واستدعى كِلَيهما إلى الكوخ.

ثم قال لخادم الكاتدرائية بحِدَّة: «اشرب الشاي الخاص بك.» وتابع: «سيظلُّ هذان الشرطيَّانِ معك هنا — عليك ألا تُغادر هذه الغرفة.» وأعطى بعض التعليمات إلى الشرطيَّين بصوتٍ خافت وأشار لرانسفورد والآخَرين كي يتبعوه. ثم قال، بعد أن أصبحوا بالخارج في الحارة الضيقة: «لقد استرعى انتباهي أنَّ ما سمعناه للتو به بعض الحقيقة. والآن دعونا ننتقلْ إلى منزل فوليوت — هناك طريقٌ يؤدي إليه من هنا.»

كانت السيدة فوليوت بالخارج، وكان ساكفيل بونهام لا يزال حيث ترَكه برايس، في ملاعب الجولف، عندما وصل المطارِدون إلى منزل فوليوت. حيث وجَّهَتهم الخادمةُ إلى الحديقة، وتطوَّع بُستاني باقتراح أن سيده قد يكون في بيت البئر العتيق وأرشدهم إلى الطريق. ورآهم فوليوت وبرايس قادِمَين فنظر كلٌّ منهما إلى الآخر.

وصاح برايس متعجبًا: «جلاسديل!» وأضاف: «يا إلهي، يا رجل! لقد أبلغ عنك!»

كان فوليوت لا يزال يُحدِّق عبر النافذة. ورأى رانسفورد وهاركر يتبعان الأشخاصَ الذين في المقدمة. وفجأةً التفت إلى برايس.

وسأله: «هل لك يدٌ في هذا الأمر؟»

صاح برايس متعجبًا: «أنا؟» وأضاف: «أنا لم أعرف شيئًا قط قبل الآن!»

أشار فوليوت إلى الباب.

وقال: «انزل!» وأردف: «وافتح لهم الباب، وادعُهم للصعود إلى هنا! أنا ... أنا سأُسوي الأمرَ معهم. اذهب!»

أسرع برايس إلى الغرفة السُّفلية. كان الانفعال يجتاحه — وهو أمرٌ غيرُ معتَادٍ بالنسبة إليه — ولكن في غضون ذلك، بينما يتقدَّم نحوَ الباب الخارجي، طرأ على ذهنه

فجأةً فكرةُ أن كل مخطَّطاته وتدابيره ضاعت هباءً. لقد اتضحَت الحقيقة، ولن تُفيده على الإطلاق. لقد هُزم.

لكن ذلك لم يكن وقتَ التأمل الفلسفي؛ كان مَن بالخارج يطرقون الباب بالفعل. ففتحه على مِصراعَيه، وجفل الرجال الذين في المقدمة باندهاشٍ عند رؤيته. لكن برايس انحنى إلى الأمام نحو ميتشينجتون — وكان حريصًا على لعبِ دورٍ حتى النهاية.

وقال هامسًا: «إنه في الغرفة العُلوية!» وتابع: «هناك بالأعلى! سوف يحاول خداعك إذا استطاع، لكنه اعترفَ لي للتو ...»

دفع ميتشينجتون برايس جانبًا، على نحوٍ شبهِ عنيف.

وقال: «نحن نعرف كلَّ شيء عن الأمر!» وتابع: «سيكون لي معك كلمةٌ أو كلمتان لاحقًا! تعالَ، الآن ...»

احتشد الرجال على السُّلم المؤدِّي إلى مقرِّ استرخاء فوليوت، وتبِعهم برايس، وهو يتساءل عن معنى كلماتِ المفتِّش وأسلوبه، عن كثبٍ بعد المفتش والمحقق وجلاسديل، الذي تقدَّمهم. كان فوليوت يقف في منتصف الغرفة، بينما إحدى يدَيه خلف ظهره، والأخرى في جيبه. وعندما دخل الثلاثة الذين في المقدمة إلى المكان، أظهر يدَه المَخْفية بنحوٍ حاد وصوَّب مسدسًا نحو جلاسديل وأطلق عليه الرصاصَ مباشرة.

لكن لم يكن جلاسديل هو مَن سقط. إذ إنه، بحذرٍ ويقظة، قفز جانبًا عندما رأى حركة فوليوت، ووجدت الرصاصةُ، وهي تمر بين ذراعه وجسده، مُستقَرًّا لها في جسد برايس، الذي سقط، دون أن يتأوَّه، بطلقةٍ في القلب. وبينما يسقط، لم ينظر فوليوت إلى ما فعله، وسحب يدَه الأخرى من جيبه، ووضع شيئًا في فمه وجلس على الكرسيِّ الكبير خلفه ... وفي غضون لحظة، كان الرجال الآخرون في الغرفة ينظرون بوجوهٍ مفزوعةٍ إلى جثَّتَي برايس وفوليوت.

الفصل السابع والعشرون

السرُّ المصون

دخلت ماري بيوري، عندما تركها برايس، إلى المنزل في انتظار عودة رانسفورد من لندن. وكانت تنوي أن تُخبره بكلِّ ما قاله برايس وأن تتوسَّل إليه أن يتخذ خطواتٍ فوريةً لتصحيح الأمور، ليس فقط لكي يَبْرأ من الشكوك ولكن أيضًا لكي يُوضَع حدٌّ لمكائد برايس. وكان لديها بعضُ الأمل في أن يعود رانسفورد بأخبارٍ مُرضية؛ فهي تعلم أن زيارته السريعةَ إلى لندن لها علاقة بهذه الأمور، وتذكَّرت أيضًا ما قاله في الليلة السابقة. وهكذا، بينما كانت تُحاول السيطرة على غضَبِها من برايس ونَفادِ صبرها من الموقف برُمَّتِه انتظرت بصبرٍ قدْرَ استطاعتها حتى اقترب الوقت الذي يُتوقَّع فيه رؤية رانسفورد وهو يعود عبر كلوس. كانت تعرف مِن أي اتجاه سيأتي، وبقيَت بالقرب من نافذة غرفة الطعام تترقَّب وصوله. ولكن جاءت الساعة السادسة ولم ترَ له أيَّ أثر، وعندما بدأَت تعتقد أن قطارَ ما بعد الظهر قد فاته، رأته، على الجانب الآخر من كلوس، يتحدَّث بجِدِّية إلى ديك، الذي جاء الآن نحو المنزل بينما عاد رانسفورد إلى حديقة فوليوت.

جاء ديك بيوري على عجَل. وأدركَت أخته على الفور أنه قد سمع للتو أخبارًا كان لها تأثيرٌ رصين على حماسه المتقد دائمًا. ونظر إليها كما لو كان يتساءل بالضبط كيف يُبلغها بالأمر.

قالت، مستخدمةً الكلمة التي تستخدمها هي وشقيقها دائمًا للإشارة إلى وصيِّهما: «رأيتك مع الدكتور للتو.» وتابعت: «لماذا لم يَعُد إلى المنزل؟»

اقترب ديك منها، ولمس ذراعها.

وقال، وهو يكاد يهمس: «اسمعي!» وأضاف: «عليكِ ألَّا تجزعي، إن الدكتور على ما يُرام، ولكن حدث شيءٌ فظيع للتو. في منزل فوليوت.»

سألَته في حِدَّة: «ماذا؟» وأردفَت: «تحدَّث، يا ديك! أنا لستُ خائفة. ما الأمر؟»

هزَّ ديك رأسه كما لو أنه ما زال لم يُدرك المغزى الكاملَ لأخباره.

وأجاب: «إن الأمر صادمٌ لي!» وتابع: «أنا لم أستوعبه، أنا أعرف فقط ما قاله لي الدكتور؛ أن آتِيَ وأُخبِرَك. انظري هنا، إنه أمرٌ سيئ للغاية. لقد مات فوليوت وبرايس!»

رغمًا عنها، جفَلَت ماري متراجعةً للخلف بفعل الصدمة الكبيرة، وتمسَّكَت بالطاولة التي كانا يقفان بجانبها.

وصاحَت متعجبة: «ماتا!» وأردفت: «عجبًا! لقد كان برايس هنا، يتحدَّث معي، منذ أقلَّ من ساعة!»

قال ديك: «ربما.» وأضاف: «لكنه ميت الآن. الحقيقة هي أن فوليوت أطلق عليه النارَ بمسدس، فقتله على الفور. ثم سمَّم فوليوت نفسَه — قال الدكتور إنه تناول من الحبوب نفسِها التي قتلَت ذلك الرجل كوليشو، ومات على الفور. لقد حدث هذا في بيت البئر العتيق بمنزل فوليوت. كان الدكتور هناك والشرطة أيضًا.»

سألت ماري: «ماذا يعني كلُّ ذلك؟»

أضاف ديك: «لا أعرف. بخلاف هذا، لقد اكتشفوا حقيقة الجريمتين الأُخريَين — جريمتَي مقتل برادن وكوليشو. كان فوليوت متورطًا فيهما؛ ومَن برأيكِ كان الآخَر؟ لن تُخمني أبدًا! ذلك الرجل فلادجيت، خادم الكاتدرائية. لكن هذا ليس اسمه الحقيقي على الإطلاق. لقد قتَل هو وفوليوت برادن وكوليشو، على أيِّ حال. ومِن ثَم ألقت الشرطة القبضَ على فلادجيت، وأطلق فوليوت النارَ على برايس وقتل نفسَه عندما حاولوا إلقاء القبض عليه.»

سألته ماري: «هل أخبرك الدكتور بكل هذا؟»

أجاب ديك: «أجل.» وأضاف: «هذا فقط وليس أكثر. لقد نادى عليَّ بينما كنتُ أمرُّ أمام باب منزل فوليوت. وهو سيأتي بمجرد أن يستطيع. يا للعجب! بالقطع، ستعمُّ الثرثرة في المدينة! على أي حال، ستتضح الأمور الآن. لماذا كان برايس هنا؟»

أجابت ماري: «لا تهتمَّ؛ لا أستطيع الحديث عن ذلك، الآن.» كانت تُفكِّر بالفعل كيف أن برايس كان يقف أمامها، نشطًا وحيًّا، قبل ساعة واحدة فقط؛ كانت تُفكر، أيضًا، في تحذيرها له. وأضافت: «كلُّ شيء مروِّع للغاية! ويصعب فهمه!»

قال ديك، وهو يلتفت نحو النافذة: «ها هو الدكتور قادم الآن.» وتابع: «وسيُخبرنا بالمزيد.»

نظرت ماري بقلق إلى رانسفورد وهو يُسارع إلى الداخل. لقد بدا وكأنه رجلٌ مرَّ للتو بأزمةٍ ومع ذلك كانت تُدرك بطريقةٍ ما أنه يشعر بالارتياح، كما لو أن همًّا ثقيلًا قد انزاح فجأة. ومِن ثَم أغلق الباب ونظر إليها مباشرة.

وسألها: «هل أخبرَكِ ديك؟»

قال ديك: «بكلِّ ما قلتَه لي.»

خلع رانسفورد قفازه وألقى به على الطاولة بشيء من التعب. فسارعَت ماري بالتحدُّث.

وقالت: «لا تقُل المزيد — لا تقل أيَّ شيء — حتى تشعرَ بأنك قادرٌ على ذلك.» وأردفَت: «فأنت متعَب.»

رد رانسفورد: «كلا!» وأضاف: «أُفضِّل أن أقول ما يجب أن أقوله الآن — حالًا! لقد أردتُ أن أُخبركما عن كل هذا، وما الذي يعنيه، وكلِّ شيء متعلِّق به، وحتى اليوم، وحتى خلال الساعات القليلة الماضية، كان من المستحيل أن أفعلَ هذا؛ لأنني لم أكن أعرف كلَّ شيء. أما الآن فأنا أعرف! حتى إنني أعرف أكثرَ مما كنتُ أعرفه قبل ساعة. دعوني أُخبِرْكما الآن وأنتهِ من هذا الأمر. هيا اجلسا هناك، كلاكما، واستمعا.»

ومن ثَم أشار إلى أريكةٍ بالقرب من المدفأة، فجلس الأخ والأخت عليها، وهما ينظران إليه في تعجُّب. وبدلًا من أن يجلس هو الآخر، اتكأ على حافة الطاولة، وهو ينظر إليهما.

وقال في خجل: «يجب أن أُخبركما ببعض الأشياء المحزنة.» وتابع: «لكنَّ العزاء الوحيد هو أن الأمر قد انتهى الآن، وجرى توضيحُ أمورٍ معينة، أو يمكن توضيحها، ولن يُصبح لديكما المزيدُ من الأسرار. ولا أنا! فقد اضطُررت إلى كتمان هذا السرِّ في بئرٍ عميقة لمدة سبعةَ عشرَ عامًا! ولم أعتقد قط أنه يمكن البَوحُ به مثلما حدث، بهذه الطريقة البائسة والرهيبة! لكن حدث ذلك الآن، ولا شيء يمكن أن يمنعه. والآن، لتوضيح كل شيء، فقط أَعِدَّا نفسَيكما لسماعِ شيء يبدو، في البداية، صعبًا للغاية. إن الرجل الذي سمعتما عنه باسم جون برادن، الذي جاء إلى هنا لِيَلقى حتْفَه — على نحوٍ غيرِ متعمَّد، مثلما أعتقدُ بشدةٍ الآن — هناك في بارادايس، كان، في واقع الأمر، جون بريك، والِدَكما!»

نظر رانسفورد إلى مستمِعَيه بقلقٍ عندما قال هذا. لكنه لم يلحظ أيَّ علامة على مفاجأةٍ أو انفعالٍ مفرط. حيث نظر ديك إلى أصابع قدَمَيه بشيء من العبوس، كما لو كان يُحاول استيعاب الأمر، بينما واصلت ماري النظر نحو رانسفورد بعينَين ثابتتَين.

كرَّر رانسفورد، وهو يتنفس بحريةٍ أكبرَ الآن بعد أن صرَّح بأسوأ الأخبار: «والدُكما — جون بريك.» وتابع: «ويجب أن أعود إلى البداية لأوضِّح لكما الأمور عنه وعن والدتكما.

لقد كان صديقًا مقرَّبًا لي عندما كنا شابَّين في لندن؛ حيث كان يعمل في وظيفة مدير بنك، وكنتُ أنا طبيبًا مبتدئًا. وقد اعتدنا قضاءَ إجازتنا معًا في ليسترشير. وهناك التقينا بأمكما، التي كان اسمها ماري بيوري. وتزوجها هو، وكنتُ أنا إشبينَه. ثم ذهبا للعيش في لندن، ومنذ ذلك الوقت لم أُقابلهما كثيرًا، فقط بين الحين والآخر. وخلال تلك السنوات الأولى من حياته الزوجية تعرَّف بريك على رجلٍ جاء من الجزءِ نفسِه من ليسترشير الذي قابلنا والدتَكما فيه — رجل يُدعى فولكينر راي. ويمكنني إخباركما أيضًا أن فولكينر راي وستيفن فوليوت هما اسمان للشخص نفسِه.»

توقَّف رانسفورد، ملاحظًا أن ماري ترغب في طرح سؤال.

حيث سألته: «منذ متى وأنت تعرف ذلك؟»

أجاب رانسفورد على الفور: «لم أكن أعلمُ قبل اليوم.» وأضاف: «لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن ذلك! لو كنتُ أعرف فقط — لكني لم أعرف! ومع ذلك، للعودة لحديثنا، هذا الرجل راي، الذي يبدو دائمًا أنه رجلٌ متمكِّن من فن الإقناع، وقادرٌ على خِداع الناس بكل سهولة، أصبح بطريقةٍ ما على اتصالٍ وثيق بوالدكما بشأن الأمور المالية. كان راي في ذلك الوقت يعمل وكيلًا ماليًّا من نوعٍ ما في لندن، ويُشارك في أعمالٍ مختلفة، على ما أظن، لها طبيعة المقامرة. وكان يُساعده في ذلك رجلٌ كان إما شريكًا له أو كاتبًا أو وكيلًا خاصًّا للغاية، واسمه فلود، وهو الرجل نفسُه الذي عرَفتُماه مؤخرًا باسم فلادجيت، خادم الكاتدرائية. بالاتفاق بينهما، يبدو أن هذين الاثنين قد أقنَعا والدكما في بعض الأحيان بالقيامِ بأشياءَ حمقاءَ وغيرِ حكيمة للغاية كانت، على سبيل المثال لا الحصر، تتمثَّل في إقراضِ مبالِغَ مختلفة من المال كقروض قصيرة لمعاملاتهما. ولبعض الوقت كانا يَفِيان بوعودهما له، ودائمًا ما كانت تُسدَّد القروض على الفور. لكن في النهاية، عندما اقترضا منه مبلغًا كبيرًا — بضعة آلافٍ من الجنيهات — لصفقةٍ كان من المقرَّر أن تُجرى في غضونِ يومين، هرَبا بالمال، واختفيا تمامًا، تارِكَين والدكما ليتحمَّل النتائج. يُمكنكما بسهولة فهمُ ما حدث بعد ذلك. كانت الأموال التي أقرضها بريك لهما هي أموالَ البنك. وعندما أجرى البنكُ تفتيشًا بنحوٍ غيرِ متوقَّع على الأرصدة، اكتشف الأمر برمَّته، وجرت مقاضاته. لم يكن لديه دفاع — فقد كان، بالطبع، مذنبًا من الناحية الفعلية — وحُكم عليه بالسجن مع الأشغال الشاقة.»

كان رانسفورد يخشى روايةَ هذا الأمر، ولكن ماري لم تُبدِ أيَّ إشارة، وطرح ديك فقط سؤالًا حادًّا على نحوٍ مفاجئ.

حيث سأل: «لم يكن ينوي سرقة أموال البنك لنفسه، على أي حال، أليس كذلك؟»

رد رانسفورد على عجل: «كلا، كلا! على الإطلاق!» وأضاف: «لقد أخطأ خطأً كبيرًا فيما يتعلق بتقدير الموقف، يا ديك، لكنه وثق في هذين الرجلَين، وخاصةً راي، الذي كان العقلَ المدبِّر. حسنًا، كان هذا هو القدَر المحزِن لوالدكما. الآن نصل إلى ما حدث لأمِّكما ولكما. قبل إلقاء القبض على والدكما، عندما علم أن كلَّ شيء قد ضاع، وأنه ليس بيده شيء ليفعله، أرسل لي على عجل، وأخبرَني بكل شيء في حضور والدتكما. وتوسَّل إليَّ أن أتولَّى رعايتها ورعايتكما على الفور. وكانت هي مُعارِضة لذلك، لكنه أصرَّ. فأخذتكم جميعًا إلى مكانٍ هادئ في الريف، حيث اتخذَت والدتُكما اسمَها قبل الزواج. وهناك، في غضون عام، تُوفِّيَت. إذ كانت امرأةً ضعيفة البِنْية طوال حياتها. وبعد ذلك — حسنًا، كلاكما يعرف جيدًا كيف سارت الأمور منذ أن بدأتما تكبران وتَعِيان ما يجري حولكما. سنترك ذلك، فلا علاقة له بالقصة. أريد أن أعود إلى والدكما. لقد رأيتُه بعد إدانته. وعندما جعلته يشعر بالسعادة لأنكما وأمَّكما بخير، توسَّل إليَّ أن أبذل قصارى جهدي للعثور على الرجلَين اللذَين دمَّرا حياته. وقد بدأت ذلك البحثَ في الحال. لكن لم يكن هناك أيُّ أثر لهما — فقد اختفيا تمامًا كما لو كانا قد ماتا. وقد استخدمتُ كل الوسائل لتتبُّعِهما — دون الوصول إلى نتيجة. وعندما انتهت أخيرًا مدةُ سجن والدكما وذهبتُ لرؤيته عند إطلاق سراحه، كان عليَّ أن أُخبره أنه حتى تلك اللحظة كانت كلُّ جهودي عديمةَ الجدوى. وحثَثْتُه على نسيانِ أمرهما، وبدءِ الحياة من جديد. لكنه كان مُصرًّا. لقد كان مُصرًّا على أن يجد كِلا الرجلَين، وخاصةً راي! وقد رفض بنحوٍ قاطع حتى أن يرى طِفلَيه إلى أن يجد هذين الرجلَين ويجبرهما على الاعتراف بخطئهما في حقه؛ لأن ذلك، بالطبع، كان سيُبرئه إلى حدٍّ ما. وعلى الرغم من كلِّ ما أمكنَني قوله، فقد سافر إلى الخارج بحثًا عنهما — حيث حصل على بعض الأدلة، الواهية وغيرِ المحددة، ولكنها قائمة، على وجود راي في أمريكا، ومن ثَم سافر سعيًا وراءه. ومنذ ذلك الوقت وحتى صباحِ وفاته هنا في رايتشستر، لم أرَه قط مرةً أخرى!»

سألته ماري: «هل رأيته في ذلك الصباح؟»

أجاب رانسفورد: «لقد رأيته، بالطبع، بنحوٍ غيرِ متوقَّع.» وتابع: «لقد ذهبتُ عبر كلوس، وعُدت عبر الممر الجنوبي للكاتدرائية. وقبل أن أُغادر الرِّواق الغربي بقليلٍ رأيت بريك يصعد السلالم إلى المقصورات. فعرَفتُه في الحال. لكنه لم يرَني، فأسرعتُ إلى المنزل منزعجًا للغاية. ولسوء الحظ، حسَبما أظن، جاء برايس ورآني في حالة الانفعال تلك.

لديَّ سببٌ للاعتقاد بأنه بدأ في الشك والتآمر منذ تلك اللحظة. وفورَ سماعي بموت بريك، والظروفِ التي صاحَبَت ذلك، وُضِعت في معضلةٍ رهيبة. إذ إنني كنت قد قررتُ ألا أُخبِرَكما أبدًا عن تاريخ والدكما إلى أن أتمكَّن من تتبُّع هذين الرجلَين وانتزاعِ اعترافٍ منهما يُبرئه من كل شيء باستثناء المسئولية العمَلية عن الجريمة التي عُوقب بسببها. في ذلك الوقت، لم يكن لديَّ أدنى فكرةٍ عن أن الرجلين كانا في متناول قبضتي، ولا أنه لم يكن لهما أيُّ يدٍ في موته، لذا التزمتُ الصمت، وتركته يُدفن تحت الاسم الذي اتخذه — جون برادن.»

توقَّف رانسفورد ونظر إلى مستمِعَيه كما لو كان يدعوهما لطرح سؤالٍ أو تعليق. لكن لم يتكلم أحدٌ منهما، فواصل حديثه.

وتابع: «أنتما تعرفان ما حدث بعد ذلك.» وأردف: «إذ سرعان ما تبيَّن لي أن أمورًا شريرةً وسرية كانت تحدُث. مثل موت المسكين كوليشو. كما كانت هناك أمورٌ أخرى. لكن حتى آنذاك لم يكن لديَّ أيُّ شك في الحقيقة الفعلية — الحقيقة هي أنني قد بدأت أشكُّ بعض الشكوك الغريبة في برايس والعجوز هاركر — بِناءً على أدلةٍ معيَّنة حصلتُ عليها بالصدفة. لكن، طوال هذا الوقت، لم أتوقَّف قط عن تحقيقاتي حولَ راي وفلود، وعندما كان مدير البنك الذي زاره بريك في لندن هنا لحضور جلسةِ التحقيق، أخبرتُه بنحوٍ خاص بالقصة كاملةً ودعَوتُه إلى التعاون في خيطٍ معيَّن كنت أتتبعُه آنَذاك. وقادنا هذا الخيطُ فجأةً إلى الرجل الذي يُدعى فلود — أو فلادجيت. ومع ذلك، لم يكتشف وكلاؤنا على نحوٍ مؤكَّد أن فلود هو فلادجيت، إلا في هذا الأسبوع بالذات، ومن خلال التحريات عن فلود، اكتشَفوا أن راي هو فوليوت. واليوم، في لندن، حيث قابلتُ هاركر العجوزَ في البنك الذي أودعَ فيه بريك الأموال التي أحضرها من أستراليا، جرى توضيح كلِّ شيء من قِبَل آخرِ وكيلٍ لي كان يتولَّى عملية البحث. لقد اتضح كيف يمكن لرجلٍ أن يختفيَ بسهولة في مدَّة معينةٍ من الحياة، ويظهرَ بعد ذلك في مدةٍ أخرى لاحقةٍ! فعندما خدَع هذان الرجلان والدَكما بخصوص تلك الأموال، اختفيا وانفصلا — وحصل كلٌّ منهما، بلا شك، على حصته. وذهب فلود إلى مكانٍ ناءٍ في شمال إنجلترا، بينما سافر راي إلى أمريكا. ومن الواضح أنه جمع ثروةً هناك، وطاف حول العالم مدةً، ثم غيَّر اسمه إلى فوليوت، وتحت هذا الاسم تزوجَ من أرملةٍ ثريَّة، واستقر هنا في رايتشستر لزراعة الورود! لكن كيف وأين صادفَ فلود مرةً أخرى هذا ليس معروفًا على وجه الدقة، لكننا عرَفنا أنه قبل بضعِ سنوات كان فلود في لندن، في ظروف سيئة للغاية، والاحتمال هو أنهما التقَيا مرةً

أخرى آنَذاك. وما نعرفه هو أن فوليوت، بصفته رجلًا مؤثرًا هنا، قد حصل لفلود على الوظيفة التي كان يَشغَلُها، وجرت الأمور مثلما جرت. وهذا هو كل شيء … كل ما أحتاج إلى إخبارِكما به في الوقت الحالي. هناك بعض التفاصيل، لكنها ليست ذاتَ أهمية.»

ظلت ماري صامتة، لكن ديك نهض ويداه في جيبَيه.

وقال: «هناك شيء واحد أريد أن أعرفَه.» وأردف: «أيٌّ من هذَين الرجلين قتلَ والدي؟ لقد قلتَ إنها كانت حادثةً غيرَ متعمَّدة — لكن هل كانت كذلك بالفعل؟ أريد أن أعرف المزيد عن ذلك! هل تقول إنها كانت حادثةً غيرَ متعمدة لمجردِ أن تهدأَ الأمور قليلًا؟ إذن لا تفعل! فأنا أريد أن أعرف الحقيقة.»

أجاب رانسفورد: «أعتقد أنها كانت حادثةً غيرَ متعمدة.» وأردف: «فقد استمعتُ باهتمامٍ شديد إلى رواية فلادجيت لما حدث. وأعتقدُ اعتقادًا راسخًا أن الرجل كان يقول الحقيقة. لكن ليس لديَّ أدنى شكٍّ في أن فوليوت قد سمَّم كوليشو — لا شك لي في هذا على الإطلاق. لقد أدرك فوليوت أنه إذا افتضحَ أمر فلود، فسيفتضحُ أمره هو أيضًا.»

استدار ديك بعيدًا لمغادرة الغرفة.

ثم قال: «حسنًا، لقد انتهى الأمر بالنسبة إلى فوليوت!» وتابع: «أنا لا أهتم به، لكنني أردتُ أن أعرف على وجه اليقين حقيقةَ الآخر.»

عندما ذهب ديك وترك رانسفورد وماري وحدهما، ساد صمتٌ عميق في الغرفة. كان من الواضح أن ماري تُفكِّر بعمق، واستدار رانسفورد، بعد نظرةٍ إليها، ونظر من النافذة نحو كلوس المشمِسة، وهو يُفكِّر في المأساة التي شهدها للتو. وقد انغمس في أفكاره لدرجةِ أنه انتفض عندما شعر بلمسةٍ على ذراعه، فنظر حوله ليرى ماري واقفةً إلى جانبه.

وقالت: «لا أريد أن أقول أيَّ شيء الآن، عما أخبرتَنا به للتو. لقد خمَّنتُ بعضًا منه، وتكهَّنت بالبعض الآخر! لكن لماذا لم تُخبرني؟! من قبل! هل كان ذلك بسبب عدم الثقة؟»

صاح متعجبًا: «الثقة!» وأضاف: «كان هناك سببٌ واحد فقط؛ كنتُ أرغب في تبرئةِ ساحةِ والدك — بقدْر الإمكان — قبل أن أُخبرك بأي شيء. لقد كنتُ أرغب في إخبارِك! ألم تُدركي أنني كرهتُ البقاء صامتًا؟»

فسألته: «ألم تُدرك أنني أردتُ أن أشاركك كلَّ عنائك حيالَ ذلك؟» وأضافت: «كان هذا ما آلمني — لأنني لم أستطِع فعْل ذلك!»

أخذ رانسفورد نفَسًا طويلًا ونظر إليها. ثم وضع يدَيه على كتفَيها.

وقال: «ماري!» ثم أردف: «أنتِ ... أنتِ لا تقصدين أن تقولي ... كوني واضحة — هل تعنين أنكِ يمكن أن تهتمِّي برجلٍ عجوز مثلي؟»

كان يُمسكها بعيدًا عنه، لكنها فجأة ابتسمَت واقتربت منه.

وأجابت: «لا بد أنك كنت أعمى للغاية؛ لأنك لم ترَ ذلك منذ مدة طويلة!»

هنـــداوي